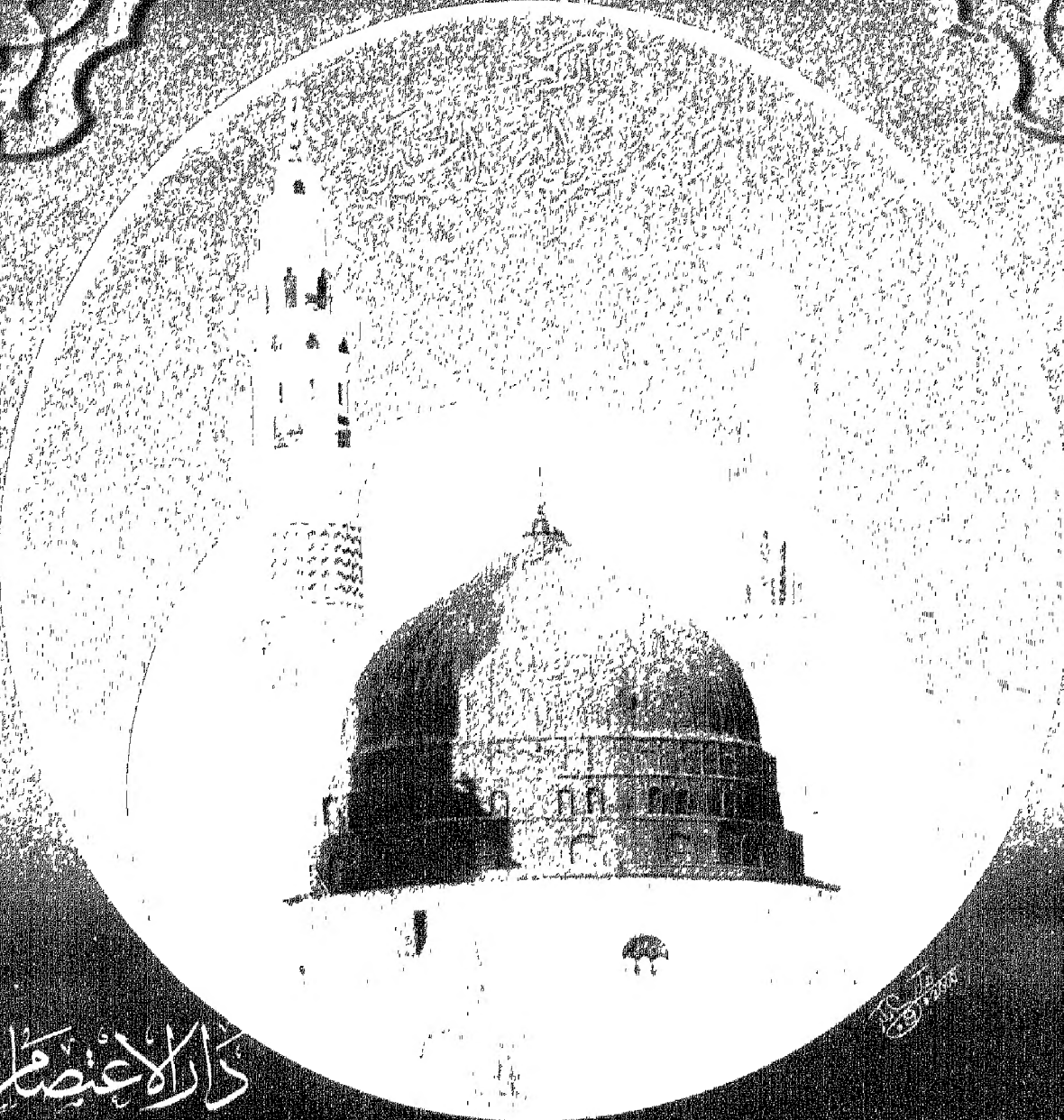


التبوة الحجازية

دلائلها وخصائصها



دار الإحياء

اهداءات ٢٠٠٢

د/ محمد سيد احمد المسير

القاهرة

النبوة المحمدية دلائلها وخصائصها

أ. د. محمد سيد أحمد المسير

دار الأحياء

دار الأحياء
للطباعة والنشر والتوزيع
٨ شارع حسين حجازي - القاهرة
هاتف : ٧٩٥١٧٤٨ - ٧٩٤٤٧٤٨ - فاكس : ٧٩٤٦٠٣١
ص : ب : ٤٧٠ القاهرة - الرمز البريدي : ١١٥١١

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى..

أما بعد.

فيسرني أن أقدم للمقارئ الكريم هذه الطبعة الثالثة من كتاب «الرسول والوحى» فى دراسة موضوعية تعتمد التحليل العقلى والفهم الصافى لمعالم السيرة النبوية فى جانب مهم يتصل اتصالاً وثيقاً، ويرتبط ارتباطاً جوهرياً بعقيدة المسلم..

وقد قمنا فى هذه الطبعة الجديدة بحذف بعض البحوث وإضافة بحوث أخرى، كما أعدنا ترتيب الأبواب حتى تجمع بين العقيدة والسيرة جمعاً يصحح للإنسان عقيدته ويتسامى به إلى علياء الخلق العظيم لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، ولذا فقد آثرنا عنواناً جديداً هو «النبوة المحمدية: دلائلها وخصائصها»

وجاءت أبواب الكتاب على النحو التالى:

الباب الأول: ملامح الشخصية المحمدية:

ويتضمن ستة مباحث:

الأول: اليتيم:

لقد ولد محمد صلى الله عليه وسلم يتيماً فأواه الله.. وإن حكمة بالغة تشد عقل الإنسان هنا إلى آفاق عليا من التأمل.. فالأسباب المادية التى تعارف الناس عليها ليست هى كل شىء، ووراء كل ظاهرة فى الطبيعة والإنسان تدبير إلهى محكم.

ومحمد صلى الله عليه وسلم هو اليتيم الذى كفله أكثر من شخص، وعاش فى أكثر من بيت، فما وجد فيه عيب، ولا عُرف عنه مطعن، وإنما كان الطاهر النزيه والعفيف الزاكى.

وقد أشار البحث إلى إرهاصات المولد الشريف، وأكد أن لدينا من الحق والصدق ما يباعد بيننا وبين قصص الوضعيين..

الثانى: راعى الغنى:

لعل لله حكمة فى رعى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم للغنى فى شبابه، فهو يكسب صاحبه يقظة، حتى لا يعدو الذئب على شاة منها، ويجعله حريصاً على المصلحة، صابراً على المشاق، مثابراً على الهدف.. ويدع للراعى فرصة التأمل فى مظاهر الطبيعة ونظام الكون حين يجلس الراعى فى امتداد الصحراء.

وعاش محمد صلى الله عليه وسلم بعيداً عن زخرف الحياة، فلم يسعَ إلى شهرة، ولم يعبأ بمادة، وكان قبل البعثة وبعدها عزيز النفس كريماً، يتسامى على كل المتع، ويتعالى فوق كل إغراء..

والمتتبع لتاريخ الأنبياء يجد أن للغنى دوراً فى هذا التاريخ، فإسماعيل وقصة الفداء، وموسى وعصاه، وامرأتا مدين، وداود وسليمان إذ يحكمان فى الحرث.. لقد كان للرعى دور أساسى فى التاريخ الإنسانى، ولا زال للأغنام ارتباطها الوثيق بحياة البشر.

الثالث: الصادق الأمين:

لقد كان الصدق والأمانة هما العلم المرفوع من أعلام النبوة فى يومها الأول حين قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (أرأيتم لو أخبركم أن خيلاً تخرج بسفح هذا الجبل أكتتم مصدقى؟).

قال الناس يومئذ: ما جربنا عليك كذباً..!

والمنطق السليم يقول: لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله..!!
لقد شارك محمد صلى الله عليه وسلم فى بناء الكعبة ووضع الحجر الأسود، وارتضاه القوم حكماً بينهم وقالوا: هذا الأمين، رضينا..!!

وشهد محمد صلى الله عليه وسلم فى دار عبد الله بن جدعان حلف الفضول، لنصرة المظلوم ومؤازرة الحق، وقال: (ما أحب أن لى به حمر النعم، ولو أدعى به فى الإسلام لأجبت)..!!

وتحنّث محمد صلى الله عليه وسلم فى غار حراء، تأملاً وفكراً، وانقطاعاً وخلوة، وصلة وبرا..

كل ذلك بإلهام الله وتوفيقه.

الرابع: الأُمى،

إن حكمة إلهية كبرى تكمن فى أن هذا الوصف ملاحظ فى صدق الرسالة وحقيقة الوحى إلى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

إن معجزات الأنبياء السابقين معجزات حسّية ترتبط بشخصية رسولها ووقت ظهورها ولا تُعلم إلا لمن شاهدها أو نُقلت إليه تواتراً..

أما معجزة القرآن العظيم فهى معجزة عقلية ذاتية، تحمل الدليل معها على أنها من عند الله، لا ترتبط بزمن ولا تختص بحياة الرسول..

وكل من أدرك أن سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم أُمى، وأن القرآن المجيد سجد له البلغاء، وتلمذ عليه الفلاسفة، وأصلح شئون الحياة كلها - يزداد عمق إيمانه ويقينه بأن محمداً رسول الله..

وكل شواهد الحياة المحمدية تدل دلالة قاطعة على أنه صلى الله عليه وسلم ما توقع رسالة ووحيا، ولا أعد نفسه لزعامة أو سلطان، ولا عُرف عنه الانفعال والثورة..

وعندما يتحمل بعد ذلك رسالة للعالمين لا تكون إلا تكليفاً إلهياً..

الخامس: كلمة تنبيه:

إن اليتيم والفقر والأمية لا شك أنها - فى مجموعها - قاذحة فى شخصية الإنسان على وجه العموم..

لكنها فى نطاق الإعداد للنبوة والاصطفاء للرسالة تضعنا فى نطاق القدرة الإلهية والعناية الربانية..

ولا يحق لمسلم أن يقيم على فقر أو أمية مدعياً أن الرسول كان كذلك، وإن الفقر الذى ينشأ عن تكاسل أو ترك للسعى مع القدرة عليه هو فقر معصية، يحاسب عليه الإنسان أمام ربه، كما أن الفقر الذى ينجم عن التبذير والإسراف هو أيضاً فقر معصية يُسأل عنه المرء يوم القيامة.

السادس: حديث هرقل:

إن حديث هرقل الروم مع أبى سفيان حين جاءه كتاب النبى صلى الله عليه وسلم يدعو به إلى الإسلام يمثل منهجاً صحيحاً فى الاستدلال، فهو قائم على استقراء أحوال النبى صلى الله عليه وسلم، وتتبع أطوار حياته وملاحم شخصيته ليتخذ من ذلك كله أعلاماً للنبوّة..

الباب الثانى: دلائل النبوة المحمدية:

وفيه خمسة فصول:

الفصل الأول: العمق التاريخى لشخصية الرسول:

لسيدنا رسول الله عمق تاريخى يتجلى فى تذكير الله تعالى لأنبيائه وأقوامهم بتلك الرسالة الخاتمة التى يبعث بها النبى العربى والرسول الأمى، باعتبارها الرسالة العامة الخالدة..

والدراسة فى هذا الفصل قائمة على ثلاثة مباحث:

(الأول) ميثاق النبیین:

وهو المشار إليه فى قوله تعالى: «وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ» (١).

(الثانى) دعوة إبراهيم:

وهى المشار إليها فى قوله جل شأنه: «رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» (٢).

(الثالث) بشرى عيسى:

وقد تظاهرت آيات القرآن المجيد مؤكدة حقيقة البشارة بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فى التوراة والإنجيل، وملزمة لأهل الكتاب ضرورة الإيمان بهذه النبوة الخاتمة تصديقاً لما معهم.

(١) آل عمران ٨١

(٢) البقرة ١٢٩

الفصل الثانى: الواقع المعاصر لنشأة الدعوة:

إن الإنسانية قبيل البعثة المحمدية كانت فى حاجة ماسة، وضرورة ملحة لدعوة الإسلام الخالدة، فلم يتوفر للناس صحة الإيمان وصدق اليقين فى مذهب أو نحلة أو دين.. وباستقراء الواقع التاريخى لا نجد إلا وثنية مشركة، أو يهودية مادية، أو نصرانية محرفة..

وهذا الفساد العقدى لا ينجم عنه إلا فساد خلقى، فأخلاق الناس على قدر دينهم..

ومن ثم جاءت أبحاث هذا الفصل على جانبين:

١ - الدين

٢ - الأخلاق

فى الجانب الأول ناقشنا ظهور الوثنية فى جزيرة العرب، وكيف بلغت المهانة الدينية مبلغاً جعل العقل الجاهلى يصنع الصنم فيعبده واثقلبت الحقيقة فأصبح العابد يصنع المعبود...!!

وعرضنا لعقائد المجوس ونظرتهم الى الطبيعية وما وراءها..

وأظهر البحث أن اليهود أعداء الإنسانية، فدينهم لا يمنح سكينه النفس والعقل، وهم يرون عقيدتهم حكراً عليهم، ولا يقبلون أن يتهود البشر، ولا يرضون للإنسان إلا أن يكون ذليلاً لهم، مسلوب الإرادة أمام مخططاتهم..

والنصرانية لم تكن بالدين الصحيح الذى جاهد عليه المسيح، واكتنفها الغموض ودخلها التحريف ومزقتها الصراعات..

وفى الجانب الثانى: قدمنا تصوراً عاماً عن الفساد الخلقى من الواقع الجاهلى فى المنطقة العربية، وعرضنا لأنواع النكاح فى الجاهلية، ووآد البنات، وقانون الغاب الذى ساد فيها..

ولم يكن هذا العرض إلا مثالا لما يجرى فى العالم أجمع، ففى فارس جعل «مزدك» الناس شركاء فى النساء والأموال، وفى الهند ساد نظام الطبقات الاجتماعية

الشاذ، وعلى الصعيد العالمى دارت الحرب سجالات بين الفرس والروم، وشقى الناس بويلاتها..

ولا ينفى هذا أن هناك أضواء خافتة ظهرت فى حياة هؤلاء البشر:

فالحنفاء بحثوا عن الدين الصحيح..

ووجد من أحياء الموءودة..

ومنهم من أحب مكارم الأخلاق..

لكن هذه اتجاهات فردية وليست ظواهر اجتماعية عامة، وليس لها من صحة القصد وسلامة الاعتقاد ما يجعلها مذهباً أخلاقياً..

الفصل الثالث: المعجزة الكبرى:

إن المعجزة الكبرى للرسول صلى الله عليه وسلم هى القرآن المجيد، وبه وقع التحدى للإنس والجن، ومن المقطوع به أن القرآن نزل مفرقا طوال مدة الرسالة وهى ثلاث وعشرون سنة، ومع هذا الانفصال الزمنى فإن القرآن المجيد محكم الأسلوب، قوى الاتصال، أخذ بعضه برقاب بعض فى سورته وآياته، فى انسجام ووحدة وترابط، كأنما نزل جملة واحدة، وماذا لك إلا لأنه تنزيل رب العالمين..

وتتعدد وجوه الإعجاز القرآنى، ومنها:

- الإعجاز البيانى.

- الإعجاز العقدى.

- الإعجاز التشريعى.

- الإعجاز العلمى.

- الإخبار بالغيب.

الفصل الرابع: المعجزات الحسية:

لقد وقعت على يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم خوارق للعادات حسية، واجتمع له صلى الله عليه وسلم ما لم يجتمع لنبى قبله، وهذه الخوارق منها ما يدخل تحت المعجزة الاصطلاحية كالإسراء والمعراج وانشقاق القمر، لأن التحدى

وقع بها، ومنها ما يعد تكريماً للنبي وتثبيتاً للذين آمنوا معه، وذلك كنبيع الماء من بين أصابعه الشريفة، وتكثير الطعام القليل، وحنين الجذع وغيرها..

الفصل الخامس: الخلق العظيم:

إن جوانب الأخلاق كثيرة متعددة، ولكل إنسان نصيب منها قلّ أو كثر، لكن أن نحمد إنساناً جمع فضائل الأخلاق كلها، وحاز المكارم بأجمعها، والتقى فيه شرف النسب، وجمال النفس والبدن، ومحاسن السلوك، فهذا لا يكون إلا محمداً صلى الله عليه وسلم صاحب الخلق العظيم.

الباب الثالث: الوحي المحمدي:

وفيه فصلان:

الفصل الأول: صور الوحي المحمدي:

إن تتبع أحوال الوحي مع الرسول صلى الله عليه وسلم واستقراءها تصل بنا إلى أن صور الوحي المحمدي هي:

- ١ - الرؤيا الصالحة.
- ٢ - لقاء إسرافيل.
- ٣ - صلصلة الجرس.
- ٤ - تشكّل الملك في صورة رجل.
- ٥ - رؤية الملك في صورته الحقيقية.
- ٦ - المناجاة في الحضرة الإلهية.

الفصل الثاني: شبهات حول الوحي المحمدي:

إن الدفاع عن الوحي المحمدي هو دفاع عن شرف الأنبياء جميعاً، وإن إثبات النبوة لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم والإيمان به إنما هو إثبات لنبوة الأنبياء جميعاً، وإيمان بهم بلا تفريق.. وقد ناقشنا أربع شبهات هي:

البشرية - السحر - الجنون - الصرع.

الباب الرابع: خصائص النبوة المحمدية:

وفيه فصلان:

الفصل الأول: عموم الرسالة:

إن آيات القرآن وأحاديث الرسول قاطعة في عموم الرسالة المحمدية زمانا ومكانا، فلا تقف عند زمن معين، ولا يحدّها مكان خاص، ولا يخاطب بها جنس دون آخر. وإن اليقين بصدق الرسالة بناء على المعجزة العقلية والمعجزات الحسية وبشائر الأنبياء والخلق العظيم يستلزم صدق ما يصدر عن صاحب الرسالة فيما يبلغ عن ربه عز وجل..

الفصل الثاني: ختم النبوة

انطلاقا من دلائل النبوة وتأكيدا لعموم الرسالة تأتي قضية ختم النبوة لتقرر أن محمدا صلى الله عليه وسلم آخر الأنبياء وأن رسالته باقية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فلا وحى بشريعة جديدة، ولا نسخ للشريعة الإسلامية، فقد تكامل الدين وتمت النعمة الإلهية على الخلق، ونزل قول الله تعالى:

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة/ ٣].

أبو حذيفة

د. محمد سيد أحمد المسير

أستاذ العقيدة والفلسفة - كلية أصول
الدين

القاهرة في ١٣ من ربيع الأول ١٤٢١ هـ

١٦ / ٦ / ٢٠٠٠ م

الباب الأول

ملاحح الشخصية المحمدية

اليتيم
راعى الغنم
الصادق الأمين
الأمى
كلمة تنبيه
حديث هرقل

اليقيم

محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، الهاشمي، القرشي، سلالة الأطهار،
وسليل الكرام.. صلى الله عليه وسلم.

سمى محمداً لكونه جامعاً لصفات الخير فيحمده الله والناس..

ولم يجعل الله لهذا الاسم سميّاً إلا قبيل الميلاد الشريف، لما تسمع الناس أن
نبياً يبعثه الله من العرب يسمى محمداً، فكانوا ستة لا سابع لهم، وهم:

* محمد بن أحيحة بن الجلاح الأوسي.

* محمد بن مسلمة الأنصاري.

* محمد بن براء البكري.

* محمد بن سفيان بن مجاشع.

* محمد بن حمران الجعفي.

* محمد بن خزاعي السلمي.

ويعلق القاضي عياض قائلاً: (ثم إن الله حمى كل من يسمى به أن يدعى
النبوة أو يدعيها له أحد، أو يظهر عليه سبب يشكك أحداً في أمره)^(١).

وعبد الله هو أصغر ولد أبيه، كان وسيماً، ومات في ريعان شبابه.

وجده عبده المطلب سيد قومه، ويقال له شيبة الحمد، لكثرة جوده وكرمه، وهو
الذي جدّد حفر زمزم، وهو أول من طلى الكعبة بذهب في أبوابها..

ومحمد الهاشمي، نسبة إلى هاشم بن عبد مناف، واسمه عمرو، وأطلق عليه
(هاشم) لهشمه الثريد مع اللحم لقومه في أوقات الشدة والقحط، وهو أول من سنّ
رحلتى الشتاء والصيف.

ويستمر النسب الشريف إلى النضر بن كنانة الجلد الثاني عشر - وهو قریش.

(١) نقلاً عن البداية والنهاية لابن كثير -، ج ٢ ص ٢٥٩ ط مكتبة المعارف - بيروت

وفى اشتقاق هذه الكلمة نجد أنها من القرش بمعنى الكسب والجمع، أو من التقرّيش بمعنى التفتيش..

فهو الذى وحّد القبيلة بعد تفرّق، وهو الذى كان يبحث عن حاجات الناس فيقضيها لهم..

ويذكر المؤرخون الإجماع فى النسب الشريف على عشرين جداً، هكذا:

محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معدّ بن عدنان..

ولا خلاف أن عدنان من سلالة إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام؛ وما بين عدنان وإسماعيل مختلف فيه، وكان ابن عباس وغيره إذا بلغ عدنان قال: كذب النسّابون!!..

وكره الإمام مالك رفع النسب إلى ما بعد عدنان..

ويُروى عن عروة بن الزبير قوله: ما وجدنا أحداً يعرف ما وراء عدنان ولا ما وراء قحطان^(١) إلا تخرّصاً.

وكان قوم من السلف منهم عبد الله بن مسعود، وعمرو بن ميمون الأزدي، ومحمد بن كعب القرظي إذا تلاوا: «والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله»^(٢).

قالوا: كذب النسّابون^(٣)!!..

ويكفى أن نؤمن بالحديث الشريف - كما فى صحيح مسلم - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من بنى إسماعيل بنى كنانة، واصطفى من بنى كنانة قريشاً، واصطفى من قريش بنى هاشم، واصطفاني من بنى هاشم).

(١) قحطان: جد العرب العاربة، ومهدا بلاد اليمن، ثم انتشرت فى أنحاء الجزيرة العربية.

(٢) سورة إبراهيم، الآية ٩.

(٣) راجع البداية والنهاية لابن كثير، ج ٢، ص ١٩٤.

وفى مسند الإمام أحمد: قال العباس: بلغه صلى الله عليه وسلم بعض ما يقول الناس.. فصعد المنبر فقال: (من أنا؟!).

قالوا: أنت رسول الله..

قال: (أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب.. إن الله خلق الخلق فجعلنى فى خير خلقه.. وجعلهم فريقين، فجعلنى فى خير فرقة.. وخلق القبائل، فجعلنى فى خير قبيلة.. وجعلهم بيوتاً، فجعلنى فى خيرها بيتاً.. فأنا خيركم بيتاً، وخيركم نفساً).

وقد وُلد محمد صلى الله عليه وسلم من نكاح، ولم ينله من سفاح الجاهلية شىء، فقد تزوج عبد الله بن عبد المطلب من سيدة بنى زهرة آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى..

وبعد أن بنى عبد الله بآمنة خرج فى تجارة إلى الشام، وفى طريق العودة تخلف عند أخواله بنى عدى بن النجار بالمدينة لمرض ألمَّ به، فمكث شهراً ثم وافاه الأجل المحتوم بعد حياة لم تزد عن خمس وعشرين سنة.

وأراد الله سبحانه وتعالى أن يُولد محمد دون أن يرى أباه، فأرضعته أمه، كما أرضعته مولاة عمه أبى لهب ثوية، ثم استرضع فى بنى سعد من حليلة بنت أبى ذؤيب، وظلَّ معها خمس سنوات فى بيت زوجها الحارث بن عبد العزى، فى جو الصحراء الطلق يستصفى لغة العرب..

ويذكر الإمام السهيلي الأسباب التى دفعت قريشاً وغيرهم من أشراف العرب إلى استرضاع أولادهم، وهى: تفريغ النساء إلى الأزواج، كما قال عمار بن ياسر لأم سلمة رضى الله عنها، وكان أخاها من الرضاعة - حين انتزع من حجرها زينب بنت أبى سلمة قال: دعى هذه المقبوحة المشفوحة^(١) التى آذيت بها رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقد يكون ذلك منهم أيضاً لينشأ الطفل فى الأعراب، فيكون أفصح للسانه، وأجلد لجسمه، وأجدر أن لا يفارق الهيئة المعدية^(٢)، كما قال عمر رضى الله عنه: تمعددوا، وتمعززا^(٣)، واخشوشنوا.

(٢) نسبة إلى معد وكانوا أهل قوة وشدة.

(١) المشفوحة: المبعدة.

(٣) اشتدوا.

وحين قال أبو بكر - رضى الله عنه : ما رأيت أفصح منك يا رسول الله ؟ .
قال صلى الله عليه وسلم: (وما يمنعنى وأنا من قريش، وأرضعت فى بنى سعد).

فهذا ونحوه كان يحملهم على دفع الرضعاء إلى المراضع الأعرابيات، وقد ذكر أن عبد الملك بن مروان كان يقول: أضربنا حبُّ الوليد...!!

لأن الوليد كان لحناً، وكان سليمان فصيحاً، لأن الوليد أقام مع أمه، وسليمان وغيره من إخوته سكنوا البادية فتعرَّبوا ثم أدَّبوا فتأدَّبوا^(١).

وعاد محمد صلى الله عليه وسلم إلى أمه فمكث معها عاماً، ثم خرجا فى زيارة للمدينة، فماتت وهى راجعة به إلى مكة، فكفله بعد ذلك جده عبد المطلب مدة عامين، توفى بعدهما، فانتقل إلى كفالة عمه أبى طالب..

ومن الملاحظات الطريفة ما قيل:

إن فى اسم الوالدة والقابلة الأمن والشفاء، فأمه آمنة وقابلته الشفاء^(٢)..

وفى اسم حاضنته البركة والسخاء فهى أم أيمن..

وفى اسم مرضعته الأولى الثواب فهى ثوية جارية أبى لهب.

وفى اسم مرضعته المستقلة برضاعه الحلم والسعد فهى حليلة السعدية..!

ولقد صاحب الميلاد الشريف آيات تعد إرهاباً لما ينتظر هذا الوليد من شأن عظيم..

ويذكر كتاب السيرة عن هذه المرحلة من حياة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم مرويَّات تعقبها علماء الحديث.

فما يقال من أن مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون حضرتا الميلاد الشريف، أو أن جبريل ختنه حين طهر قلبه، أو أنه صلى الله عليه وسلم خرَّ جاثياً رافعاً رأسه إلى السماء، أو ما يذكر من أن إيوان كسرى ارتجس ونار فارس خمدت، وبحيرة

(١) الروض الأنف فى تفسير السيرة النبوية لابن هشام - للإمام السهيلي، ج ١، ص ١٨٧.

(٢) الشفاء بكسر الشين المعجمة وتخفيف الفاء، وقيل بفتحها وتشديد الفاء مقصوراً.

ساوة غاضت.. إلخ، ففى كثير منها غرائب ومناكير.. وكان الإمام ابن كثير عقب رواية هذه الآثار يقول مثلاً^(١):

- فى صحتها نظر...!!

- وهذا غريب جداً...!!

- لكن فلاناً هذا متروك كذاب متهم بالوضع، فلهذا لم نذكر لفظ الحديث إذ لا يُفرح به...!!

- هذا الحديث لا أصل له فى شىء من كتب الإسلام المعهودة ولم أره بإسناد أصلاً...!!

حتى الإمام ابن إسحق يسوق عبارة الزعم - ومعروف أن (زعم) مطية الكذب - فيقول مثلاً:

ويزعمون - فيما يتحدث الناس والله أعلم - أن آمنة ابنة وهب أم رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت تحدث: أنها أُتيت حين حملت برسول الله صلى الله عليه وسلم، ف قيل لها: إنك قد حملت بسيد هذه الأمة، فإذا وقع إلى الأرض فقولى أعيذه بالواحد من شر كل حاسد، ثم سميه محمداً، ورأت حين حملت به أنه خرج منها نور رأت به قصور بصرى من أرض الشام.

ونحن لا ننكر أن للمرأة الحامل أوضاعاً نفسية تجعلها تتطلع إلى المستقبل فى محاولة لاستقراء الغيب..

ونحن لا نشك أن لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم إرهابات فى حمله وولادته ونشأته، أهمها حفظ الله تعالى الكعبة المشرفة من هجمة الأحباش..

ونحن لا نريد أن نتكلم رجماً بالغيب أو نتبع قصص الوضّاعين والمجهولين والمتروكين، ويجب أن نفرّق بين إمكان الشىء ووقوعه، فكل شىء ممكن فى قدرة العلى الأعلى، لكن السؤال المطروح هو: هل وقع ذلك أم لا؟!

إن من أغرب الخيال ما ساقه أبو نعيم منسوباً إلى ابن عباس:

(١) راجع البداية والنهاية، ج ٢، ٢٦٢ : ٢٧٧.

«فكان من دلالات حمل النبي صلى الله عليه وسلم أن كل دابة كانت لقريش نطقت تلك الليلة وقالت: حُمِلَ برسول الله صلى الله عليه وسلم ورب الكعبة، وهو أمان الدنيا وسراج أهلها.

ولم يبق كاهنة من قريش ولا قبيلة من قبائل العرب إلا حجبت عن صاحبها وانتزع علم الكهانة.

ولم يكن سرير ملك من ملوك الدنيا إلا أصبح منكوساً، والملك مخرساً لا ينطق يومه ذلك.

ومرت وحوش المشرق إلى وحوش المغرب بالبشارات، وكذلك البحار يبشر بعضهم بعضاً به.

وفى كل شهر من شهوره نداء فى الأرض ونداء فى السماء أن أبشروا فقد آن لأبى القاسم أن يخرج إلى الأرض ميموناً مباركاً».

ثم تستطرد تلك الرواية المزعومة فتصف لحظة المخاض وما صاحبها من طيور أقبلت، مناقيرها من الزمرد وأجنحتها من اليواقيت، وكشف عن بصر آمنة الحجاب فرأت مشارق الأرض ومغاربها، ثم تقول: رأيت سحابة بيضاء قد أقبلت من السماء تنزل حتى غشيتها، فغيب عن وجهي، فسمعت منادياً ينادى، يقول: طوفوا بمحمد صلى الله عليه وسلم شرق الأرض وغربها، وأدخلوه البحار كلها ليعرفوه باسمه ونعته وصورته.. ويعلموا أنه سمي فيها الماحي، لا يبقى شيء من الشرك إلا مُحى به فى زمنه.

ثم تجلت عنه فى أسرع وقت فإذا به مدرج فى ثوب صوف أبيض أشد بياضاً من اللبن، وتحتة حريرة خضراء، قد قبض على ثلاثة مفاتيح من اللؤلؤ الرطب الأبيض، وإذا قائل يقول: قبض محمد على مفاتيح النصر، ومفاتيح الذبح، ومفاتيح النبوة^(١).

إن هذه الرواية أشبه بالأدب الرمزي، ونكاد نقطع أن السيدة آمنة لم نقلها وأن ابن عباس لم ينقلها.

وأيّن كان ابن عباس يوم الميلاد الشريف؟

(١) دلائل النبوة لأبى نعيم الأصبهاني، ص ٢٢١.

إن هذه الأحداث كانت قبل وجود ابن عباس بما يزيد على الخمسين عاماً.
وهل سمع أحد نطق كل دابة لقريش؟

وإذا لم يكن سمعها أحد فما قيمة هذا النطق؟

وإذا سمعها أحد فمن هو؟

وهل هذا الحدث - من السهولة - حتى لا يتناقله الناس ويتواتر؟!

إن قدر سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ومكانته رفيعة وليس فى حاجة إلى
أوهام ننسجها حول ميلاده الشريف..

وإن لدينا من الحق والصدق ما يزيدنا إيماناً على إيمان، وإن أعلام نبوته صلى
الله عليه وسلم أظهر من الشمس فى رابعة النهار..

ويكفينا فى ميلاده الشريف أن نتأمل العبرة الكبرى:

لقد ولد محمد يتيماً فأواه الله..

ونشأ دون أب يرعاه فأدبه ربه..

وتلقفته أيد كثيرة من شأنها أن تورث شتاتاً فى الفكر والسلوك، ولكن الله
تعالى أراد أن يصنعه على عينه وأن تتمحض العناية الإلهية فى كفالة هذا اليتيم،
فيستقيم له الفكر والسلوك فكان الصادق الأمين فى الجاهلية، وكان خلقه القرآن فى
الإسلام.

ثم إن هناك تأملاً آخر، فالعادة جارية بأن اليتيم الذى تتلقفه أيد كثيرة وتتعدد
عليه الولايات، لا يخفى من أمره شىء، وتظهر أخلاقياته وتتضح سلوكياته فلا شىء
مستور منها..

ومحمد ﷺ وهو اليتيم الذى كفله أكثر من شخص، وعاش فى أكثر من بيت
وتعدّد كافلوه - ما وجد فيه عيب وما ظهر منه نقص، وما عُرف عنه مطعن، ولا أخذ
عليه مأخذ، وإنما كان الطاهر النزىه، والصادق الأمين، والعفيف الزاكى.. إنها كفالة
الله.. وعناية المولى.. وتدبير الحكيم العليم..

ولعل نظرة فى حياة الأنبياء ترينا أن أصحاب الرسالات الكبرى نشأوا فى غير كفالة أب، وتباعدها عن جو الأسرة الحانية، وذلك لحكمة بالغة.

فإسماعيل عليه السلام ألقى به فى وادٍ غير ذى زرع، وجاء فى بعض الروايات:

(ثم قفى إبراهيم منطلقاً فتبعته أم إسماعيل فقالت: يا إبراهيم، أين تذهب وتركنا بهذا الوادى الذى ليس فيه أنيس؟!).

فقالت: آله أمرك بهذا؟! قال: نعم.

قالت: إذن لا يضيعنا..).

ويوسف عليه السلام ألقاه إخوته فى الجب والتقطه بعض السيارة وبيع لعزير مصر، ثم دخل السجن، ثم خرج منه أميناً على خزائن الأرض، واستخلصه الملك لنفسه..

وموسى عليه السلام ألقته به أمه فى اليم والتقطه آل فرعون، وتربى فى قصر فرعون، ولبث فيه السنين الطوال..

وعيسى عليه السلام أتت به مريم قومها دون أن يمسه بشر ودون أن يقوم على أمر رعايته والد..

إن هؤلاء جميعاً كانوا أنبياء وتحملوا رسالة الوحي الإلهى.

«وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا»^(١).

«وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ وَلَا جُرْ الْآخِرَةَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ»^(٢).

«فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى. وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى»^(٣).

(١) سورة مريم الآيتان ٥٤ و ٥٥.

(٢) سورة يوسف، الآيتان ٥٦ و ٥٧.

(٣) سورة طه، الآيات ١١ - ١٣.

«إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ. وَيَكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ» (١).

إن حكمة بالغة هنا تشدّ عقل الإنسان إلى آفاق عليا من التأمل..

فالأَسباب المادية التي تعارف الناس عليها ليست هي كل شيء..

إن وراء كل ظاهرة في الطبيعة والإنسان تدبيراً إلهياً محكماً..

وإن عقل الإنسان في إدراكه لقضايا الحياة قاصر عن الإحاطة والاستيعاب..

إن الحقيقة الكبرى التي يجب أن تكون فلسفة الإنسان في حياته كلها هي ما عبر عنه القرآن العظيم في قوله: «وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا» (٢).

* * *

(١) سورة آل عمران ، الآيتان ٤٥ و ٤٦ .

(٢) سورة الفرقان ، الآية ٥٨ .

راعى الغنم

ورث سيدنا محمد ﷺ عن أبيه خمسة من الإبل ، وقطيعاً من الغنم ، وجارية هى أم أيمن^(١) ..

وتلك ثروة - فى عرف زمانها - ضئيلة ، إلا أن الله تعالى هبأ له الأسباب وعمل سيدنا محمد فى رعى الغنم ، فقد رعاها وهو صبي فى بنى سعد ، ورعاها وهو شاب فى مكة ، وكان يذكر ذلك مغتبطاً ، فالعمل شرف ، واكتساب الرزق فريضة ..

وفى رواية البخارى قال عليه الصلاة والسلام : (ما بعث الله نبياً إلا وقد رعى الغنم) . فقال له أصحابه : وأنت يا رسول الله ؟

قال : (وأنا رعيته لأهل مكة بالقرارىط)^(٢) .

ولعلّ لله حكمة فى رعى الغنم ، فهو يكسب صاحبه يقظة حتى لا يعدو الذئب على شاة منها ، ويجعله حريصاً على المصلحة ، صابراً على المشاق ، مثابراً على الهدف ، كى يوفر لغنمه مآكلها ومشاربها ..

ثم إن الرعى بعد ذلك يدع للراعى فرصة للتأمل فى مظاهر الطبيعة ونظام الكون حين يجلس فى امتداد الصحراء يلحظ غنمه ..

والمتتبع لتاريخ الأنبياء يجد أن للغنم دوراً فى هذا التاريخ ..

فإسماعيل عليه السلام ترتبط قصة حياته بكبش أنزله الله فداءً له وتصديقاً لرؤيا أبيه ..

« فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّءْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ * وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ »^(٣) .

وموسى عليه السلام ، وهو فى الوادى المقدس ، حال المفاجأة الكبرى ، جرى هذا الحوار :

(١) أعتقها الرسول فيما بعد ، وزوجها مولاه زيد بن حارثة فولدت له أسامة .

(٢) القرارىط : أجزاء من الدراهم والدنانير يشتري بها الحوائج اليسيرة .

(٣) سورة الصافات ، الآيات ١٠٣ - ١٠٧

«وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى؟ * قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى» (١).

ولما ائتمر القوم بموسى وتوجه تلقاء مدين وقعت أحداث كان للغنم فيها نصيب، فقد سقى للمرأتين ثم دعى إلى بيت أبيهما الشيخ الكبير، وانتهى الأمر بالزواج من إحداهما، وظل مع أبيها عشر سنين يرعى له الغنم: «قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ * قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَنْكَحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حَجَّجَ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ * قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ» (٢).

وداود عليه السلام تسور عليه الخصمان مكان عبادته ليحكم بينهما فى شركة: لأحدهما تسع وتسعون نعجة وللآخر نعجة واحدة، وأراد صاحب النصيب الكبير أن يستأثر بالشركة كلها لنفسه، فحكم داود وعدل وبين عبدة الحياة:

«قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعَجَتِكَ إِلَىٰ نَعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ» (٣).

وأشار القرآن إلى قصة نزاع بسبب الغنم تحاكم فيها أصحابها إلى داود وسليمان عليهما السلام، فحكم سليمان وهو صغير بحكم غير حكم أبيه، وكان حكم سليمان أرفق:

«وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ * فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا...» (٤).

قال أكثر أهل العلم: (إن الحرث الذى حكم فيه سليمان وداود - إذ نفشت فيه غنم القوم - بستان عنب.

(١) سورة طه، الآيتان ١٧ و ١٨.

(٢) سورة القصص، الآيات ٢٦ - ٢٨.

(٣) سورة ص، الآية ٢٤.

(٤) سورة الأنبياء، الآيتان ٧٨ و ٧٩.

والنفس: رعى الغنم ليلاً خاصة.

وقيل: كان الحرث المذكور زرعاً.

وذكروا أن داود حكم بدفع الغنم لأهل الحرث عوضاً عن حرثهم الذى نفشت فيه فأكلته.

وقال بعض أهل العلم: اعتبر قيمة الحرث فوجد الغنم بقدر القيمة فدفعها إلى أصحاب الحرث، إما لأنه لم يكن لهم دراهم أو تعذر بيعها ورضوا بدفعها ورضى أولئك بأخذها بدلاً من القيمة.

وأما سليمان فحكم بالضمان على أصحاب الغنم وأن يضمنوا ذلك بالمثل بأن يعمرروا البستان حتى يعود كما كان حين نفشت فيه غنمهم، ولم يضيع عليهم غلته من حين الإتلاف إلى حين العود، بل أعطى أصحاب البستان ماشية أولئك ليأخذوا من ثنائها بقدر ثناء البستان فيستوفوا من ثناء غنمهم نظير مافاتهم من ثناء حرثهم، وقد اعتبر الثناءين فوجدهما سواء..

قالوا: وهذا هو العلم الذى خصه الله به وأثنى عليه بإدراكه.. هكذا يقولون والله تعالى أعلم^(١).

لقد كان للرعى دور أساسى فى التاريخ الإنسانى، ولا زال للأنعام ارتباطها الوثيق بحياة الإنسان.. وصدق الله حيث يقول:

«أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ * وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ * وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ»^(٢).

والأنبياء ما هم إلا بشر يعيشون مجتمعهم بكل معاملة الإنسانية، ولعل فى رعى الغنم توطئة لرعى الخلق وسياستهم..

ولم يكتف سيدنا محمد ﷺ برعى الغنم، بل ذهب فى شبابه المبكر مع عمه أبى طالب فى تجارة إلى الشام..

(١) أضواء البيان فى إيضاح القرآن بالقرآن - العلامة محمد الأمين الشنقيطى، ج ٤، ص ٦٦٩.

(٢) سورة يس، الآيات ٧١ - ٧٣.

وفى مرحلة شبابه المتأخر تسامعت به السيدة خديجة بنت خويلد فعرضت عليه أن يخرج لها فى تجارة إلى الشام، لما بلغها عنه من صدق الحديث وعظم الأمانة وكرم الأخلاق.

فبارك الله فى هذا المال وربحت التجارة ربحاً كبيراً..

ومن هنا حرصت السيدة خديجة - وهى ذات الشرف والنسب - على أن تقترب بهذا الرجل الأمين، ليحفظ لها أموالها ويصون ثروتها وتسكن إليه فى وحدتها، فهى الثيب الأرملة بعد زوجها أبى هالة بن زرارة، وعتيق بن عائذ..

وتحكى الروايات أن سيدنا محمداً أصدقها عشرين بكرة..

وعاش معها صلى الله عليه وسلم خمساً وعشرين سنة وفياً أميناً، ورزقه الله منها البنين والبنات، ولم يتزوج عليها امرأة أخرى رغم فارق السن بينهما وظلت حبه الأول والكبير حياته كلها..

تقول السيدة عائشة - كما فى الصحيح :-

(ما غرت على امرأة ما غرت على خديجة، وما رأيتها قط، ولكن كان النبى ﷺ يكثر ذكرها، وربما ذبح الشاة ثم يبعثها فى صدائق خديجة).

وعندما يكثر الرسول من ذكر خديجة تقول له عائشة: ما تذكر من عجوز من عجائز قريش حمراء الشدين^(١)! فأبدلك الله خيراً منها..؟

فيقول الرسول الأمين ﷺ :

والله ما أبدلنى الله خيراً منها.. آمنت بى إذ كفر الناس.. وصدقتنى إذ كذبنى الناس.. وواستنى بمالها إذ حرمنى الناس.. ورزقتنى منها الله الولد دون غيرها من النساء).

إن الدرس الذى يجب أن نعيه تماماً من هذا الجانب فى حياته ﷺ أن زخرف الدنيا ومتاعها لم يكن هدفاً لسيدنا محمد يحرص عليه، ولا غاية يسعى إليها.

وعاش ﷺ قبل البعثة وبعدها عزيز النفس كريماً، يتسامى على كل المتع المادية، ويتعالى فوق كل إغراء..

(١) سقطت أسنانها.

وعندما عرض المشركون عرضاً سخياً على رسول الله وقالوا:

إن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت إنما تطلب به الشرف فينا فنحن نسودك علينا، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذى يأتىك رثياً تراه قد غلب عليك - وكانوا يسمون التابع من الجن رثياً - فربما كان ذلك، بذلنا لك أموالنا فى طلب الطب لك حتى نبرئك منه أو نعذر فيك.

فقال عليه الصلاة والسلام: (ما بى ما تقولون، ما جئت بما جئتم به أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم.. ولكن الله بعثنى إليكم رسولا، وأنزل على كتاباً، وأمرنى أن أكون لكم بشيراً ونذيراً.. فبلغت رسالات ربي ونصحت لكم.. فإن تقبلوا منى ما جئتم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة، وإن تردوه على أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم).

لقد عاش سيدنا محمد ﷺ المثل الأعلى فى السمو على متاع الحياة فى خاصة نفسه وأهل بيته، وهما هى ذى السيدة عائشة تحدثنا عن طعام بيت النبوة فتقول - كما فى صحيح البخارى -:

(إن كنا لننظر إلى الهلال ثم الهلال ثم الهلال، ثلاثة أهلة فى شهرين، وما أوقدت فى أبيات رسول الله ﷺ نار..!!)

فسألها ابن أختها عروة بن الزبير: يا خالة ما كان يعيشكم؟!.

قالت: الأسودان: التمر والماء..).

وعندما سُئِلَت السيدة عائشة: ما كان فراش رسول الله فى بيتك؟!.

قالت - كما رواه الترمذى -: من آدم (١) حشوه ليف..

وسُئِلَت حفصة بنت عمر نفس السؤال فقالت: (مسحاً) (٢) نشيه ثنيتين فىنام عليه؛ فلما كان ذات ليلة قلت: لو ثنيته بأربع كان أوطأ له، فثنيناه بأربع ثنيات.

(١) الأدم - بالفتح - باطن الجلد الذى يلى اللحم.

(٢) كساء غليظ.

فلما أصبح قال: ما فرستم لى الليلة؟! قالت: هو فراشك، إلا أنا ثنياء بأربع ثنيات، قلنا هو أوطأ لك.

فقال عليه الصلاة والسلام: ردوه لحالته الأولى فإنه منعتنى وطأته صلاتى الليلة).

وكيف كانت بيوت أزواج النبی؟.

هل كانت ناطحات سحاب، أو قصوراً ضخمة ذات أفنية، أو بيوتاً من زخرف فيها الأرائك والمعارض؟!.

لقد أخرج ابن سعد أن عطاء الخرساني قال فى الروضة الشريفة: أدركت حُجَرَ أزواج رسول الله ﷺ من جريد النخل، على أبوابها المسوح من شعر أسود.

فحضرت كتاب الوليد بن عبد الملك يقرأ، يأمر بإدخال حجر أزواج النبی فى مسجد رسول الله، فما رأيت أكثر باكياً من ذلك اليوم..

قال عطاء: فسمعت سعيد بن المسيب يقول يومئذ: والله لو ددت أنهم تركوها على حالها، ينشأ ناشئ أهل المدينة، ويقدم القادم من الأفق فىرى ما اكتفى به رسول الله فى حياته، فيكون ذلك مما يزهّد الناس فى التكاثر والتفاخر فى الدنيا.

وقال يومئذ أبو أمّامة: ليتها تركت فلم تهدم حتى يقصّر الناس عن البناء، ويروا ما رضى الله لنبيه ومفاتيح خزائن الدنيا بيده...!!

ويوم أحسن نساء النبی صلى الله عليه وسلم أن الدنيا قد فتحت على المسلمين وأن الغنائم تكاثرت فى أيديهم - سألن رسول الله مزيداً من النفقة ومزيداً من متع الحياة، وألححن فى السؤال حتى شقّ ذلك على النبی فاعتزلهن شهراً من شدة غضبه عليهن، وشاع بين المسلمين أن الرسول طلق نساءه..

هنا نزلت آية التخيير لأمهات المؤمنين: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً * وَإِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْراً عَظِيماً» (١).

وكلهن اخترن الله ورسوله..

(١) سورة الأحزاب ، الآيتان ٢٨ و ٢٩.

هذا الشبات على الحق.. وهذا المنهج الذى لم يتغير فى الزهد والإقبال على
الآخرة.. وهذا العزوف الكامل عن متع الحياة الرخيصة.. ألا يؤكد الحقيقة الكبرى،
أنه يبلغ رسالة ربه ويتغنى وجه الله والدار الآخرة..؟!

وحين عاند المشركون واستهزءوا وقالوا: ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى
فى الأسواق؟!.

وأرادوه ملكاً رسولاً أو ملكاً مترفاً، لم يعبأ القرآن بهذا الموقف وصحَّ لهم
مفاهيم النبوة فقال:

«انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا * تَبَارَكَ الَّذِي
إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ
قُصُورًا * بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا» (١).

* * *

(١) سورة الفرقان ، الآيات ٩ - ١١ .

الصادق الأمين

قال ابن إسحاق :

(فشب رسول الله ﷺ يكلؤه الله ويحفظه ويحوطه من أقدار الجاهلية لما يريد به من كرامته ورسالته، حتى بلغ أن كان رجلاً.. أفضل قومه مروءة، وأحسنهم خلقاً، وأكرمهم حسباً، وأحسنهم جواراً وأعظمهم حلماً، وأصدقهم حديثاً، وأعظمهم أمانة، وأبعدهم من الفحش والأخلاق التي تدنس الرجال تنزهاً وتكرماً، حتى ما اسمه في قومه إلا الأمين، لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة...) (١).

وشواهد ذلك من حياة المصطفى كثيرة..

فقد جاء في صحيح الحديث أنه ﷺ حين جدّدت قريش بناء الكعبة المشرفة (كان ينقل الحجارة مع قومه.. وكانوا يحملون أزرهم) (٢) على عواتقهم لتقيمهم الحجارة، وكان رسول الله يحملها على عاتقه وإزاره مشدود عليه.. فقال له العباس: يا ابن أخي لو جعلت إزارك على عاتقك؟! ففعل، فسقط مغشياً عليه، ثم قال: إزارى، إزارى. فشده عليه إزاره وقام يحمل الحجارة).

وفى ذلك حرص على ستر العورة وطهارة العرض..

وعندما بلغ بنيان الكعبة موضع الحجر الأسود اختصمت قبائل قريش فيمن يحوز شرف وضعه في مكانه، وكادوا يقتتلون لولا أن الوليد بن المغيرة قال: يا معشر قريش، اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضى بينكم. وشاء الله أن يكون محمد بن عبد الله أول داخل عليهم، فلما رأوه قالوا: هذا الأمين.. رضيئنا، هذا محمد..

فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر، قال ﷺ: (هلم إلى ثوبنا...).

فأتى به، فأخذ الحجر فوضعه فيه بيده ثم قال: لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ثم ارفعوا جميعاً.. ففعلوا حتى إذا بلغوا به مكانه وضعه هو بيده الشريفة.. وهكذا حلت كلمة الوفاق محل الشقاق ببركة سيدنا محمد وحكمة عقله..

(١) الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام - للإمام السهيلي، ج ١، ص ٢٠٧.

(٢) جمع إزار وهو ثوب يحيط بالنصف الأسفل من البدن.

ومع أن محمد بن عبد الله ﷺ عاش في مجتمع فيه النقائص والتناقضات العقديّة والأخلاقيّة، إلا أن عصمة الله له ظاهرة جليّة، فلم يشارك في لهو، ولم يسجد لصنم..

واخترع الوهم الجاهلي في دين الله، وابتدع الخمس^(١) أشياء ما أنزل الله بها من سلطان، فتركوا الوقوف بعرفة والإفاضة منها، زاعمين أنهم أهل الحرم فلا يخرجون منه، وحرّموا على الناس المأكّل والمشارب التي تأتي من خارج الحرم، وصنعوا ثياباً خاصّة لمن يطوف بالبيت، فمن لم يجدها طاف عرياناً..

ولكن سيدنا محمداً وفقه الله وألهمه، فيقول جبير بن مطعم: (ولقد رأيت رسول الله ﷺ قبل أن ينزل عليه الوحي، وإنه لواقف على بعير له بعرفات مع الناس من بين قومه حتى يدفع معهم منها توفيقاً من الله له)^(٢).

وشأن الحياة أن لا تتمحض للشر أو للخير، فقد وجد في المجتمع الجاهلي بقايا قيم وخير ومعروف..

ويحكى أن رجلاً قدم مكة ببضاعة، فاشتراها منه العاص بن وائل، فحبس عنه حقه، وحاول الرجل أن يستخلصه، فأعيتته الحيل، فرقى جبل أبي قبيس عند طلوع الشمس، وقرّش في أنديتهم حول الكعبة ونادى بأعلى صوته:

يا آل فهر، لمظلوم بضاعته	بيطن مكة، نائي الدار والنفر
ومُحرم أشعث لم يقض عمرته	يا للرجال، وبين الحجر والحجر ^(٣)
إن الحرام ^(٤) لمن تمت مكارمه	ولا حرام لثوب الفاجر الغدر

فقام إليه الزبير بن عبد المطلب، وعبد الله بن جدعان، واجتمعوا - بنو هاشم وبنو المطلب، وأسد بن عبد العزى، وزهرة بن كلاب، وتيم بن مرة - في دار عبد الله، وتحالفوا في ذى القعدة قبيل البعثة بعشرين سنة، وتعاهدوا بالله ليكونن يداً واحدة مع المظلوم حتى يؤدى إليه حقه.

(١) جماعة من المتشددين، والتحمس التشدد، والمفرد أحمرس بفتح الميم

(٢) الروض الأنف، ج ١، ص ٢٢٣.

(٣) الحجر بكسر فسكون - جزء من الكعبة لم تستطع قرّش إكمال بنائه، والحجر بفتح الأول والثاني هو الحجر الأسود

(٤) الحرام بمعنى الاحترام.

ثم مشوا إلى العاص بن وائل فانتزعوا منه سلعة الرجل ودفعوها إليه، ولقد شهد هذا الحلف سيدنا محمد ﷺ وقال عنه بعد البعثة: لقد شهدت في دار عبد الله ابن جدعان حلفاً ما أحب أن لى به حمر النعم، ولو أدعى به في الإسلام لأجبت).

فنصرة المظلوم قيمة إنسانية كبرى..

والإسلام يؤازر الحق وأهله ويوجب نداء المستغيث..

فالحق عرض الله والعدل شريعته..

وقد اختار سيدنا محمد الخلوة بغار حراء اعتزالاً لباطل قومه، وفكراً وتأملاً في ملكوت السموات والأرض، ونظراً إلى الكعبة المشرفة من قمة جبل النور..

وهو في خلوته هذه لم ينس واجب المواساة للضعفاء وذوى الحاجات، فكان يطعم من جاءه من المساكين، وكلما فرغ زاده عاد إلى بيته ليتزود، وجاء في صحيح البخارى بسنده عن عائشة قالت:

(أول ما بدىء به ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبَّ إليه الخلاء، فكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه - وهو التعبّد - الليالى ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو في غار حراء...).

ويروى ابن إسحق: (أن رسول الله ﷺ كان يجاور ذلك الشهر من كل سنة، يطعم من جاءه من المساكين، فإذا قضى رسول الله جواره من شهره ذلك كان أول ما يبدأ به إذا انصرف من جواره^(١) الكعبة قبل أن يدخل بيته، فيطوف بها سبعاً أو ما شاء الله من ذلك ثم يرجع إلى بيته...).

وهنا مجموعة ملاحظات:

أولاً: هذا الشهر الذى اختاره الرسول الكريم للتعبّد هو شهر رمضان كله أو معظمه، لأن الوحي تنزل في شهر رمضان والرسول كعادته في خلوته..

(١) الجوار - بالكسر - فى معنى المجاورة وهى الاعتكاف، إلا أن الاعتكاف مختص بالمسجد، والجوار قد يكون خارج المسجد، ولذا لا يسمى جواره صلى الله عليه وسلم اعتكافاً لأن حراء ليس بمسجد ولكنه من جبال الحرم.

قال تعالى: «شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ»^(١).

وتكون الليالي ذوات العدد التي ذكرت في حديث السيدة عائشة تعنى فترة بقاء الزاد فقط، أى أنه يحمل زاده لعدة ليال، فإذا نفذ عاد فتزود لمثلها، إذ لم يتوافر لديهم وسائل لحفظ الطعام مدة طويلة، أو ربما نفذ الزاد لإطعامه المساكين..

ثانياً: ما الذى دفع المساكين أن يذهبوا إلى غار حراء؟!

وهل اختيار غار حراء للخلوة مختص برسول الله؟!

بالتأمل قليلاً نجد أن ذهاب المساكين إلى الغار ينم على أن ذلك المكان مقصود للحنفاء وأصحاب التأملات، ولمن يريد أن ينقطع عن المألوف من مظاهر مجتمعه..

قال الإمام الحلبي:

(وعن عبيد بن عمير رضى الله عنه: كان رسول الله ﷺ يجاوز في حراء، فى كل سنة شهراً، وكان ذلك مما تتحنث فيه قريش فى الجاهلية). أى المتألهين منهم، وكان أول من تحنث فيه من قريش جده ﷺ عبد المطلب، فقد قال ابن الأثير: أول من تحنث بحراء عبد المطلب، كان إذا دخل شهر رمضان صعد حراء وأطعم المساكين، ثم تبعه على ذلك من كان يتأله - أى يتعبد - كورقة بن نوفل، وأبى أمية بن المغيرة^(٢).

ثالثاً: إن غار حراء هو كهف فى قمة جبل، بينه وبين مكة ثلاثة أميال، عن يسار الذهاب إلى منى.

والكهف من حيث الموقع الجغرافى والتكوين الجيولوجى مكان ملائم لإثارة خيال الإنسان وقوى التأمل فيه، وعلى مدى العصور كان الكهف ملجأ للإنسان من غوائل الطبيعة، كما كان رمزاً للرفض الفردى لأوضاع اجتماعية ونظم سياسية.

(١) سورة البقرة، الآية ١٨٥.

(٢) إنسان العيون فى سيرة الأمين المأمون - الشهير بالسيرة الحلبية - تأليف على بن برهان الدين الحلبي، ج ١، ص ٣٨٢.

ويحدثنا التاريخ عن قصة أصحاب الكهف التى حكاها القرآن، وهم فتية آمنوا بربهم وآثروا الفرار بدينهم من بطش قومهم وجبروت حكامهم فأووا إلى الكهف ولبثوا فيه ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً.

رابعاً: تساءل بعض الباحثين:

على أى دين تعبد سيدنا محمد قبل البعثة؟

وذهبوا مذاهب شتى، فقليل: على شرع نوح، وقيل: على ملة إبراهيم، وقيل: على دين موسى أو عيسى عليهم السلام..

ونحن نرى أن هذه الاتجاهات لا دليل عليها، فلم يثبت أن سيدنا محمداً بحث عن الشرائع أو قرأ فى الكتب أو تعلم من راهب..
قال تعالى: «مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ»^(١).

ولم يذكر التاريخ أن سيدنا محمداً شارك الحنفاء الذين التمسوا لأنفسهم أديان أهل الكتاب، وتفرقوا فى البلاد يبحثون عن دين صحيح..

والأوفق أنه ﷺ تعبد قبل النبوة بالتأمل والفكر، والانقطاع والخلوة، والصلة والبر.. كل ذلك بإلهام الله وتوفيقه.

وهذا هو ما تؤكد الروايات الصحيحة عن السيدة عائشة فى حديث بدء الوحي.

واشتهر ﷺ بأنه الصادق الأمين، وتفرد بهذه الشهرة؛ ولقد كان الصدق والأمانة هما العلم المرفوع من أعلام النبوة منذ يومها الأول، فعن ابن عباس رضى الله عنهما - كما فى الصحيح - قال: لما نزلت هذه الآية: «وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ»^(٢) خرج رسول الله ﷺ حتى صعد الصفا فهتف: يا صباحاه..!!

فقالوا: من هذا الذى يهتف؟ قالوا: محمد

فاجتمعوا إليه، فقال: يا بنى فلان، يا بنى فلان، يا بنى عبد المطلب.

فاجتمعوا إليه.. فقال: أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً تخرج بسفح هذا الجبل أكنتم مصدقي؟!.

(١) سورة الشورى، الآية ٥٢.

(٢) سورة الشعراء، الآية ٢١٤.

قالوا: ما جربنا عليك كذباً..

قال: فإننى نذير لكم بين يدي عذاب شديد.

فقال أبو لهب: تباً لك، أما جمعتنا إلا لهذا..؟

ثم قام فنزلت هذه السورة: «تبت يدا أباى لهب وتب...».

انظر معى إلى براعة الاستهلال، ولباقة العرض، وبلاغة الحوار، وتأمل معى كيف استنطقهم بصدقه وألزمهم بتصديقه...!!

فإن المنطق السليم يقول: لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله...!!
إن شخصية سيدنا محمد، وعظم أخلاقه، ونبل سلوكه، وكرم معاشرته، كانت أهم العوامل الرئيسية فى نجاح دعوته.

وإن الذين أسلموا فى أوائل العهد المكى لم يكن يجذبهم لهذا الدين الجديد إلا يقينهم الكامل بصدق صاحب الدعوة.

فأول الناس إيماناً على الإطلاق خديجة بنت خويلد، حاضنة الإسلام، فعندما فجأه الحق فى غار حراء، ورجع إلى زوجه يقص عليها ما حدث، قالت فى ثقة كاملة:
(أبشر، فوالله لا يخزيك الله أبداً.. والله إنك لتصل الرحم.. وتصدق الحديث.. وتحمل الكل.. وتكسب المعدوم.. وتقري الضيف.. وتعين على نوائب الحق..).

ثم كان أول من أسلم من الرجال الأحرار أبو بكر الصديق، صاحب الرسول قبل البعثة، ودخل معه وخرج، وعرف سريره وعلايته، فلم يتردد لحظة يوم دعاه إلى الإسلام..

وقال عنه ﷺ: (ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت عنده كبرة وتردد ونظر، إلا أبا بكر، ما عكم^(١) عنه حين ذكرته، ولا تردد فيه).. رواه ابن إسحق.

ولم يكتف أبو بكر بإسلامه، بل أخذ يدعو إلى الله، فأسلم على يديه كثير من السابقين إلى الإسلام..

(١) عكم: تلبث.

إن الصدق هو المعجزة الأولى التى دفعت الناس إلى الإيمان بالرسالة لسيدنا محمد ﷺ، فالقرآن - وهو المعجزة الكبرى - كان فى بداية الشروق، ومازال يتنزل لنجوماً، والقدر المنزل يومئذ كان آيات متفرقات من سور العلق والقدر والمدثر والمزمل.. ولم يتلفت الناس إليها بعد، وخوارق العادات التى امتن الله بها على رسوله لم تظهر وقتها..

وظل الصدق فى سويداء قلب المجتمع المكيّ لا يتزلزل اليقين به لسيدنا محمد حتى مع كفرهم بالرسالة.. وتدور الأيام ويخرج الرسول مهاجراً إلى المدينة ويستخلف علياً فى فراشه ليوارى عنه أعين المشركين المؤتمرين به، وليرد عنه الودائع التى ائتمن أهل مكة الرسول عليها، فلم يكن بمكة أحد عنده شىء يخشى عليه إلا استودعه عند الصادق الأمين..

ومع أن المسلمين خرجوا من مكة، وتركوا ديارهم وأموالهم بغير حق إلا أن يقولوا: ربنا الله، فقد حرص الصادق الأمين على رد الودائع إلى أصحابها المشركين. أليس هذا هو الخلق العظيم؟!.

* * *

الأُمِّي

العرب أمة أُمِّيَّة لم تعتمد على الكتاب كثيرًا، ومنحها الله موهبة عقلية وذهنية تمثلت في ملكة الحفظ، فتناقلوا أشعارهم وأيامهم، وأجادوا في ضبط أنسابهم وذرياتهم.

وغلب عليهم هذا الوصف، فعرفوا به بين الأمم. قال تعالى عن اليهود وعليهم لسانهم: «ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائمًا ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون» (١).

واستعمل القرآن هذا اللفظ في وصف العرب فقال: «هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين» (٢).

ويشاء الله أن ينشأ سيدنا محمد من هذه الأمة ويشاكل عامتها في عدم القراءة والكتابة، فلم يجلس إلى معلم ولم يقرأ في كتاب..

وذات يوم حدث الرسول أصحابه عن الشهر القمري، وبين لهم أنه لا يزيد عن ثلاثين ليلة ولا ينقص عن تسع وعشرين، فقال لهم - كما في الصحيح عن ابن عمر -: (إنا أمة أُمِّيَّة لا نكتب ولا نحسب، الشهر هكذا وهكذا، وعقد الإبهام في الثالثة، والشهر هكذا وهكذا، يعني تمام الثلاثين).

والمراد بهكذا الإشارة بأصابع يديه العشرة.

وقد سجل القرآن العظيم أن هذا الوصف لسيدنا محمد مدوّن في الكتب السابقة، فقال: «الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل» (٣).

ولفت القرآن المجيد أنظار العرب إلى واقعية الحياة التي عاشها سيدنا محمد قبل الرسالة، فلم تكن تنبئ بعمق دراسة ولا حرص على تغيير.. ومكث ﷺ أربعين

(١) سورة آل عمران ، الآية ٧٥.

(٢) سورة الجمعة ، الآية ٢.

(٣) سورة الأعراف ، الآية ١٥٧.

سنة قبل الوحي إليه، هادئاً ساكناً، وديعاً لا يندُّ عن مألوف قومه، اللهم إلا في
اشتهاره بالصدق والأمانة..

قال تعالى: «قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ
عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ» (١).

ولحكمة ما عندما فجأ الوحي سيدنا محمداً كان الأمر الإلهي الأول: اقرأ،
وكان الجواب التلقائي السريع: ما أنا بقارئ!!..

إن الحكمة الإلهية الكبرى تكمن في أن هذا الوصف ملاحظ في صدق الرسالة
وحقيقة الوحي إلى سيدنا محمد ﷺ.

وقد أشار القرآن الكريم إلى أهمية هذه الملاحظة في تأكيد الإعجاز القرآني
الدال على تصديق الله لعبده محمد في دعوى الرسالة، فقال: «وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ
قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَأَرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ * بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي
صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ» (٢).

إن معجزات الأنبياء السابقين معجزات حسية ترتبط بشخص رسولها وقت
ظهورها، ولا تعلم إلا لمن شاهدها أو نقلت إليه تواتراً..

أما معجزة القرآن العظيم فهي معجزة عقلية ذاتية تحمل الدليل معها على أنها
من عند الله، لا ترتبط بزمن، ولا تختص بحياة الرسول..

وكل من أدرك أن سيدنا محمداً أُمِّيٌّ، وأن القرآن سجد له البلغاء والفصحاء،
وتلمذ عليه العلماء والفلاسفة، وأصلح شئون الحياة بكاملها، وبنى حضارة إنسانية،
يتزايد عمق إيمانه ويقينه بأن محمداً رسول الله.

قال تعالى: «وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ
وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» (٣).

ونقل الإمام الرازي عن أهل التحقيق أن كونه ﷺ أمياً بهذا المعنى من جملة
معجزاته، وبيانه من وجوه:

(١) سورة يونس، الآية ١٦.

(٢) سورة العنكبوت، الآيتان ٤٨ و ٤٩.

(٣) سورة الشورى، الآية ٥٢.

الأول: أنه عليه الصلاة والسلام كان يقرأ عليهم كتاب الله تعالى منظوماً مرة بعد أخرى من غير تبديل ألفاظه ولا تغيير كلماته، والخطيب من العرب إذا ارتحل خطبة ثم أعادها فإنه لا بد وأن يزيد فيها أو ينقص عنها بالقليل والكثير، ثم إنه عليه الصلاة والسلام مع أنه ما كان يكتب ولا يقرأ؛ يتلو كتاب الله تعالى من غير زيادة ولا نقصان ولا تغيير، فكان ذلك من المعجزات، وإليه الإشارة بقوله تعالى: «سَنَقْرُوكَ قَلِيلًا نَسِيًّا»^(١).

الثاني: أنه لو كان يحسن الخط والقراءة لصار متهماً في أنه ربما طالع كتب الأولين، فحصل هذه العلوم من تلك المطالعة، فلما أتى بهذا القرآن العظيم، والمشتغل على العلوم الكثيرة من غير تعلم ولا مطالعة كان ذلك من المعجزات. وهذا هو المراد من قوله تعالى: «وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَأَرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ»^(٢).

الثالث: إن تعلم الخط شيء سهل، فإن أقل الناس ذكاء وفطنة يتعلمون الخط بأدنى سعى، فعدم تعلمه يدل على نقصان عظيم في الفهم. ثم إنه تعالى آتاه علوم الأولين والآخرين، وأعطاه من العلوم والحقائق ما لم يصل إليه أحد من البشر.

ومع تلك القوة العظيمة في العقل والفهم جعله بحيث لم يتعلم الخط الذي يسهل تعلمه على أقل الخلائق عقلاً وفهماً.

فكان الجمع بين هاتين الحالتين المتضادتين جارياً مجرى الجمع بين الضدين، وذلك من الأمور الخارقة للعادة، وجارٍ مجرى المعجزات^(٣).

هذا ولم يثبت أن سيدنا محمداً ﷺ خرج من مكة وغاب عنها غيبة طويلة تمكنه من التعلم، وكل ما ورد في كتب السيرة أنه ﷺ خرج مرتين إلى الشام:

(١) سورة الأعلى، الآية ٦.

(٢) سورة العنكبوت، الآية ٤٨.

(٣) التفسير الكبير للإمام الرازي، ج ١٥، ص ٢٥، طبعة دار الفكر - بيروت سنة ١٤٠١ هجرية.

الأولى: مع عمه أبى طالب، وكانت سنّه حينئذ تقارب الثانية عشرة، وتفيد الروايات أنه التقى براهب يسمى (بحيرا)، وأن الراهب أخذ يستفسر منه عن أحواله فى نومه وهيبته، وتساءل مع عمه عن نشأته وأبيه، وتفحص شئونه، فأدرك أن لهذا الغلام شأنًا، وأفضى بذلك إلى عمه أبى طالب، ونصحه بالعودة به إلى مكة.

الثانية: مع ميسرة غلام السيدة خديجة بنت خويلد فى تجارة لها، وسنه يؤمئذ خمس وعشرون، ونزل سيدنا محمد للراحة فى ظل شجرة قريباً من صومعة راهب يقال له: (نسطورا)، وتبين هذا الراهب - بفراسته - شيئاً من تكريم الله لهذا الشاب فأفصح عنه لميسرة قائلاً: ما نزل تحت هذه الشجرة إلا نبي...!!

يريد تأكيد أن هذا الشاب الذى يجلس الآن تحت هذه الشجرة سيكون النبي المنتظر لدى أهل الكتاب..

ويعود سيدنا محمد إلى مكة، ويخوض معمعة الحياة، ويتزوج السيدة خديجة، وتشغله شئون الأسرة، ويتحمل أعباء تكاليفها.. ثم يفجؤه الوحي بعد ثلاثين سنة تقريباً من اللقاء بالراهب الأول وخمسة عشر عاماً من اللقاء بالراهب الثانى..

إن كل شواهد الحياة المحمدية تدل دلالة قاطعة على أنه ﷺ ما توقع رسالة ووحياً، ولا أعد نفسه لزعامة وسلطة، ولا عرف عنه انفعال وثورة.

وكل الإرهاصات التى أحاطت بمولده الشريف أو بنشأته الطاهرة لم تأخذ مجراها التأثيرى البين على واقع حياته المباركة، وإنما كانت طوالع عامة لم يعرها سيدنا محمد الاهتمام البالغ الذى يجعله يسترى السمع أو ينتظر المستقبل أو يعيش على أحلام اليقظة..

ويشاء الله أن عمه أبا طالب الذى صاحبه فى رحلة الشام الأولى لم يُسلم يوم دعا رسول الله إلى الدين الجديد، فلو أن المسألة معدة أو فيها شيء من الترتيب البشرى أو دخلها التصنع لكان أبو طالب أول المؤمنين، ولكن حكمة الله اقتضت أن يكون أبو طالب أول المدافعين عن الرسالة رغم شركه الذى أصر عليه.

* * *

كلمة تنبيه

إن اليتيم والفقر والأمية لا شك أنها - فى مجموعها - قاذحة فى شخصية الإنسان على وجه العموم..

لكنها فى نطاق الإعداد للنبوة والاصطفاء للرسالة تضعنا فى نطاق القدرة الإلهية والعناية الربانية..

ولا يحق لمسلم أن يقيم على فقر أو أمية مدعياً أن الرسول كان كذلك.

لقد سبقت كلمة الله جل جلاله أن أجل الإنسان إذا حان لا يؤجله طب ولا تردُّه قوة، واقتضت حكمته سبحانه أن يتكافل الناس ويتعاونوا وبذلك جرى الطبع السليم وأوجب الدين الحنيف، فكان الإحسان إلى الضعيف وكفالة اليتيم ورعاية المريض فى شرع الله ديناً، وبين الناس خلقاً كريماً..

واليتيم فى اللغة هو الانفراد، ومنه الدرة اليتيمة أى الفريدة التى لا مثيل لها..

واليتامى هم الذين مات آباؤهم فانفردوا عنهم..

وقيل: اليتيم من الناس من فقد أباه، ومن البهائم ما فقد أمه.

وحق هذا الاسم أن يقع على الصغار والكبار، إلا أن العرف خصّه بمن لم يبلغ مبلغ الرجال، فهو الذى يحتاج إلى كفالة من يقوم بأموره من نفقة وتأديب حتى يرشد ويستطيع أن يواجه الحياة بأعبائها، ولهذا ورد فى الأثر: (لا يتم بعد البلوغ)..

وقد جعل رسول الله ﷺ القائم على رعاية اليتيم قريباً له فى الجنة، فقال - كما فى الصحيح -: (أنا وكافل اليتيم كهاتين فى الجنة) وأشار بإصبعيه السبابة والوسطى.

كما بين المصطفى صلوات الله وسلامه عليه عظم ثواب كفالة المحتاجين والسعى فى مصالحهم فقال: (الساعى على الأرملة والمسكين كالمجاهد فى سبيل الله).

قال أبو هريرة: وأحسبه قال: (وكالقائم لا يفتر، وكالصائم لا يفطر).

فانظر كيف جعل قضاء حوائج هؤلاء يعدل قمماً ثلاثاً من العمل الدينى السامى، وهى الجهاد فى سبيل الله، وصلاة الليل بغير انقطاع، وصيام الدهر بغير إفطار..

وهذا تأكيد نبوى كريم لأهمية أن يتكافل الناس، وأن يأخذ القوى بيد الضعيف، وأن يكونوا عباد الله إخواناً..

هذا وإن التماس الرزق والسعي له أمر واجب شرعاً، قال تعالى: «هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ» (١).

وقد علم الرسول ﷺ أصحابه أن أطيب الكسب عمل الرجل بيده، فقال - كما فى الصحيح -: (ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإن نبى الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده).

وفى الصحيح أيضاً: (لأن يغدو أحدكم فيحطب على ظهره فيتصدق به ويستغنى به عن الناس خير له من أن يسأل رجلاً أعطاه أو منعه، فإن اليد العليا أفضل من اليد السفلى).

ونستطيع أن نقول مطمئنين: إن الفقر الذى ينشأ عن التكاسل وترك السعى مع القدرة عليه هو فقر معصية يحاسب عليه الإنسان أمام ربه، وإن الفقر الذى ينجم عن التبذير والإسراف هو أيضاً فقر معصية يسأل عنه المرء يوم القيامة..

قال تعالى: «وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا» (٢).

وقد شدد الإسلام النهى عن المسألة والتسول، فقال النبى ﷺ - كما فى الصحيح -: (من سأل الناس أموالهم تكثراً فإنما يسأل جمراً، فليستقل أو ليستكثر) أى أن مال التسول شؤم على صاحبه يتحول إلى جمر يكوى به يوم القيامة.

وفى حديث آخر صحيح: (لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله وليس فى وجهه مزعة لحم) أى قطعة لحم، ومعناه أنه يأتى يوم القيامة ذليلاً لا كرامة له عند الله.

ولنتذكر هذا التنبيه الرائع من سيدنا رسول الله فى قوله: (ليس المسكين بهذا الطوائف الذى يطوف على الناس فترده اللقمة واللقمتان، والتمرة والتمرتان قالوا: فما المسكين يا رسول الله؟ قال: (الذى لا يجد غنى يغنيه ولا يفطن له فيتصدق عليه ولا يسأل الناس شيئاً).

(١) سورة الملك ، الآية ١٥ .

(٢) سورة الإسراء ، الآية ٢٩ .

وليكن معلوماً أن التسوّل ليس وقفاً على من يمد يديه فى الطرقات، بل أشد أنواعه التسوّل أمام الرؤساء وذوى السلطان، فإن الله قد نزع البركة منه، وليس الغنى عن كثرة العرّض، وإنما الغنى غنى النفس..

وذات يوم وقف الرسول ﷺ وقال لأصحابه: (إنما أنا خازن، فمن أعطيته عن طيب نفس فيبارك له فيه، ومن أعطيته عن مسألة وشره كان كالذى يأكل ولا يشبع). وقد تأدّب الصحابة رضى الله عنهم بهذا الأدب النبوى الشريف، فكان عمر ابن الخطاب يعطى العطاء فيقول: أعطه يا رسول الله أفقر إليه منى!!.

وكان يسقط سوط أحدهم فما يسأل أحداً يناوله إياه...!!

وهذا النبى الأمى هو الذى جعل فداء بعض الأسرى من المشركين فى غزوة بدر الكبرى أن يعلم الواحد منهم عشرة من أبناء المسلمين..

وهو الذى أشار على زيد بن ثابت أن يتعلّم لغة أجنبية، وتحدث الروايات عن زيد أنه قال: قال لى رسول الله ﷺ: إنها تأتيني كتب لا أحب أن يقرأها كل أحد، فهل تستطيع أن تتعلم كتاب العبرانية أو قال السريانية؟! فقلت: نعم. فتعلمتها فى سبع عشرة ليلة.

ويكفى أن أول آية فى القرآن المجيد نزولا، أمر بالقراءة، وإشارة إلى آفاق عليا فى علم الأجنّة، وامتنان بالتعليم بالقلم..

«اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ..» (١).

واهتمام المسلمين بالمعرفة، وقيام حضارتهم على الفكر، وقرائح أذهانهم التى ضمنوها ملايين الكتب والمجلدات - أوضح من أن نتكلم فيها أو نعرض لها..

يقول الإمام الحلبى: (لا ينبغي لأحد عير برعاية الغنم أن يقول: كان النبى ﷺ يرفعى الغنم، فإن قال ذلك أدّب، لأن ذلك - كما علمت - كمال فى حق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام دون غيرهم، فلا ينبغي الاحتجاج به.

ويجرى ذلك فى كل ما يكون كمالا فى حق النبى ﷺ دون غيره كالأمية.

(١) سورة العلق الآيات ١ - ٥

فمن قيل له: أنت أمي، فقال: كان النبي ﷺ أمياً أدب. والله أعلم^(١).

ويحق أن نقف خاشعين أمام سورة قرآنية توحى بكل هذه المعاني التي مضى حديثنا عنها؛ حول ملامح الشخصية المحمدية..

تلك السورة هي سورة الضحى..

تبدأ السورة بقسم إلهي:

«والضحى * والليل إذا سجى».

الضحى هو صدر النهار حين ترتفع الشمس وتلقى شعاعها.

سجى: أظلم وسكن وغطى الكون..

فهذا قسم بالحياة في سرائها وضرائها، ونورها وظلمتها..

ثم تأتي بشرى إلهية:

«مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى * وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى * وَلَسَوْفَ يَعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى».

تحدث الروايات أن الوحي فتر، فقالت أم جميل امرأة أبي لهب: يا محمد، ما أرى شيطانك إلا قد تركك!!

فنزلت هذه السورة تصحح المفاهيم، وتعلی من شأن الإنسان المصطفى والرسول المجتبی..

فانقطاع الوحي فترة زمنية ليس عزلاً عن النبوة..

وتصورات هؤلاء الواهمين بعيدة كل البعد عن الحقيقة.

فلمحمد ﷺ في الآخرة المقام المحمود، والحوض المورود، والشفاعة العظمى..

بل إن مستقبله في الحياة الدنيا لهو خير من حاضره في بادئ العهد المكّي.

فهو وعد إلهي بالظفر والنصر حتى يدخل الناس في دين الله أفواجا، ويطلع هذا الدين على ما يطلع عليه الفجر..

(١) إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون - الشهير بالسيرة الحلبية، ج ١، ص ٢٠٧.

ثم تقرر السورة وقائع الحياة النبوية:

«أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ * وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ * وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ».

وقد سبق تفصيل هذه الوقائع، ولكن ننبه إلى معنى كلمة (ضالًّا)، وقد ذكر الإمام الرازي في تفسيرها عشرين وجهاً نختار أرجحها وأقواها:

١ - ما روى عن ابن عباس والحسن والضحاك وغيرهم: «ووجدك ضالًّا» عن معالم النعمة وأحكام الشريعة، غافلاً عنها، فهداك إليها.

٢ - يقال: ضلَّ الماء في اللبن إذا صار مغموراً، فمعنى الآية: كنت مغموراً بين الكفار بمكة فقوأك الله حتى أظهرت دينه.

٣ - العرب تسمى الشجرة الفريدة في الفلاة ضالَّةً، كأنه تعالى يقول: كانت تلك البلاد كالمفازة ليس فيها شجرة تحمل ثمر الإيمان بالله ومعرفته إلا أنت، فأنت شجرة فريدة في مفازة الجهل، فوجدتك ضالًّا فهديت بك الخلق.

ونظيره قوله عليه الصلاة والسلام: (الحكمة ضالة المؤمن).

٤ - كنت ضالًّا عن النبوة، ما كنت تطمع في ذلك، ولا خطر شيء من ذلك في قلبك، فإن اليهود والنصارى كانوا يزعمون أن النبوة في بنى إسرائيل، فهديتك إلى النبوة التي ما كنت تطمع فيها ألبتة^(١).

وكان ختام السورة تعليماً وإرشاداً إلهياً.

«فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ * وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ».

وتلك هي الثمرات الاجتماعية لأدب الدين وخلق الإيمان، وما جعل التحديث بالنعمة إلا لمزيد من الاقتداء والقوة، فشان مجتمع المسلمين التواصى بالحق والتواصى بالصبر.

* * *

(١) التفسير الكبير، ج ٣١، ص ٢١٦.

حديث هرقل

حين استقر الأمر للمسلمين في المدينة المنورة بصلح الحديبية مع قريش في العام السادس للهجرة، اتجه الرسول ﷺ إلى مخاطبة ملوك العالم وأمراء الجزيرة العربية، وبعث رسائل شخصية إلى هرقل عظيم الروم، وإلى كسرى عظيم فارس، وإلى النجاشي في الحبشة، وإلى المقوقس في مصر.. إلخ.

وكان لكل واحد من هؤلاء ردٌّ خاص على الرسالة النبوية، ويعيننا هنا الآن موقف هرقل من رسالة النبي وتأملاته حولها واستنتاجاته منها..

والحديث بتمامه مخرَّج في الصحيحين، وقصّه أبو سفيان بن حرب الذي كان أحد الأطراف..

وجو الحديث هو:

(أن هرقل أرسل إلى أبي سفيان في ركب من قريش، وكانوا تجاراً بالشام، في المدة التي كان رسول الله ﷺ، مادّ فيها أبا سفيان وكفار قريش.

فأتوه وهم بإيلياء، فدعاهم في مجلسه، وحوله عظماء الروم، ثم دعاهم ودعا بترجمانه فقال: أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ فقال أبو سفيان: أنا أقربهم به نسباً.

فقال هرقل: أدنوه مني وقربوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره، ثم قال لترجمانه: قل لهم: إني سائل هذا عن هذا الرجل فإن كذّبنى فكذبوه.. هذا هو الإطار العام للحديث..

وانظر كيف استوثق هرقل قبل أن يبدأ الحديث؟!

وكيف جعلهم شهوداً على أبي سفيان؟!

وكيف استوقفهم خلف ظهره لمعنى نفسى كبير، حتى لا يراهم أبو سفيان أثناء حديثه فيهمز إليهم بشيء، ولكي يلحظ هرقل الأثر النفسى المفاجئ إذا كذب أبو سفيان؟!!

ولهذا قال أبوسفيان: فوالله لولا الحياء من أن يؤثروا على كذباً لكذبت عنه...!!

ثم بدأت تساؤلات هرقل تتوالى هكذا:

١ - كيف نسبه فيكم؟

- هو فينا ذو نسب.

٢ - هل قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟

- لا.

٣ - هل كان من آبائه من ملك؟

- لا.

٤ - فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟

- بل ضعفاؤهم.

٥ - أيزيدون أم ينقصون؟

- بل يزدون.

٦ - هل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟

- لا.

٧ - هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟

- لا.

٨ - هل يغدر؟

- لا، ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها.

ويعلق أبو سفيان قائلاً: ولم تمكنى كلمة أدخل فيها شيئاً غير هذه الكلمة.

٩ - هل قاتلتموه؟

- نعم.

١٠ - كيف كان قتالكم إياه؟

- الحرب بيننا وبينه سجل^(١)، ينال منا وننال منه.

١١ - بماذا يأمركم؟

- يقول: اعبدوا الله وحده ولا تشرکوا به شيئاً، واتركوا ما يقول آبائكم، ويأمرنا بالصلاة والزكاة والصدق والعفاف والصلة.

وأسدل الستار على الأسئلة، وبدأت الاستنتاجات العقلية تترى أمام كل سؤال وجوابه، وأفصح عنها هرقل لجالسيه ومن معهم من تجار قریش هكذا:

١ - وكذلك الرسل تبعث في نسب قومها.

٢ - لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت: رجل يأتسى بقول قيل قبله.

٣ - لو كان من آباءه ملك قلت رجل يطلب ملك أبيه.

٤ - الضعفاء أتباع الرسل.

٥ - وكذلك أمر الإيمان حتى يتم.

٦ - وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب.

٧ - لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله.

٨ - الرسل لا تغدر.

وبتمام إجابة السؤال التاسع والعاشر والحادي عشر أخذت هرقل هزة عقلية وعاطفية جعلته يقول: (إن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدمي هاتين.. وقد كنت أعلم أنه خارج، ولم أكن أظن أنه منكم.. فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه).

إن هذه الاستنتاجات العقلية تمثل منهجاً صحيحاً في الاستدلال، فهي قائمة على استقرار أحواله ﷺ وتتبع أطوار حياته وملامح شخصيته لتتخذ من ذلك كله أعلاماً للنبوة..

(١) السجل بكسر أوله: النوب، وجمع السجل وهو الدلو إذا كان فيه ماء، شبه المحاربين بالمستقين، يستقي هذا دلواً وهذا دلواً.

وقد حدث هرقل نفسه أن يصل بالاستدلال إلى نتیجته، ویلتزم بها إقراراً بصحة الدلیل، واعترافاً بصدق النتيجة، فدعا وجهاء قومه وأهل الرأى فیهم إلى قصره وغلق الأبواب ثم قال لهم: یا معشر الروم هل لكم فى الفلاح والرشد، وأن یثبت ملککم؟ فتابعوا هذا النبى!

ولكن القوم آثروا متاع الحياة الرخیص، واستمروا ما هم فیہ من منصب وجاه، فرفضوا بشدة:

فحاصوا علیه حیصة حمر الوحش إلى الأبواب فوجدوها قد غلقت!!..

ولم یکن هرقل بالرجل الذی یستطیع أن یواجه الناس بما یعتقد، أو لیقنع من حوله بما یرى، فتراجع عن مقالته السابقة، وقال: إنى قلت مقالتى آنفاً أختبر بها شدتکم على دینکم، فقد رأیت.

فسجدوا له ورضوا عنه..

فکان ذلك آخر شأن هرقل.

* * *

البابُ الثاني

دلائل النبوة المحمدية

- العمق التاريخي لشخصية الرسول
- الواقع المعاصر لنشأة الدعوة
- المعجزة الكبرى
- المعجزات الحسية
- الخلق العظيم

الفصل الأول

الحمق التاريخي لشخصية الرسو

- ميثاق النبيين.
- دعوة إبراهيم.
- بشري عيسى.

ميثاق النبيين

لسيدنا رسول الله ﷺ عمق تاريخي، يتجلى في تذكير الله تعالى لأنبيائه وأقوامهم بتلك الرسالة الخاتمة التي يبعث بها النبي العربي والرسول الأُمِّي.. وقد أخذ هذا التذكير أكثر من شكل، وورد في أكثر من كتاب منزل..

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٨١) فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (١).

لقد ورد هذا الميثاق خلال حديث طويل - في سورة آل عمران - عن أهل الكتاب ومناقشتهم في عقائدهم المحرّفة، وجاءت هذه الآيات إلزاماً لهم بضرورة الإيمان بالرسالة المحمدية وفاءً لهذا الميثاق؛ ثم تلاها استفهام إنكارى لموقفهم المعاند الخارج عن كل النواميس الكونية:

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ (٢).

ثم حددت الآيات حقيقة الإيمان الواجب شرعاً على كل مكلف، فقالت: ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (٣).

والملاحظ أن هذه الآية الكريمة بدأت بإثبات الإيمان بالله باعتباره أصلاً للإيمان بالنبوة، ثم قدمت الإيمان بالوحي لسيدنا محمد ﷺ باعتباره المصحح لأوهام

(١) سورة آل عمران ، الآيتان ٨١ و ٨٢.

(٢) سورة آل عمران، الآية ٨٣.

(٣) سورة آل عمران، الآية ٨٤.

أهل الكتاب وتحريفاتهم، ثم ذكرت الإيمان بالوحي لإبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط باعتبارهم منشأ أهل الكتاب من يهود ونصارى، وإليهم يرجع نسبهم ودينهم، ثم خصصت ما أُوتى موسى وعيسى باعتبارهما أصحاب الرسالتين الأخيرتين قبل رسالة محمد ﷺ، فاليهود يقفون عند شريعة موسى، والنصارى يقفون عند دعوة عيسى..

ثم عممت الآية ضرورة الإيمان بجميع الأنبياء السابقين، من نعرف ومن لا نعرف على وجه الإجمال..

وأخيراً أعلنت الآيات فى سورة آل عمران الحقيقة الكبرى المتمثلة فى طريق النجاة الأوحد والوحيد، فقالت: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (١).

هذا ويحتاج ميثاق النبيين إلى توضيح:

هل هو ميثاق أخذه الله من النبيين أو أخذه الله للنبيين؟..!

فعلى الاتجاه الأول يكون المعنى أن الله تعالى أخذ الميثاق من النبيين، كى يصدق بعضهم بعضاً، حتى تصل الرسالة إلى ختامها ببعثة محمد ﷺ، فكل نبي لا ينافس أخاه ولا ينازعه، وإنما هم يكملون الرسالة الإلهية للبشر، كل فى زمانه ومكانه، وهم لبنات بناء عال وصرح مشيد، يشد بعضه بعضاً..

قال عليه الصلاة والسلام - فى الصحيح : (مثلى ومثل الأنبياء قبلى كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه إلا موضع لبنة فيه، فجعل الناس يطوفون به، ويتعجبون ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة، فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين).

وفى حديث آخر: (لقد جئكم بها بيضاء نقية، والله لو كان موسى بن عمران حياً لما وسعه إلا اتباعى).

وعلى الاتجاه الثانى يكون المعنى أن الله تعالى أخذ الميثاق من الأمم بتصديق كل نبي يؤيد بالمعجزة، ويواصل المسيرة المؤمنة فى الهدى والرشاد.

(١) سورة آل عمران ، الآية ٨٥.

وعلى هذا دعا الأنبياء أقوامهم إلى الإيمان بمن يليهم، وضمّنوا الميثاق كتبهم
ووصاياهم لأئمتهم.. حتى تظل المعالم واضحة يتوارثها الأجيال، وينضموا لركب
الإيمان المتجدد..

وعلى كلا الاتجاهين يتحتم على أهل الكتاب الإيمان بالرسالة لمحمد ﷺ،
وفاء بالعهد، والتزاماً بالميثاق، فهو مصدّق لما معهم، ومؤيد بالمعجزة، داعٍ إلى الحق
وصراط مستقيم..

لكن ما معنى تصديق الرسول لما معهم؟
وهل يلزم منه أن الرسول الخاتم لا يأتي بجديد في التشريع؟
إن الرسالات الإلهية جمعاء اتفقت على أصول الدين في التوحيد، وأمّهات
الأخلاق والعبادات..

فما من نبي إلا ودعا قومه إلى التوحيد:
قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا
فَاعْبُدُونِ﴾ (٢٥) وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سَبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴿١﴾.

وما من نبي إلا بين للناس عبادتهم ومعاملتهم:
قال سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ
إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ
وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ (٨٣) وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا
تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ
تَشْهَدُونَ ﴿٢﴾.

وما وراء ذلك من تفاصيل العبادة وكيفية شرائط المعاملات وأنواعها وحدودها،
فذلك مرهون بالزمان والمكان ومقتضيات العصر وأشكال العمران البشري.

(١) سورة الأنبياء ، الآية ٢٥ .

(٢) سورة البقرة ، الآيتان ٨٣ و ٨٤ .

وهذا فى الحقيقة ليس بخلاف، بل هو ضرورة الحياة المستمرة.

وهكذا يكون تصديق الرسول - أى رسول - لمن سبقه من الرسل.

ويضاف إلى هذا الفهم معنى آخر وهو أن وصف سيدنا محمد ﷺ ومعالـم حياته الرئيسية مذكورة فى التوراة والإنجيل، وتطابق الأحوال مع الأوصاف تصديق لما معهم..

وقد فهم البعض من آية ميثاق النبين فهما غريباً، فزعم أن الله تعالى أخذ من النبين ميثاقاً خاصاً فى عالم الذر، يوم أخذ ميثاق بنى آدم حين قال: «ألست بربكم». ورويت أحاديث تفيد أن النبوة لسيدنا محمد ﷺ وجبت له قبل خلق آدم، أو كما يقال: (وآدم مجندل فى الطين) أو (وآدم بين الروح والجسد).

وفى بعض الروايات: (كنت أول النبين فى الخلق وآخرهم فى البعث)؛ ونحن إزاء هذا الفهم نقول:

قضية ميثاق بنى آدم فى عالم الذر أو ميثاق النبين فيه ليس عليها دليل يعتمد، والأحاديث التى ذكروها فى إثبات ميثاق عالم الذر لا تخلو من مقال، وبعض روايتها ضعيف أو متروك أو مجهول..

والآية الكريمة: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ (١) أبعد ما تكون عن هذا الفهم.. وهى ترشد العقول إلى آيات الأنفس والآفاق التى نصبها الله تعالى أمام الإنسان فى كل عصر وجيل شاهدة على وحدانية الله فى الخلق والأمر (٢).

ويجب أن نعى أن عقيدة المؤمن لا تؤخذ من أحاديث غريبة أو موقوفة، وطالما أن الآيات لها من الفهم الصافى والتفسير الصحيح ما يخدم العقيدة بعيداً عن هذه الآثار الضعيفة - فهذا أولى وأجدر بالاعتبار.

(١) سورة الأعراف، الآية ١٧٢.

(٢) راجع كتابنا (الروح فى دراسات المتكلمين والفلاسفة) ص ٧٧، ط دار المعارف بمصر.

وبعض هؤلاء الذين قبلوا الآثار على علاتها لم يفهموها الفهم السطحي المتبادر، بل ذهبوا فيها مذاهب أقرب إلى رفضها.

يقول الإمام ابن كثير:

(وهذا إخبار عن التنويه بذكره في الملائ الأعلى، وأنه معروف بذلك بينهم بأنه خاتم النبيين وآدم لم ينفخ فيه الروح، لأن علم الله تعالى بذلك سابق قبل خلق السموات والأرض لا محالة، فلم يبق إلا هذا الذي ذكرناه من الإعلام به في الملائ الأعلى، والله أعلم)^(١).

فإحالة الأحاديث على علم الله تعالى أو إعلام الملائ الأعلى به قضية لا تنزع فيها، فعلم الله أزلى محيط، ولا يعزب عنه شيء، وإعلام الملائ الأعلى هو إرادة الله ومشيتته لا دخل لنا بها.

* * *

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج٢ ص٣٢١ ط مكتبة المعارف - بيروت.

دعوة إبراهيم

إبراهيم - عليه السلام - هو الجد الأعلى للعرب واليهود.

عاش إبراهيم مع زوج عاقر هي سارة، وشاء الله أن يُرزق بولد من جارية له هي هاجر المصرية.. وجاء في الحديث الشريف عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات^(١)، اثنتين منهن في ذات الله، قوله: «إني سقيم»، وقوله «بل فعله كبيرهم هذا»

وقال: بينا هو ذات يوم وسارة، إذا أتى على جبار من الجبابرة، فقيل له: إن هاهنا رجلاً معه امرأة من أحسن الناس، فأتى سارة فقال لها: إن هذا الجبار إن يعلم أنك امرأتى يغلبنى عليك، فإن سألك فأخبريه أنك أختى، فإنك أختى في الإسلام، ليس على وجه الأرض مؤمن غيرى وغيرك.

فأرسل إليها فأتى بها وقام إبراهيم يصلى..

فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده، فأخذ حتى ركض برجله فقال: ادعى الله لى ولا أضرك!!

فدعت الله فأطلق، ثم تناولها الثانية فأخذ مثلها أو أشد، فقال: ادعى الله لى ولا أضرك!!

فدعت الله فأطلق، فدعا بعض حجبته فقال: إنك لم تأتني بإنسان إنما أتيتني بشيطان!! فأخدمها هاجر، فأتته وهو قائم يصلى، فأوماً بيسده: مهيم^(٢)، قالت: ردّ الله كيد الكافر فى نحره، وأخدم هاجر..

قال أبو هريرة: تلك أمكم يا بنى ماء السماء^(٣).

(١) الكذب هنا من باب المعارض وهي أن يقصد المتكلم معنى ويفهم منه المخاطب معنى آخر، وهي من المباح شرعاً، ولو كان كذباً محضاً فهو جائز أيضاً لدفع الظالمين.

(٢) ما شأنك وما خبرك؟

(٣) العرب كلهم لخلوص نسبهم، وقيل: لأن أكثرهم أصحاب رعي يتعقبون ما ينبت بماء السماء، وقيل: المراد به الأنصار خاصة لنسبتهم إلى جدهم عامر بن حارثة بن امرئ القيس وكان يعرف بماء السماء.

هذا وولد هاجر هو إسماعيل عليه السلام.

واقتضت الحكمة الإلهية أن يحمله إبراهيم مع أمه هاجر ليسكنهما بواد غير ذى زرع، وتركهما هنالك عن أمر الله له.

وظل إبراهيم يطالع أمرهم بين الحين والآخر، وشب إسماعيل محفوظاً برعاية الله وعنايته، فنبعت عين ماء زمزم، وتقاطر الناس على المكان..

ويأتى امتحان جديد لما بلغ إسماعيل السعى، فكانت الرؤيا المنامية يذبح إسماعيل، ولنقرأ: ﴿فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾ (٩٨) وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَّهْدِينِ (٩٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١﴾.

ولنتأمل أن الغلام الحليم هو إسماعيل، وأن إبراهيم رزق به بعد هجرته من قومه الذين ائتمروا به، وهذا هو تفسير الحديث السابق حين قال لسارة: ليس على وجه الأرض مؤمن غيرى وغيرك.

وأن المكافأة التي تلت هذا الابتلاء هي البشرى بإسحق من زوجه سارة.. فقال تعالى: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٢).

وإسحاق هو الغلام العليم كما وصف في قوله تعالى: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ (٣).

نشأ إسماعيل فى أرض الحجاز، وإليه ينسب عربها، ويسمون العرب المستعربة.

ونشأ إسحق فى أرض الشام، ومن ذريته يعقوب المسمى بإسرائيل، وإليه ينسب اليهود.

استقر الأمر بإسماعيل فى أرض الحجاز، وكلفه الله بمشاركة أبيه فى رفع قواعد البيت الحرام ليكون مثابة للناس وأمناً.

(١) سورة الصافات ، الآيات ٩٨ - ١٠٢ .

(٢) سورة الصافات ، الآية ١١٢ .

(٣) سورة الذاريات ، الآية ٢٨ .

وعند بناء هذا البيت توجه إبراهيم وإسماعيل بالدعاء إلى الله تعالى، فذكرنا أنواعاً ثلاثة:

الأول: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾^(١).

فإن غاية المؤمن أن يرضى ربه، ويحظى عنده بالقبول، فالله سميع للدهاء، عليم ببواطن الأمور وخفايا الصدور.

الثنائى: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾^(٢).

فالإخلاص لله والاستسلام لأحكامه والرضا بقضائه، والرجوع إليه سبحانه دائماً بالإنابة والتوبة النصوح.. ذلك هو سبيل النجاة وطريق السعادة فى الأولى والآخرة.

وناسب ذلك التذليل بقوله: «إنك أنت التواب الرحيم»، لأن الكمال فى أداء العبادة والمناسك متعذر، وشأن العبد أن يحتاج إلى عفو سيده ورحمته.

والعاقل لا يلذ له العيش إلا بمشاركة أبنائه له، ولا تتم سعادته إلا أن تعم أبنائه معه.. وهكذا دائماً عباد الرحمن يقولون: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾^(٣).

الثالث: ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(٤).

دعا إبراهيم عليه السلام لذريته أن تظل على إسلام الوجه لله، والعبادة بإخلاص، والإنابة بالتوبة.

لكن الإغراء والأهواء، وتقلب الليل والنهار لا يديم شيئاً على حاله فكان الدعاء بأن يجدد الله لهذه الأمة أمر دينها وإسلامها بإرسال رسول يتم الدين والملة.

وحدد إبراهيم لهذا الرسول صفات أربعاً:

(١) سورة البقرة، الآية ١٢٧.

(٢) سورة البقرة، الآية ١٢٨.

(٣) سورة الفرقان، الآية ٧٤.

(٤) سورة البقرة، الآية ١٢٩.

«يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم».
فالتلاوة حفظ للنص، وإبقاء للتواتر، وصيانة للوحي عن التحريف والتصحيف.
والتعليم بيان للأحكام والشرائع وإظهار لحقائق الدين وأصول الإيمان.
والحكمة فقه مقاصد الشريعة في مصالح العباد..
والتزكية مكارم الأخلاق وفضائل السلوك، وتلك غاية قصوى من غايات
العبادة والنسك، فالدين المعاملة..

وكان تذييل هذا الدعاء: «إنك أنت العزيز الحكيم»
والمناسبة واضحة جلية، فإن بعثة الرسول هي مقتضى الحكمة ودليل القدرة
الإلهية التي لا تقهر؛ فالله تعالى هو الذي يصطفى من يشاء، وهو سبحانه الذي
يؤيده بالمعجزات، وينصره النصير المؤزر، كما قال جل شأنه: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرَ رُسُلَنَا
وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾^(١).

هذا وإجماع المفسرين على أن هذا الرسول الذي دعا به وله إبراهيم وإسماعيل
عليهما السلام إنما هو محمد ﷺ، فلم يبعث الله نبياً إلى العرب منذ إسماعيل عليه السلام.
وذرية إسماعيل هي المقصودة بهذا الدعاء، لأنه الذي رفع القواعد مع أبيه في
هذا الوادي.

أما إسحق فلم يشارك في البناء ولم يحضره..
ثم إن الدعاء إنما هو ببعثة رسول واحد لهذه الأمة المسلمة، وقد تعددت
الرسل والأنبياء إلى بنى إسرائيل من نسل إسحق. وقد وردت آثار تؤكد أن محمداً
ﷺ هو دعوة إبراهيم، ففي مسند أحمد عن أبي أمامة قال:
قلت: يا نبي الله ما كان بدء أمرك؟ قال: (دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى،
ورأت أمي أنه خرج منها نور أضاءت منه قصور الشام)^(٢).

(١) سورة غافر، الآية ٥١.

(٢) قال عنه ابن كثير، تفرد به الإمام أحمد ولم يخرج أحد من أصحاب الكتب الستة، ج ٢، ص ٣٢٢
من البداية والنهاية.

وقد اهتم القرآن المجيد كثيراً بهذه الصلة الوثيقة بين إبراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام، فحكم أن محمداً وأمته أولى الناس به فقال: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١).

وجعله أباً للمسلمين فقال: ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٢).

وفرض الله على الأمة الإسلامية التوجه في صلاتها إلى الكعبة بناء إبراهيم فقال: ﴿قُولِ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ (٣).

وجعل الحج إلى الكعبة تلبية لنداء إبراهيم فريضة وركناً من أركان الدين فقال: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ (٩٦) فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ومن كفر فإن الله غني عن العالمين﴾ (٤).

ولكل هذه المعاني وغيرها اقترن ذكر إبراهيم بذكر محمد في الصلاة والتسليم عليهما، وأفضل الصيغ ما جاء في التشهد:

اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، في العالمين إنك حميد مجيد.

* * *

(١) سورة آل عمران ، الآية ٦٨ .

(٢) سورة الحج ، الآية ٧٨ .

(٣) سورة البقرة ، الآية ١٤٤ .

(٤) سورة آل عمران ، الآيتان ٩٦ و ٩٧ .

بشرى عيسى

تظاهرت آيات القرآن المجيد مؤكدة حقيقة البشارة بمحمد ﷺ في التوراة والإنجيل، وقد اتخذ البيان القرآنى أنماطاً متعددة فى التعبير عنها، وهذه أمثلة منها:

قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (١).

وفى سبب نزول هذه الآيات يروى ابن إسحق عن عاصم بن عمر عن قتادة عن رجال من قومه قالوا:

(إن مما دعانا إلى الإسلام - مع رحمة الله تعالى وهداه - لما كنا نسمع من رجال يهود، كنا أهل شرك، أصحاب أوثان، وكانوا أهل كتاب، عندهم علم ليس لنا، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور..

فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا: إنه تقارب زمان نبي يبعث الآن، نقتلكم معه قتل عاد وإرم..!!

فكنا كثيراً ما نسمع ذلك منهم، فلما بعث الله رسوله ﷺ أجبناه حين دعانا إلى الله تعالى، وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به، فبادرناهم إليه، فأما به وكفروا به، وفيهم نزل هؤلاء الآيات من البقرة.. (٢).

قال سبحانه: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٣).

وفى آية أخرى يقول: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٤).

(١) سورة البقرة، الآية ٨٩.

(٢) الروض الأنف فى تفسير السيرة النبوية لابن هشام - للإمام السهيلي، ج ١، ص ٢٤٥.

(٣) سورة البقرة، الآية ١٤٦.

(٤) سورة الأنعام، الآية ٢٠.

وفى هذا التعبير: «يعرفونه كما يعرفون أبناءهم» تأكيد وضوح النبوة لسيدنا محمد ﷺ وصدقه فى دعواها، وتصديقه لما مع أهل الكتاب من بشارات..

وفى الآية الأولى بين الله تعالى أن فريقاً منهم يكتسب الحق، وفى الآية الثانية حكم عليهم بالخسران والوبال لتركهم الإيمان بالرسالة المحمدية.

وينسب إلى أحد أحبار اليهود الذين أسلموا قوله: والله إن معرفتى بمحمد أشدّ وما ندرى ما تصنع النساء^(١)!!!

. ثم نلتقى بالنص الصريح والعبارة القوية والصفة القاطعة بالبشارة بمحمد فى التوراة والإنجيل، فيقول الله تعالى: «الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ»^(٢).

. ونحدث القرآن كثيراً عن جماعة عرفوا الحق فاتبعوه وأدركوا صدق البشارة على سيدنا محمد ﷺ فأمنوا برسالته..

. ففى سورة المائدة تحدث الآيات عن القسيسين والرهبان الذين أسلموا ورفضوا متاع الحياة الرخيص ومظاهر الرئاسة الكاذبة، فقال سبحانه: «ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيَّيْنَ وَرَهْبَانًا أَنْهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ»^(٣) وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ»^(٤).

ثم تسوق الآيات هذا التساؤل منهم: «وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق؟!».

فكانت عاقبتهم حسن الجزاء من الله تعالى: «فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ»^(٥).

(١) فى تفسير الكشاف، ج ١، ص ٣٢١، وعن عمر رضى الله عنه أنه سأل عبد الله بن سلام عن رسول الله ﷺ فقال: أنا أعلم به منى بابنى. قال: ولم؟ قال: لأنى لست أشك فى محمد أنه نبي، فاما ولدى فلعل والدته خانت، فقبل عمر رأسه.

(٢) سورة الأعراف، الآية ١٥٧.

(٣) سورة المائدة، الآيتان ٨٢ و ٨٣.

(٤) سورة المائدة الآية ٨٥

. وفى سورة الإسراء اتخذ القرآن من إيمان هؤلاء حجة على المشركين وأكد أن علمهم بالكتاب الأول هو الذى ساقهم إلى الإيمان بالرسول الخاتم، فكيف يكفر به من لا علم له ولا دين من الوثنيين؟! فقال: ﴿قُلْ آمَنُوا بِهِ أَوْ لَا تَوْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا (١٠٨) وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَكُونُ بَيْنَهُمْ خُشوعًا﴾ (١).

. وفى سورة القصص بين القرآن أن الرسالة المحمدية حلقة أساسية فى الوصل بين الرسالات الإلهية، وأن أهل الكتاب الذين يصلون إيمانهم بموسى وعيسى عليهما السلام بإيمانهم بمحمد ﷺ؛ لهم أجر مضاعف، ثم وصفت الآيات ثباتهم على الحق، ويقينهم الكامل بالرسالة المحمدية، ومدحت سلوكهم الراشد تجاه جهلاء العقل وغرباء الكلمة فقالت: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥١) الَّذِينَ آمَنُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ (٥٢) وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ (٥٣) أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٥٤) وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ (٢).

و ساق القرآن تشبيهاً لأمة محمد ﷺ ووصفاً لهم ذكره الله تعالى فى التوراة والإنجيل فقال: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رَحِمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَتَذَكَّرُونَ فَضُلًّا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِمَّنْ أَوْفَرَ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ (٣).

(١) سورة الإسراء ، الآيات ١٠٧ - ١٠٩ .

(٢) سورة القصص ، الآيات ٥١ - ٥٥ .

(٣) سورة الفتح ، الآية ٢٩ .

فقد وصف الرسول وأصحابه في التوراة بالشدة على الكفار والرحمة مع المؤمنين وكثرة الصلاة والسجود، فزادهم ذلك بهاءً وضياءً، وكانت صفحات وجوههم تشع نوراً.

ومثل الرسول وصحبه في الإنجيل كزرع يبدو في أول أمره ضعيفاً هشاً، فيعمق جذوراً ويمتد سيقاناً ويزداد فروعاً ثم يؤتى ثمره طيباً مباركا فيعجب الزارع بقوته وثمره وجمال منظره.

وحرص القرآن على تأكيد أن الرسول المبشّر به في التوراة والإنجيل إنما هو النبي العربي الهاشمي، فذكره بالاسم ليقطع الطريق على الأدعياء ولتتضح الحقيقة لكل ذي عينين، وأردف ذلك بأن النصر المؤزر لرسول الهدى أحمد وأن رايته ستعلو خفاقة في العالمين، فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدٌ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (٦) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٧) يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٨)﴾.

وكان ختام البيان القرآني في هذا المجال - حسب ترتيب المصحف الشريف - في سورة البينة؛ معلناً أن حجة الله على خلقه من أهل الكتاب والمشرّكين قد قامت ببعثة محمد ﷺ وإنزال القرآن العظيم، وأن الحنيفية السمحة هي طريق البشرية إلى الله.. فقال: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ (٢) حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ (١) رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً (٢) فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ (٣) وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ (٤) وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ (٥)﴾.

(١) سورة الصف، الآيات ٦ - ٨.

(٢) منفكين: منتهين.

(٣) سورة البينة، الآيات ١ - ٥.

من هذا العرض السريع وتلك الإمامة اليسيرة يتضح أن القرآن أكد تأكيداً قوياً، واحتجاً احتجاجاً ظاهراً على نبوة سيدنا محمد ﷺ ببشارات التوراة والإنجيل، وألزم أهل الكتاب ضرورة الإيمان بهذه النبوة المحمدية تصديقاً لما معهم وما ثبت لديهم من أنه ﷺ جاء بالحق وصدق المرسلين.

ويعتبر هذا الاتجاه القرآني فريداً في إثبات النبوة.

يقول الإمام الرازي: (وهذا يدل على أن نعتة وصحة نبوته مكتوب في التوراة والإنجيل، لأن ذلك لو لم يكن مكتوباً لكان ذكر هذا الكلام من أعظم المنفّرات لليهود والنصارى عن قبول قوله، لأن الإصرار على الكذب والبهتان من أعظم المنفّرات..

والعاقل لا يسعى فيما يوجب نقصان حاله، وينفّر الناس من قبول قوله.

فلما قال ذلك دلّ هذا على أن ذلك النعت كان مذكوراً في التوراة والإنجيل، وذلك من أعظم الدلائل على صحة نبوته^(١).

وفي هذا المعنى أيضاً يقول الإمام ابن تيمية: (نفس إخباره بذلك في القرآن مرة بعد مرة، واستشهاده بأهل الكتاب، وإخباره بأنه مذكور في كتبهم مما يدل العاقل على أنه كان موجوداً في كتبهم.

فإنه لا ريب عند كل من عرف حال محمد من مؤمن وكافر؛ أنه كان من أعدل أهل الأرض، فإن المكذبين له لا يشكون في أنه كان عنده من الخبرة والمعرفة والحدّث ما أوجب أن يقيم مثل هذا الأمر العظيم الذي لم يحصل لأحد مثله لا قبله ولا بعده..

فعلم ضرورة أنه لا يفعله ولا يخبر به، وهو من أحرص الناس على تصديقه، وأخبرهم بالطرق التي يصدق بها، وأبعدهم عن أن يفعل ما يعلم أنه يكذب به..

فلو لم يعلم أنه مكتوب عندهم، بل علم انتفاء ذلك، لامتنع أن يخبر بذلك مرة بعد مرة، ويستشهد به، ويظهر ذلك لموافقيه ومخالفيه، وأوليائه وأعدائه، فإن هذا لا يفعله إلا من هو أقلّ الناس عقلاً، لأن فيه إظهار كذبه عند من آمن به منهم، وعند

(١) التفسير الكبير، ج ١٥، ص ٢٦.

من يخبرونه، وهو ضد مقصوده. وهو بمنزلة من يريد إقامة شهود على حقه فيأتى إلى من لا يعلم أنه لا يكذب، ويعلم أنه ليس بشاهد، ولا حضر قضيته ويقول: هذا يشهد لى، فإنهم كانوا حاضرين هذه القضية.

فيقول أولئك: لسنا نشهد له ولا حضرنا هذه القضية.

فهذا لا يفعله عاقل يعلم أنهم لم يكونوا حاضرين، وأنهم يكذبونه ولا يشهدون له..(١).

ويعدّ ابن تيمية هذا الطريق من أظهر الحجج على أهل الكتاب وأظهر الأعلام على نبوته ﷺ.

* * *

(٢) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، ج ٣، ص ٢٩٢، طبعة مطابع المجد التجارية.

الفصل الثاني

الواقع المعاصر لنشأة الدعوة

(أ) الدين:

- ١ - الوثنية.
- ٢ - المجوسية.
- ٣ - اليهودية.
- ٤ - النصرانية.

(ب) الأخلاق:

- ١ - نكاح الجاهلية.
- ٢ - وأد الأولاد.
- ٣ - قانون الغاب.
- ٤ - كلمة توضيح.

(١) الدين

ما الإنسان فى حقيقةه؟! وما الإنسان فى رسالته؟!
إن الإنسان ليس مادة فحسب، وليس بالخبز وحده يعيش الإنسان.
إن هناك عقلا ومشاعر وأحاسيس تمثل حقيقة الإنسان، وتمايز بينه وبين سائر
فصائل الحيوان..

وإذا أغفلنا هذا الجانب الرئيسى فلن نجد الإنسان، وإنما سنرى قطيعا من
الأحياء يحكمه قانون الغاب، ويحدد مساره المأكلى والمشرب والشهوة.

إن السعادة هى أقصى آمال الإنسان العاقل، وهى قمة الفضائل الإنسانية.. فهل
ناطحات السحاب والتكنولوجيا وأبحاث الفضاء تهيب النفس الإنسانية السعادة والاستقرار؟!
وهل الإنسان الآلى والأدوات الكهربائية الحديثة أضفت على البيوت
هدوءها، ومكنت أهلها من راحة البال وانسراح الفؤاد؟!

وهل وسائل الإعلام المسموعة والمرئية مكنت العقل الإنسانى العام من النضج
والوعى وسلامة التفكير؟!

إن الواقع المرير أن الإنسان سلب عقله وغاب وعيه، وأن الضمير الإنسانى ناله
سكون الموتى، وأن مشاعر الإنسان أضحت كصخر الجبال، وأن آمال الإنسان
تقوَّعت وانحصرت فى المأكلى والمشرب والشهوات المادية الرخيصة..

وضاعت قيم الحياة..!!

ما أريد أن أؤكدّه وأؤكدّه هو: أن الحياة فى حاجة ماسة إلى الإيمان بالله،
واكتساب العقيدة الحقيقية، التى هى ميزان السلوك والأخلاق، ومعيار الاستقامة،
ونقطة البدء لسعادة الفرد وأمن المجتمع.

فهل توافر للناس صحة الإيمان وصدق اليقين فى مذهب أو نحلة أو دين
قبيل البعثة المحمدية؟!!

إن استقراء الواقع التاريخي يرفض بإصرار واقتناع أن يجيب: نعم..
وهذه هي الأسباب..

* * *

١ - الوثنية:

عاش إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام في أم القرى، وتلقى رسالة ربه، وبلغها أهل مكة ومن حولها.. قال تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (٥٤) وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ (١).

وطبيعة الحياة التغير وعدم الثبات على شيء، ويعتري العقائد ما يعتري الأجسام من ضمور وفساد، فمع تباعد الزمن، وتطاول العهد؛ أحدث العرب في دين الله مالم يأذن به، وانحرفت بهم الأهواء وأغرتهم الشياطين، فعبدوا غير الله وأشركوا معه ما لا ينفعهم ولا يضرهم وما ليس لهم به علم..

وتتعدد الروايات في نشأة الوثنية في جزيرة العرب.

ويسوق ابن هشام رواية تفيد أن عمرو بن لحي الخزاعي قدم الشام، فرآهم يعبدون الأصنام (٢) فقال لهم: ما هذه الأصنام التي أراكم تعبدون؟!

قالوا له: هذه أصنام نعبدها فنستمطرها فتمطرنا، ونستنصرها فتنصرنا.

فقال لهم: أفلا تعطوني منها صنماً فأسير به إلى أرض العرب فيعبدوه؟!

فأعطوه صنماً يقال له (هبل)، فقدم به مكة فنصبه وأمر الناس بعبادته وتعظيمه.

(١) سورة مريم، الآيتان ٥٤ و ٥٥.

(٢) الصنم في المعاجم وتفسير القرآن هو ما اتخذ إلهاً من دون الله، ويفرق بوجه عام بين كلمة صنم وكلمة وثن بأن الصنم ما كان له جسم وهو يصنع من الحجر أو الخشب أو المعدن، في حين أن الوثن يكاد يرادف الصورة أو الرسم.

وتزيد المعاجم العربية بأن كلمة صنم كلمة أعجمية الأصل، مشتقة من كلمة شنم، ولكنها لا تعرف اللغة التي اشتقت منها هذه الكلمة. ويذهب علماء اللغة الأوروبيون إلى أنها من حيث الاشتقاق هي عين الكلمة العبرية صلم أى الصورة أو التمثال. (من دائرة المعارف الإسلامية ج ١٤، ص ٣٥٦).

وهناك تعليل آخر لتلك النشأة قد يكون أقرب إلى طبائع الأشياء وتعاقب الحوادث، فيسوق ابن إسحق رواية تفيد أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن منهم - حين ضاقت عليهم والتمسوا الفسح في البلاد - إلا حمل معه حجراً من حجارة الحرم تعظيماً للحرم، فحيثما نزلوا وضعوه فظافوا به كطوافهم بالكعبة، حتى سلخ ذلك بهم إلى أن كانوا يعبدون ما استحسنا من الحجارة وأعجبهم، حتى خلف الخلوف ونسوا ما كانوا عليه، واستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل غيره، فعدوا الأوثان وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم من الضلالات..^(١).

وتعددت المناسبات وتوالت الأسباب حتى صار لكل قبيلة صنم أو أصنام، وبلغ عدد الأصنام التي أحاطت بالكعبة ستين وثلاثمائة.

ووصل التنافس في عبادة الأصنام حدا جعلهم يتخذون بيوتاً تحظى بالتعظيم، كتعظيم الكعبة، لها سدنة وحجاب، ويفعل عندها ما يفعل عند الكعبة من الهدى والطواف.

وبلغت المهانة الدينية مبلغاً جعل العقل الجاهلي يصنع الصنم فيعبده، وانقلبت الحقيقة وأصبح العابد يخلق المعبود.

ويعمل الإنسان الجاهلي الصنم من العجوة يتهل إليه ملتصاً بالرزق والعطاء، ثم يؤله الجوع فيأكل معبوده أكلاً.

بل هناك صورة مؤلمة حقاً.. لقد ذهب أحدهم إلى صنم يقال له (سواع) فألقى عنده ثعلبين يلحسان ما حوله، ويأكلان ما يهدى إليه، ثم يولان عليه.. فأنشد قائلاً:
أربُّ يَبُولُ الثَّعلْبَانِ برأسه لقد ذلَّ مَنْ بَالَتْ عليه الثَّعَالِبُ

إن هذه الوثنية الجاهلية تبلورت في أمور كثيرة، أهمها:

● الاعتقاد بأن هذه الأصنام شفعاء عند الله أو تقربهم منه سبحانه، وقد أشار القرآن إلي هذا المعنى فقال: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتَنْبِئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾^(٢).

(١) راجع الروض الأنف، ج ١، ص ١٠١.

(٢) سورة يونس، الآية ١٨.

وقال جل شأنه: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ (١).

● إنكار البعث والسؤال والحساب لدى بعض العرب مع اعتقادهم وجود الله سبحانه، وتلك هي قضية التناقض الرئيسية في العقيدة..

وحكى القرآن هذا المعنى في أكثر من سورة فقال: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٢).

● إلغاء العقل المفكر في الدين، وبناء أمر الإيمان على التقليد الأعمى والانسياق المجرد..
ونبه القرآن إلى هذا الاتجاه الخاطئ فقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ (٣).

● الالتجاء إلى الأوهام والخرافات، وملء حياة الناس بما يفسد إنسانية المرء، ويسلبه خصائص البشرية السوية، مثل السحر والكهانة والعرافة والتنجيم والتطير..
قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ (٤).

هذا ولم تكن الوثنية وقفاً على جزيرة العرب، بل وجدت في العراق والشام ومصر واليونان وكثير من أرجاء العالم القديم، ويعدّ سيدنا نوح عليه السلام أول رسول يواجه عبادة الأصنام في البشرية..

قال تعالى: ﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالَهُ وَوَلَدَهُ إِلَّا خَسَارًا (٢١) وَمَكْرُوهًا كَبِيرًا (٢٢) وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا..﴾ (٥).

(١) سورة الزمر، الآية ٣.

(٢) سورة النحل، الآية ٣٨.

(٣) سورة البقرة، الآية ١٧٠.

(٤) سورة الجن، الآية ٦.

(٥) سورة نوح، الآيات ٢١ - ٢٣.

ويقال إن هذه الأصنام كانت فى بدء أمرها تماثيل لرجال صالحين تخليداً لذكراهم، فلما تقادم العهد عُبِدَت من دون الله.

وتوالى الرسالات الإلهية توقظ العقل الإنسانى، وتنهى عن عبادة الأصنام، وتأمُر بعبادة الله الواحد الديان.. وكان لإبراهيم الخليل عليه السلام مواقف خالدة مع أبيه وقومه سجّلها القرآن العظيم فى أكثر من موضع، ومن خلال حوار إبراهيم مع قومه فى سورة الأنبياء يتضح مدى الانحراف العقدى والتخلف العقلى..

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ (١).

فالنبوة رُشد عقلى، وفطنة، وعصمة، وكفالة إلهية للمصطفين الأخيار، وإبراهيم عليه السلام أُوتى الحجة على قومه:

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (٥٢) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (٥٣) قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٢).

وهكذا فليس للوثنية سند وحجة إلا تقليد الآباء عصبية وحمية جاهلية..

﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِينَ (٥٥) قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ (٣).

وهنا موقف المقارنة والمقابلة، فالله تعالى هو فاطر الكون والكائنات ومبدع الوجود ومانح الخير كله.. فماذا تملك الأصنام من أمر نفسها أو من أمر غيرها؟!

﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (٥٧) فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ (٤).

وهذا موقف تغيير المنكر فى أسمى مراتبه بعد بيان الحجة ووضوح الدليل.

﴿قَالُوا مِن فَعَلَ هَٰذَا بِالْهِتَانِ إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٥٩) قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (٦٠) قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ (٥).

(٢) سورة الأنبياء، الآيات ٥٢ - ٥٤.

(٤) سورة الأنبياء الآيتان ٥٧ - ٥٨.

(١) سورة الأنبياء، الآية ٥١.

(٣) سورة الأنبياء ٥٥ - ٥٦.

(٥) سورة الأنبياء ٥٩ - ٦١.

وهذا هو رد الفعل فى أول صدهاء.. إنكار لتلك الجريمة فى نظرهم وتشنيع على الفاعل وبحث عن الجانى!!

﴿قَالُوا أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِالْهَيْتَانِ يَا إِبْرَاهِيمَ﴾ (٦٧) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴿١﴾

فى ساحة المحاكمة، وعلى رءوس الأشهاد يجرى هذا الحوار وتقام هذه الحجة الدامغة التى تلفتهم إلى مواطن الخطأ والخطيئة فى عقيدة الوثنية..

لماذا يوجه السؤال إلى إبراهيم ولا يوجه إلى كبير الأصنام؟!

وكيف تتحطم الآلهة المزعومة وهى التى تتخذ ملجأ ومنجى؟!

أيهما أقوى سلطاناً: العابد أم المعبود؟!

إن الصنم أصم، أعمى، أبكم، ولا يغنى شيئاً، لكن الإنسان يسمع ويبصر ويتكلم وينحت التماثيل.. فأيهما أسمى من الآخر وأعلى؟!

﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ (٦٦) أَفَ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾

هنا لا مفر من أحد أمرين: الاقتناع أو المكابرة.. لكن القوم أبوا منطق العقل وعدلوا إلى البطش والتشكيل شأن كل الجهلاء المتكبرين..

﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ (٣)

وما كان الله ليدع رسوله، فلقد نصره نصراً مؤزراً، وأظهر حجته البالغة وآيته الكبرى..

﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ (٦٩) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٤﴾

* * *

(٢) سورة الأنبياء الآيتان ٦٦-٦٧

(١) سورة الأنبياء، الآيتان ٦٢-٦٣

(٤) سورة الأنبياء الآيتان ٦٩-٧٠

(٣) سورة الأنبياء، الآية ٦٨

٢ - المجوسية :

يرى المسلمون أن المجوس ممن لهم شبهة كتاب منزل بناء على أنهم من بقايا أتباع إبراهيم عليه السلام ثم حرقوا وبدلوا..

والمجوس يعظمون النار ويبنون لها المعابد اعتقاداً منهم أن عبادتهم لها فى الدنيا تنجيهم من عذابها فى الآخرة، وتعظيماً لها لأنها صارت برداً وسلاماً على إبراهيم..

وكانت المجوسية منتشرة فى فارس والهند والصين، وتقوم عقيدتهم على الإيمان بأصلين هما النور والظلمة، وهما بالفارسية: يزدان، وأهرمن.

واختلفوا حولهما اختلافات كثيرة.. فذهب بعضهم إلى أن يزدان أزلى قديم، وأهرمن محدث مخلوق، وقد جرت بينهما حرب ضروس انتهت بالصباح على أن يكون العالم السفلى خالصاً لأهرمن سبعة آلاف سنة ثم يخلق العالم ويسلمه إلى يزدان.

وهناك من يعتقد أن النور والظلمة أزليان قديمان، يتساويان فى القدم ويختلفان فى الجوهر والفعل والحيز والأجناس والأبدان والأرواح..

وساق الإمام الشهرستانى جدولاً بينَ فيه تلك الفروق لدى طائفة المانوية، نقتطف منه ما يلى^(١):

الظلمة	النور
قبيح، ناقص، لثيم، كدر، خبيث، منتن الريح، قبيح المنظر. شريرة، لثيمة، سفیهة، ضارة، جاهلة.	١ - الجوهر: حسن، فاضل، كريم، صاف، نقي، طيب الريح حسن المنظر. ٢ - النفس: خيرة، كريمة، حكيمة، نافعة، عالمة.
الشر والفساد والضرر والغم والتشويش والتبوير والاختلاف.	٣ - الفعل: الخير والصلاح والنفع والسرور والترتيب والنظام والإتقان.

(١) الملل والنحل - تحقيق محمد سيد كيلانى، ج ١، ص ٢٤٤.

النور

٤ - الحيز: جهة فوق، وأكثرهم على أنه مرتفع من ناحية الشمال، وزعم بعضهم أنه بجنب الظلمة.

٥ - الأجناس: خمسة، أربعة منها أبدان، والخامس روحه، فالأبدان هي النار والنور والريح والماء، وروحها النسيم، وهي تتحرك في هذه الأبدان.

٦ - الصفات: حية، خيرة، طاهرة، زكية، وقال بعضهم كون النور لم يزل على مثال هذا العالم، له أرض وجو، فأرض النور لم تزل لطيفة على غير صورة هذه الأرض، بل هي على صورة جرم الشمس، وشعاعها كشعاع الشمس ورائحتها أطيب رائحة، وألوانها ألوان قوس قزح^(١).

الظلمة

جهة تحت، وأكثرهم على أنها منحطة من ناحية الجنوب، وزعم بعضهم أنها بجنب النور.

خمس، أربعة منها أبدان والخامس روحها، فالأبدان هي الحريق والظلمة والسموم والضباب، وروحها الدخان وتدعي الهامة وهي تتحرك في هذه الأبدان.

ميتة، شريرة، نجسة، دنسة، وقال بعضهم كون الظلمة لم يزل على مثال هذا العالم، لها أرض وجو، فأرض الظلمة لم تزل كثيفة على غير صورة هذه الأرض، بل هي أكثف وأصلب، ورائحتها كريهة أتت الروائح، وألوانها ألوان السواد.

وأياً ما كان فإن أساطير المجوسية حول الإله، والشيطان، والأجرام السماوية والعالم الأرضي وما يجرى في نظام الكون والكائنات لا يمكن بحال من الأحوال أن يستسيغها عاقل، وبالتالي فهي لا تمثل العقيدة الصحيحة التي تهب الأمن والأمان وتعلي من كرامة الإنسان..

وقد حرص القرآن المجيد على إثبات أن كل ما عدا الله فهو حادث..

ولعل في حوار إبراهيم عليه السلام مع الصابئة عبدة الكواكب ما يؤكد هذه

(١) القوس: برج في السماء وقزح: اسم ملك موكل بالسحاب أو اسم ملك من ملوك العجم، أضيف قوس إلى أحدهما - راجع ترتيب القاموس، ج ٣.

الحقيقة.. قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفَلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لئن لم يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ (١).

فقد تدرج بهم إبراهيم، وتنزل إليهم، وألزمهم الحجة، فهذه الكواكب تتغير وتغيب، ويعتريها النقص والتمام، والصغر والكبر، والخسوف والكسوف... فلا يعقل أن تكون آلهة!!

والحقيقة الكبرى والحجة البالغة التي تنطق بها كل ذرة في هذا الوجود أعلنها إبراهيم في قوله: ﴿إِنِّي وَجْهَتُ وَجْهِي لِلذِّى فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٢).

كما أكد القرآن العظيم إسناد كافة الحوادث والأحداث إلى الله وحده، فقال جل شأنه: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦) تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (٣).

وخص الأسلوب القرآنى النور والظلمة بالذكر فى دخولهما تحت القدرة الإلهية، فقال: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ (٤).

ونص صراحة على أن مصدر النور والظلمة - وهو الشمس والقمر أو الليل والنهار - أثر من آثار رحمة الله بعباده فقال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (٥).

(١) سورة الأنعام، الآيات ٧٥-٧٨.

(٢) سورة الأنعام، الآية ٧٩.

(٣) سورة آل عمران، الآيتان ٢٦ و ٢٧.

(٤) سورة الأنعام، الآية ١.

(٥) سورة فصلت، الآية ٣٧.

٣ - اليهودية :

اليهود - فى الأصل - هم أتباع سيدنا موسى عليه السلام، وهو رسول من أولى العزم، اصطفاه الله وأيده بالمعجزات، وأنزل عليه التوراة هدى ونوراً..
قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءً﴾ (١).

وهذه الأمانة التى استحفظها الله الربانيين والأحبار؛ لم تحظ بالاهتمام الواجب، ولم تلتق القلوب على أدائها والعمل بما فيها.

وتوالى على اليهود - بعد موسى - عصور تاريخية حالكة انقلبوا فيها رأساً على عقب.

فافتروا على الله الكذب.

﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾ (٢).

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ (٣).

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزِّيُّ بْنُ اللَّهِ﴾ (٤).

وتفيض الكتب المقدسة لدى اليهود بوصف الله تعالى بما لا يليق، فهو سبحانه يقضى ليله فى البكاء والنحيب على شعب بنى إسرائيل الضائع، وهو سبحانه لما فرغ من خلق السموات والأرض استوى على عرشه مستلقياً على قفاه واضعاً إحدى رجليه على الأخرى.. وقد صارعه يعقوب فصرعه.

تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

(١) سورة المائدة، الآية ٤٤.

(٢) سورة البقرة، الآية ٨٠.

(٣) سورة المائدة، الآية ٦٤.

(٤) سورة التوبة، الآية ٣٠.

وقتل اليهود الأنبياء وأهدروا عصمتهم؛ فأبراهيم عليه السلام فى منطق التوراة المحرفة يرضى لنفسه العار ويسلم امرأته لفرعون مصر.

وداود عليه السلام يحتال على امرأة قائده ويرتكب معها الفاحشة ويرسل زوجها ليقتل فى المعركة.

ولوط عليه السلام تحتال عليه ابتاه وتسقيانه خمراً وتضاجعانه وتحملان منه سفاحاً.

وسليمان عليه السلام يستهويه حب النساء حتى يعبد الأصنام إرضاءً لهنّ.. ومن العجيب أن يتعبد اليهود بسفر نشيد الإنشاد، وهو تشبيب بالمرأة ووصف كامل لجسدها، وغزل فاضح يتنزه عنه الإنسان العادى، ومع ذلك ينسبونه لسليمان عليه السلام.

ويتوه الباحث بين ما يسمونه الناموس والأسفار والمكتوبات والتلمود وقد توزع اليهود فرقاً فى العقيدة وأشتاتاً فى الوطن وتفرقوا أيدي سباً، وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله.

وقد نكل بهم بختنصر عام ٥٨٦ ق.م، ودمر مدينة أورشليم وأحرق الهيكل وساقهم أسرى إلى بابل، فيما عرف تاريخياً بالأسر البابلى الشهير، وبه انتهى اليهود كدولة.

ثم حدث أن غزا الفرس أرض فلسطين، وسمح لهم القائد الفارسى (قورش) بالعودة إلى أورشليم وبناء الهيكل من جديد تحت السلطان الفارسى، فظلوا بها حتى دهمهم الغزو الرومانى عام ٧٠م فشردهم (نيطس) أحد أباطرة الرومان وأحرق مدينتهم وهيكلهم ومزقهم كل ممزق، فانقلبوا هائمين على وجوههم فى صحراء العرب وما جاورها من أمصار، وكان لهم فى يثرب مأوى من تشرد.. ومكثوا بها زمناً. لم يسلم أهل يثرب من نشاطهم المخرب وفتنتهم الحارقة إلى أن جاء الإسلام وهاجر الرسول ﷺ وسطع نور الله على يثرب فأصبحت مدينة الرسول وحرم الإسلام^(١).

(١) من الدراسات حول هذا الموضوع:

(أ) إظهار الحق للعلامة رحمة الله الهندى.

(ب) الأسفار المقدسة قبل الإسلام - الدكتور على عبد الواحد وفى.

(ج) اليهودية - الدكتور أحمد شلى.

(د) مقارنة الأديان بين اليهودية والإسلام - الدكتور عوض الله حجازى.

فخبروني أى عقيدة يمكن أن يكتسبها الإنسان من اليهودية؟! وأى سكينه
نفسية يمنحها اليهود للإنسان؟!

إنهم يرفضون أن يتهود البشر ويرون عقيدتهم حكراً عليهم، ولا يرضون
للإنسان إلا أن يكون ذليلاً لهم، خاضعاً لأهوائهم، مسلوب الإرادة أمام مخططاتهم.

* * *

٤ - النصرانية :

جاء سيدنا عيسى ابن مريم عليه السلام مصداقاً بالتوراة ومبشراً برسول يأتى
من بعده اسمه أحمد.. وجعل الله نشأته آية، وبارك عليه وعلى أمه الصديقة
واصطفها على نساء العالمين..

غير أن النصرانية التى وجدت قبيل البعثة المحمدية لم تكن بالدين الصحيح
الذى جاهد عليه المسيح، واكتنفها الغموض، ودخلها التحريف ومزقتها الصراعات.
ويدور أمر هذه النصرانية المحرّفة حول مجموعة اتجاهات رئيسية تحدد ما نقصده.
أولاً: هل المسيح إنسان أم إله؟!

اختلفت النصارى حول طبيعة المسيح اختلافات وبيلة، ويصدم العقل البشرى
بمفاهيم وتعبيرات تسلبه التفكير السليم، مثل الاتحاد والتجسد، والأقنوم والكلمة،
واللاهوت، والناسوت، والآب والابن، وروح القدس إله واحد.

وانعقد مجمع نيقية عام ٣٢٥م ليقرر هذه الطلاسم:

«نؤمن بالله الواحد، الآب، مالك كل شىء، وصانع ما يرى وما لا يرى،
وبالابن الواحد يسوع المسيح، ابن الله الواحد، بكر الخلائق كلها، الذى ولد من أبيه
قبل العوالم كلها، وليس بمصنوع، إله حق من إله حق، من جوهر أبيه الذى بيده
أثقت العوالم، وخلق كل شىء من أجلنا، ومن أجل معشر الناس، ومن أجل خلاصنا
نزل من السماء، وتجسد من روح القدس، وصار إنساناً، وحُبِلَ به، ووُلِدَ من مريم
البتول، وقتل وصلب أيام فيلاطوس، ودفن ثم قام فى اليوم الثالث وصعد إلى السماء
وجلس عن يمين أبيه، وهو مستعد للمجىء تارة أخرى بين الأموات والأحياء.

ونؤمن بروح القدس الواحد روح الحق الذى يخرج من أبيه وبعمودية واحدة لغفران الخطايا..»^(١).

ثانياً: أين إنجيل عيسى عليه السلام الذى أنزله الله وحيّاً؟

إن العهد الجديد لدى النصارى كله قائم على تأليفات بشرية، وباعترافهم جميعاً ليس إنجيل عيسى، وإنما هى إنجيل متى، وإنجيل مرقس، وإنجيل لوقا، وإنجيل يوحنا. وبعض هؤلاء لم ير المسيح، فلوقا تلميذ بولس، ذلك اليهودى الذى أفسد على النصارى دينهم.

وهناك شك كبير لدى الباحثين فى أن كاتب إنجيل يوحنا من تلاميذ المسيح. وأياً ما كان فإن هذه الأناجيل كلها قائمة على زعم فاسد وادعاء باطل هو الإلهام والتلقى عن الله بعد انتقال المسيح.

ويضاف إلى هذه الأناجيل ما يسمى بأعمال الرسل، وهى رسائل حول قصة المسيح ومبادئه، وجميعها أوهام تلقاها أصحابها عن طريق الرؤى وأضغاث الأحلام. ثالثاً: إن الخطيئة الأولى وعقدة الذنب، والصلب والفداء عقائد غير معقولة معنى، وغير واقعة أصلاً.

فهم يزعمون أن خطيئة آدم عليه السلام تلاحق البشر، وأن الإله حل فى مريم، وتجسّد فى عيسى، وصلب تكفيراً للخطيئة.

والحق أن آدم عليه السلام لم يرتكب خطيئة وإنما نسى أو تأوّل ثم تلقى كلمات من ربه فتأب عليه، وهبط آدم إلى الأرض طاهراً مجتنبى، ونبياً رسولاً، وخليفة يعمر الأرض.

وعلى فرض الخطيئة - وقد نفرض المستحيل - هل الذنب يورث؟! وهل يتحمل الأبناء وزر آبائهم؟!

ولو سلّمنا جدلاً هذا الإرث الظالم، فما السبيل إلى مغفرة الذنب؟! ألا يكفى أن يقول الإله: غفرت لكم، طالما كانت تلك مشيئته؟!

(١) الملل والنحل للشهرستانى، ج ١، ص ٢٢٣ - طبعة دار المعرفة - بيروت.

وما الحكمة وراء هذه المناورات من التجسد والحلول والصلب؟
ولو قبلنا هذه التمثيلية على علاقتها فما علاقة اليهود بتلك المسألة الإلهية المحضة؟
وهل صلب المسيح باختياره الحر أم قهراً عنه؟
وإذا كانت عقيدة النصارى أن اليهود اقتادوه وقدموه للحاكم الظالم ليقتله
ويصلبه، فأى تكفير فى هذا لخطايا البشر؟
ألم يكن من المتصور أن يذهب المسيح ويتحرر فداء للبشر؟
ولو انتهينا إلى تسليم كل هذه الافتراءات والتخيلات الكهنوتية أليس من
عرفان الجميل أن يُشكر اليهود على فعلتهم هذه فى تخليص البشر من ملاحقة شبح
الخطيئة الأولى؟!

تساؤلات يطرحها العقل ويصاب حيالها الكهنوت الكنسى بصمت الموتى...!!
وبعد: فإن هناك ضرورة إنسانية كبرى تلح على ظهور نبيّ جديد يصون للإله
قدسيته، ويحفظ للإنسان وعيه وفكره، وينقذ البشرية من ضلالها الآثم وتصوراتها
الخاطئة عن الله والملا الأعلى..
وما كان ذلك النبي إلا محمد بن عبد الله ﷺ، الذى تحمل عبء هذا النداء
الإلهي:

﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ
وَالْأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ
بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾^(١).

* * *

(١) سورة آل عمران، الآية ٢٠.

(ب) الأخلاق

إن الإنسانية في حقيقة أمرها تجمع أخلاقى يرتبط بالإرادة الحرة التى يكون على أساسها التكليف والمسئولية..

لكن ما المقياس الأخلاقى؟!

إن القوانين مهما أحكمت لا تستطيع أن تسيطر على قوى الإنسان الداخلية، ثم إن القانون يحتاج إلى من يقوم على حمايته وعلى أمر تنفيذه، وهذا الحارس للقانون إنما هو إنسان يحتاج إلى من يحرسه أيضاً، لأنه لن يكون معصوماً.

إن الإيمان وحده هو الذى يتولى تأصيل القيم والمبادئ داخل النفس الإنسانية.

وإن النفس المؤمنة تسارع إلى الخير بمقتضى فطرتها، أما النفس الملحدة فتساق من ظاهرها برهبة السوط وعين القانون.. ومتى أخطأ السوط أو غفل القانون فهناك مجالات رجة من فوضى الأخلاق وسريان قانون الغاب.

وتؤكد أيضاً ضرورة الأخلاقية للإيمان فى تصحيح مسار العلاقات الاجتماعية كى تنمو على أساس المحبة لله والمحبة فى الله.. ذلك المبدأ الذى يتسامى على أهواء النفس ودنایا المادة، فتزوى الأحقاد، وتنأى الخصومات، ويعيش الناس عباد الله إخواناً..^(١).

ومتى أدركنا أن الملل والنحل التى سادت العالم قبيل البعثة المحمدية قد أهدرت قدسية الله، وضيعت معالم الخلافة التى منحها الله للإنسان، وسلبته وعيه الحضارى، فماذا تكون أخلاق الناس يومئذ؟!

إن الفساد العقدى لا ينبجم عنه إلا فساد خلقى، فأخلاق المرء على قدر دينه.

ويمكن تصور مدى هذا الفساد الخلقى من الواقع الجاهلى فى المنطقة العربية كنموذج لما ساد بقية العالم..

وهذه لمحات عن هذا الواقع الاليم.

(١) راجع: (الإيمان ضرورة أخلاقية)، ص ٤٥ من كتابنا (الإلهيات فى العقيدة الإسلامية) - ط دار الاعتصام.

١ - نكاح الجاهلية:

علاقة الرجل بالمرأة هي محور أخلاق الناس، فإذا سمت هذه العلاقة واتسمت بالرشد، وقامت على العفاف الشريف كانت أخلاق الناس حسنة.

وإذا شاعت هذه العلاقة بلا تنظيم، وأهدرت قيم الأعراض؛ ساءت أخلاق الناس، وضاعت معالم حياتهم الإنسانية.

وقد حدثتنا السيدة عائشة زوج النبي ﷺ - كما في صحيح البخارى - (أن نكاح الجاهلية كان على أربعة أنحاء:

فنكاح منها نكاح الناس اليوم يخطب الرجل إلى الرجل وليته أو ابنته فيصدقها^(١) ثم ينكحها.

ونكاح آخر: كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمثها^(٢): أرسلى إلى فلان فاستبضعى^(٣) منه، ويعتزلها زوجها ولا يمسه أبداً حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذى تستبضع منه، فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب.

وإنما يفعل ذلك رغبة فى نجابة الولد^(٤)، فكان هذا النكاح نكاح الاستبضاع.

ونكاح آخر: يجتمع الرهط ما دون العشرة فيدخلون على المرأة، كلهم يصيها، فإذا حملت ووضعت، ومرّ عليها ليل بعد أن تضع حملها أرسلت إليهم، فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع، حتى يجتمعوا عندها، تقول لهم: قد عرفتم الذى كان من أمركم، وقد ولدت، فهو ابنك يا فلان.. تسمى من أحبّت باسمه فيلحق به ولدها.

ونكاح رابع: يجتمع الناس الكثير فيدخلون على المرأة، لا تمتنع ممن جاءها، وهنّ البغايا، كن ينصبن على أبوابهن رايات تكون علماً فمن أرادهن دخل عليهن، فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها جمعوا ودعوا لها القافة^(٥)، ثم ألحقوا ولدها بالذى يرون فالتا^(٦) به، ودعى ابنه لا يمتنع من ذلك.

(١) يعين صداقها ويسمى مقداره.

(٢) الطمث: الحيض.

(٣) البضع هو الفرج، والمباضعة هى المجامعة، واستبضعى منه: اطلبى منه المجامعة.

(٤) كانوا يفعلون ذلك مع رؤسائهم وأكابرهم ليكتسب أبناؤهم الشرف منهم، وهو أشبه بما يعرف الآن بينك الأجنة...!!

(٥) جمع القائف: وهو الذى يلحق الولد بالوالد بالآثار.

(٦) التصق به.

ثم تقول السيدة عائشة: فلما بعث محمد ﷺ بالحق هدم نكاح الجاهلية كله إلا نكاح الناس اليوم).

هذا ولو تأملنا نكاح الخطبة والعقد الواقع في الجاهلية نجد أنه كان محفوظاً بمزالق أخلاقية كثيرة، تعقبها القرآن المجيد.

من هذه الانحرافات زواج المحارم، كزوجة الأب، والجمع بين الأختين وزوجة الابن، والمرأة وابنتها.. إلخ.

يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا (٢٢) حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرِّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِنْ لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (١)﴾.

وجاء في أسباب النزول أنه لما توفي أبو قيس بن الأسلت، وكان من صالحى الأنصار، خطب ابنه قيس امرأته، فقالت: أنا أعدك ولداً، وأنت من صالحى قومك، ولكنى أتى رسول الله ﷺ.

فقالت: إن أبا قيس توفي، وإن ابنه قيساً خطبنى وهو من صالحى قومه، وإنما كنت أعدّه ولداً، فما ترى؟!

فقال لها: ارجعى إلى بيتك، فنزلت: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ (٢)﴾.

بل ذهب بعضهم إلى أبعد من ذلك، فجعل امرأة الأب من أموال الميراث، تورث كما يورث المتاع، فإذا مات الرجل وترك امرأة ولا ولد لها جاء ابنه من غيرها

(١) سورة النساء، الآيتان ٢٢، ٢٣.

(٢) سورة النساء، الآية ٢٢.

أو وليه فألقى عليها ثوباً، فإن شاء تزوجها بالصدّاق الأول، وإن شاء زوجها غيره وأخذ صدّاقها، وإن شاء منعها من الزواج.. فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضَلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ﴾ (١).

* * *

٢ - وأد الأولاد :

شاع بين العرب قتل الأولاد لأكثر من سبب، فبعضهم فعل ذلك خشية الإملاق، ولم يفرق بين ذكر وأنثى.. قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ (٢).

فالولد في اللغة يطلق على الذكر والأنثى.

ونلاحظ أن البيان القرآني لفت أنظار الناس إلى حقيقة مهمة، هي أن الرزق بيد الله يؤتيه من يشاء، وأن رزق هؤلاء الأولاد مقدم على رزق آبائهم، فالناس إنما ييسر لهم الرزق بسبب من يعولونهم..

وبعض العرب - وهم ربيعة ومضر - قتلوا البنات حمية وخوف العار، قال تعالى: ﴿وَإِذَا بَشَّرَ أَحَدَهُمْ بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (٣).

فالرجل منهم إذا ولد له بنت اختفى من قومه مهموماً مكروباً حزيناً، ماذا يفعل؟ أيبقى على حياتها ويظل العار يلاحقه أم يدفنها في التراب وهي على قيد الحياة؟!

ونسى هذا الجاهلي أنه إنما جاء من امرأة، ويعيش مع امرأة..!!

ومن العرب من قال: إن الملائكة بنات الله وهم خزاعة وكنانة، فوأدوا بناتهم ليلحقوا ببنات الله.

قال سبحانه: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ (٤).

(١) سورة النساء، الآية ١٩ - راجع الروايات وتخريجها في تفسير ابن كثير، ج ١، ص ٤٦٥ - طبعة دار

المعرفة - بيروت. (٢) سورة الإسراء، الآية ٣١.

(٣) سورة النحل، الآيتان ٥٨ و ٥٩. (٤) سورة النحل، الآية ٥٧.

وقال جل شأنه: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾^(١).

ومنشأ الضلال فى هذه الفرية أنهم نسبوا الولد لله تعالى، وجعلوا هذا الولد من جنس ما يبرءون منه وينفرون، ثم كان هذا الحكم سفاهة من غير علم ولا دليل.

ويرى الإمام الرازى أن العرب إنما أطلقوا لفظ البنات، لأن الملائكة لما كانوا مستترين عن العيون أشبهوا النساء فى الاستتار، فأطلقوا عليهم لفظ البنات.

وأيضاً قرص الشمس يجرى مجرى المستتر عن العيون بسبب ضوئه الباهر ونوره القاهر، فأطلقوا عليه لفظ التأنيث^(٢).

ويبدو أن هناك اتجاهأ آخر فى قتل الأولاد تمثل فى النذر للأصنام وتقديمتهم قرايين لها.. ويحمل على ذلك ما ورد من قصة عبد المطلب حين لقي من قريش ما لقي عند حفرة زمزم، فنذر لئن ولد له عشرة نفر ثم بلغوا معه حتى يمنعوه ليذبحن أحدهم عند الكعبة.

وسبب ذلك^(٣): أن عبد المطلب أمر فى المنام بحفر زمزم، ووُصف له موضعها، وكانت جرهم قد غلبت آل إسماعيل على مكة، وملكوها زماناً طويلاً، ثم أفسدوا فى حرم الله.

فوقع بينهم وبين خزاعة حرب، وخزاعة من قبائل اليمن، من أهل سبأ، ولم يدخل بينهم بنو إسماعيل، فغلبتهم خزاعة، ونفت جرهما من مكة.

وكانت جرهم قد دفنت الحجر الأسود والمقام وبئر زمزم، وظهر بعد ذلك قصى بن كلاب على مكة، ورجع إليه ميراث قريش، فأنزل بعضهم داخل مكة - وهم قريش الأباطح - وبعضهم خارجها - وهم قريش الظواهر - فبقيت زمزم مدفونة إلى عصر عبد المطلب.

(١) سورة الزخرف، الآية ١٩.

(٢) التفسير الكبير ج ٢٠، ص ٥٤.

(٣) مختصر سيرة الرسول للشيخ محمد بن عبد الوهاب، ص ٦٠، طبعة جامعة الإمام محمد بن سعود.

فرأى فى المنام موضعها فقام يحفر، فوجد فيها سيوفاً مدفونة وحلياً، وغزالا من ذهب مشتملاً بالدرّ، فعلقه عبد المطلب على الكعبة، وليس مع عبد المطلب إلا ولده الحارث، فنازعتة قريش، وقالوا له: أشركنا، فقال: ما أنا بفاعل، هذا أمر خُصّصت به، فاجعلوا بينى وبينكم من شئتم أحاكمكم إليه.

فنذر حيثنذ عبد المطلب لئن آتاه الله عشرة أولاد وبلغوا أن يمنعوه، لينحرن أحدهم عند الكعبة.

فلما تموا عشرة، وعرف أنهم يمنعونه أخبرهم بنذره فأطاعوه، وكتب كل واحد منهم اسمه فى قدح وأعطوا القداح قيّم هبل - وكان هو الذى يجيل القداح.

فخرج القدح على عبد الله، وأخذ عبد المطلب المدية ليذبحه، فقامت إليه قريش من ناديها فمنعوه، فقال: كيف أصنع بنذرى؟ فأشاروا عليه أن ينحر مكانه عشراً من الإبل، فأقرع بين عبد الله وبينها ف وقعت القرعة عليه، فاغتم عبد المطلب، ثم لم يزل يزيد عشراً عشراً، ولا تقع القرعة إلا عليه، إلى أن بلغ مائة، ف وقعت القرعة على الإبل، فنحرت عنه، فجرت سنة.

وروى عن النبى ﷺ أنه قال: (أنا ابن الذبيحين)^(١) يعنى إسماعيل عليه السلام وأباه عبد الله.

ثم ترك عبد المطلب الإبل لا يردّ عنها إنساناً، فجرت الدية فى قريش والعرب مائة من الإبل وأقرّها رسول الله ﷺ.

ومهما يكن من أمر فإن القرآن المجيد قد ذكر هذا الواقع الأليم للعرب وسفهم على قتل أولادهم.

وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال: إذا سرّك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين والمائة من سورة الأنعام إلى قوله: «قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم وحرّموا ما رزقهم الله افتراءً على الله، قد ضلوا وما كانوا مهتدين»^(٢).

(١) قال محققو الكتاب: الحديث رواه الحاكم فى مستدركه بلفظ أن أعرابياً قال للنبى ﷺ: يا ابن الذبيحين كما فى كشف الخفا عن المقاصد.

وأقول: وروى ابن جرير حديثاً قريباً فيه أن رجلاً جاء إلى النبى ﷺ وقال: يا رسول الله عدّ على مما آفاه الله عليك يا ابن الذبيحين. فضحك رسول الله ﷺ، راجع هذا والآثار الواردة فى الذبيح الأول فى تفسير ابن كثير، ج ٤، ص ١٧

(٢) سورة الأنعام الآية ١٤٠

وساق الإمام القرطبي في تفسيره هذه الواقعة^(١).

روى أن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ كان لا يزال مغتماً بين يدي رسول الله ﷺ.

فقال له رسول الله: مالك تكون محزوناً؟!

فقال: يا رسول الله، إني أذنبت ذنباً في الجاهلية فأخاف أن لا يغفره الله لي وإن أسلمت...!!

فقال له: أخبرني عن ذنبك.

فقال: يا رسول الله، إني كنت من الذين يقتلون بناتهم، فولدت لي بنت فتشفعت إلى امرأتى أن أتركها، فتركها حتى كبرت وأدركت، وصارت من أجمل النساء، فخطبوها، فدخلتني الحمية ولم يحتمل قلبي أن أزوجه أو أتركها في البيت بغير زوج. فقلت للمرأة: إني أريد أن أذهب إلى قبيلة كذا وكذا في زيارة أقربائي فابعثها معي.

فسرت بذلك وزيتها بالثياب والحلى، وأخذت على الموائيق بأن لا أخونها. فذهبت بها إلى رأس بئر، فنظرت في البئر، ففطنت الجارية أنني أريد أن ألقياها في البئر فالتزمتني وجعلت تبكي وتقول: يا أبت، أي شيء تريد أن تفعل بي...؟! فرحمتها، ثم نظرت في البئر فدخلت على الحمية، ثم التزمتني وجعلت تقول: يا أبت، لا تضيع أمانة أمي...!!

فجعلت مرة أنظر في البئر، ومرة أنظر إليها فأرحمها، حتى غلبني الشيطان، فأخذتها وألقيتها في البئر منكوسة، وهي تنادي في البئر: يا أبت قتلتنى...!! فمكثت هناك حتى انقطع صوتها فرجعت..

فبكى رسول الله ﷺ وأصحابه وقال: (لو أمرت أن أعاقب أحداً بما فعل في الجاهلية لعاقبتك).

* * *

(١) الجامع لأحكام القرآن، ج ٧، ص ٩٧.

٣- قانون الغاب:

عاش العرب فى جزيرتهم بلا قانون ولا شريعة إلا ما تمليه ظروف الزمان والمكان؛ ووقعت بينهم حروب ومنازعات أهلكت الحرث والنسل بلا سبب معقول ولا غاية نبيلة، وتسلط عليهم الأقوياء منهم غلبة وقهراً..

وتحدث الروايات أن كليب بن ربيعة بلغ من بغيه أنه كان يحمى مواقع السحاب فلا يرعى حماءه، وإذا جلس لا يمر أحد بين يديه إجلالاً له، ولا يحتبى^(١) أحد فى مجلسه غيره، ولا يغير إلا بإذنه، ولا تورد إبل أحد مع إبله، ولا توقد نار مع ناره، ولم يكن بكرى ولا تغلبى يجير رجلاً ولا بعيراً، أو يحمى حمى إلا بأمره، وكان يجير على الدهر فلا تخفر ذمته وكان يقول: وحش أرض كذا فى جوارى فلا يهاج..!!

وكان هو الذى ينزل القوم منازلهم ويرحلهم، ولا ينزلون ولا يرحلون إلا بأمره. وقد بلغ من بغيه أن اتخذ جرو كلب، فكان إذا نزل منزلاً به كلاً قذف ذلك الجرو فيه فيعوى، فلا يرعى أحد ذلك الكلاً إلا بإذنه.

وكان يفعل هذا بحياض الماء، فلا يردها أحد إلا بإذنه أو من آذن بحرب.. وكان يحمى الصيد فيقول: صيد ناحية كذا وكذا فى جوارى، فلا يصيد أحد منه شيئاً.

من أجل ذلك ضرب به المثل فى العز فقيل: أعز من كليب وائل..!! وكان هذا الطاغية سبباً فى حرب أهلية استمرت أربعين عاماً بين بكر وتغلب ابنى وائل، عرفت فى التاريخ بحرب البسوس!! فقد تزوج كليب جلييلة بنت مرة، وذات يوم دخل عليها قائلاً: هل تعلمين على الأرض أمنع منى ذمة؟!

فسكتت، فأعادها ثانية وثالثة، فقالت: نعم أخى جساس!! فأسرّها فى نفسه، ومضت مدة، وبينما هى تغسل رأسه وتسرحه قال لها: من أعز وائل؟!

(١) احتبى بالثوب: اشتمل أو جمع بين ظهره وساقيه بعمامة ونحوها.

قالت: أخوای جساس وھمام...!!

فنزع رأسه من يدها وخرج، فرأى فصیل ناقة لخالتها البسوس، فرماه بقوس وقتله، ثم مرت عليه إبل جساس وفيها ناقة البسوس فأنكرها وقال: ما هذه الناقة؟ قيل له: لخالة جساس.

فقال: أو بلغ من أمر ابن السعدية أن يجير علىّ بغير إذن؟!. ارم ضرعها يا غلام.

فأخذ القوس ورمى ضرع الناقة، فاختلط دمها بلبنها.

هنا بدأت عملية الثأر لذلك الفصيل وتلك الناقة...!!

فأغار جساس على كليب زوج أخته وطعنه برمح، وأثناء احتضاره طلب بعضاً من الماء، فنزل إليه عمرو ابن عم جساس وأجهز عليه. فضرب به المثل القائل: المستجير بعمرو عند كربته كالمستجير من الرمضاء بالنار وتوالت الأحزان، وغرست الأحقاد، واقتتل الفريقان قتالاً مريراً، أهلك الحرث والنسل.

• • •

وإذا انتقلنا إلى يثرب وفيها الأوس والخزرج نجد أن الحروب قد دمرتهم في الجاهلية، وكان من أشهر حروبهم حرب سمير، وحرب كعب، وحرب حاطب، ويوم بعاث.

فحرب سمير مثلاً نشبت لاختلافهم حول: من أعز أهل يثرب؟!

وذلك حين قدم رجل من غطفان معه فرس، ووقف في سوق بني قينقاع قائلاً: ليأخذ هذا الفرس أعز أهل يثرب...!!

فلما كثر الكلام أقبل الرجل ودفع الفرس إلى مالك بن العجلان الخزرجي. ونحمس رجل حليف له فتعقبه سمير بن يزيد الأوسي وقتله، وبدأت الحرب بين الأوس والخزرج.

• • •

إن العجب ليشند بالإنسان العاقل حين يتصفح أسباب الحروب في الجاهلية.

إنها بدايات حقيرة ونهايات مؤلة مروعة...! اوقد نيه القرآن المجيد إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (١).

وبلغ من عمق المأساة أن اخترعوا النسيء، وهو تأخير حرمة شهر المحرم إلى صفر، لحاجتهم إلى شن الغارات وطلب الثأر.. فما كادوا يصبرون عن القتال هذه الفترة الزمنية من ذى القعدة إلى المحرم، مع أن الله تعالى جعلها واحات أمن وأمان يفيء الناس إليها.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضِلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِّئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (٢).

لقد زين لهم الشيطان القتال في الأشهر الحرم، وعرف في تاريخ العرب حروب الفجار بين كنانة وقيس لأنهم فجروا فيها واستحلوا المحارم بينهم.

وأول فجار وقع في أحد مواسم الحج بعكاظ، حين جلس بدر بن معشر الغفاري، وجعل يتناول على الناس ويقول:

نحن بنو مدركة بن خندف من يطعنوا في عيينه لا يَطْرَفِ
ومن يكونوا قومَه يُغَطِّفُ (٣) كأنهم لجة بحر مُسْدِفِ (٤)

ثم مد رجله وقال: أنا أعز العرب، فمن زعم أنه أعز مني ليضربها بالسيف...!!
فوثب رجل من بني نصر بن معاوية فضربه بالسيف على ركبته فقطعها (٥).

* * *

(١) سورة آل عمران، الآية ١٠٣.

(٢) سورة التوبة، الآية ٣٧.

(٣) الغطريف والغطارف: السيد الشريف السخى.

(٤) المسدِف: المظلم.

(٥) لمعرفة تفاصيل هذه الحروب وغيرها يراجع كتاب (أيام العرب في الجاهلية) تأليف: محمد أحمد جاد المولى، وعلى محمد البجاوى، ومحمد أبو الفضل إبراهيم.

٤ - كلمة توضيح :

إن ما ذكرناه عن العرب فى جاهليتهم ليس إلا مثالا لما يجرى فى العالم أجمع.

ففى فارس كان مزدك - كما يقول الشهرستانى^(١) - ينهى الناس عن المخالفة والمباغضة والقتال، ولما كان أكثر ذلك إنما يقع بسبب النساء والأموال، أحلّ النساء وأباح الأموال، وجعل الناس شركة فيهما كاشتراكهم فى الماء والنار والكلأ.

وفى الهند ساد نظام الطبقات الاجتماعية الشاذ، الذى قسم الناس إلى أربع طبقات:

١ - الكهنة وخلقوا من رأس براهيم.

٢ - الحراس والجنود ونشأوا من ذراعيه.

٣ - أرباب الحرف والصناعة وتكونوا من ساقيه.

٤ - الأرقاء وخرجوا من قدميه.

وعلى الصعيد العالمى دارت الحرب سجالات بين الفرس والروم، وشقى الناس بويلاتها، وتسلبت على الشعوب أكاسرة وقياصرة أذاقوهم الهوان! وأصبح الناس بين حاكم طاغية وشعب مستضعف، وعمّ العالم فساد أخلاقى، وظلم اجتماعى، واضطهاد دينى.

وأصدق وصف لحال العالم قبيل الإسلام ما جاء فى القرآن المجيد..

﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾^(٢).

﴿وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾^(٣).

فالظاهرة العامة تمثلت فى هذه الاتجاهات المنحرفة، ولا ينفى ذلك أن هناك أضواء خافتة ظهرت فى حياة هؤلاء البشر.

(١) الملل والنحل، ج ١، ص ٢٤٩.

(٢) سورة الجمعة، الآية ٢، وسورة آل عمران، الآية ١٦٤.

(٣) سورة آل عمران، الآية ١٠٣.

فالحنفاء بحثوا عن الدين الصحيح، وعرفوا أن الحق وراء هذه الأصنام والأوثان، وأقسم قس بن ساعدة الإيادي: أن لله ديناً هو أرضى من دينكم هذا...!!

وهناك من أحيا الموءودة مثل زيد بن عمرو بن نفيل وصعصعة بن ناجية، ومنهم من أحب مكارم الأخلاق، حتى قال حاتم الطائي:

فلا الجود يفني المال قبل فنائه ولا البخل في مال الشحيح يزيد
فلا تلتمس مالا بعيش مقتر لكل غد رزق يعود جديد

وقال عنترة:

وأغضُّ طرفي إن بدت لي جارتي حتى يوارى جارتى مأواها

واجتمع البعض في دار عبد الله بن جدعان، وتعاهدوا على نصرة المظلوم، وعُرف ذلك بحلف الفضول.

فهذه اتجاهات فردية ليس لها من قوة التأثير ما يجعلها ظاهرة اجتماعية.. وليس لها من صحة القصد وسلامة النية ما يجعلها مذهباً أخلاقياً له دعائمه الفكرية..

والأمثال العربية في مجموعها تؤكد هذا المعنى، فهي مرتبطة بشخص واحد يضرب به المثل، ولذا جاء في صحيح مسلم أن عائشة رضى الله عنها قالت: (يا رسول الله، إن ابن جدعان كان يطعم الطعام ويقرى الضيف، فهل ينفعه ذلك يوم القيامة؟). فقال: لا، إنه لم يقل يوماً: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين).

وروى الإمام أحمد أن عدي بن حاتم الطائي قال: يا رسول الله، إن أبى كان يصل الرحم، ويفعل ويفعل، فهل له في ذلك؟ يعني من أجر.

قال: إن أباك طلب شيئاً فأصابه...!!

وفي رواية: إن أباك أراد أمراً فأدركه...!!

يعنى الذكر..

وبعد - فالناس في ضرورة كبرى إلى معرفة معالم الأخلاق الفاضلة والحياة الإنسانية الراشدة.

وهم فى أمس الحاجة إلى قانون الحق والواجب فى العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

والعقل الإنسانى قديماً وحديثاً قاصر عن أن يحيط بقانون العمران البشرى..

والخالق وحده هو أعلم بخلقه..

والله وحده هو أرحم بعباده..

ولا بد لدنيا الناس من دين الله..

وصدق الله حيث يقول: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (١٦٤) ﴿١﴾.

* * *

(١) سورة آل عمران، الآية ١٦٤.

الفصل الثالث

المعجزة الكبرى

- التحدى بالقرآن
- تذوق البيان القرآنى
- وجوه الإعجاز القرآنى
 - الإعجاز البيانى
 - الإعجاز العقدى
 - الإعجاز التشريعى
 - الإعجاز العلمى
 - الإخبار بالغيب

المعجزة الكبرى

(أ) التحدى بالقرآن :

القرآن الكريم هو المعجزة الكبرى للرسول ﷺ وبه وقع التحدى للثقلين
الإنس والجن.

إن التحدى للعرب وقع فى مكة والمدينة، وأعلنه القرآن مرات كثيرة، وطالبهم
بالاستعانة بمن شاءوا من علماء وحكماء وفصحاء، ففى سورة الإسراء يقول:
﴿ قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ
بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ (١).

ثم خفف القدر المتحدى به فقال:
﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ
مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (١٣) فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ مَا أُنْزِلَ بِهِ لَمْ
يَكُنْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ (٢).

ثم تنزل لهم فى التحدى فقال:
﴿ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ
وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٣٧) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا
بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٣).
هذه الآيات مكية نزلت قبل الهجرة ثم ظل التحدى قائما فى المدينة بعد
الهجرة، فقال تعالى فى سورة البقرة:

﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا
شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٤).

(١) سورة الإسراء آية ٨٨. (٢) سورة هود الآيتان ١٤، ١٤.

(٣) سورة يونس الآيتان ٣٧، ٣٨. (٤) سورة البقرة الآية ٢٣.

إن التحدى العام للناس جميعا طال على عمر الرسالة كلها ثلاثا وعشرين سنة، وجعله الله حجة لصدق النبوة، فلماذا اتجهوا إلى حمل السلاح وخوض المعارك ووقوعهم أسرى وقتلى والأمر ميسور لو استطاعوا المعارضة؟!

إن الثابت والواقع والذى لا يقبل الريب أن الظاهرة القرآنية أوقعتهم فى ذهول، وجعلتهم حيارى يتخبطون فى أحكامهم عليها، وحكى القرآن المجيد نمطاً من هذا الخلط الذى شغل بالهم.

فتارة يدعون القدرة على المعارضة:

﴿وَإِذَا تَتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (١).

وتارة يتجهون فى ادعاءاتهم إلى شخصية الرسول الكريم:

﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ (٢).

وتارة يستبد بهم التفكير فلا يصدر عنه إلا المتناقضات:

﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤) إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ (٣).

إن العرب حارت عقولهم أمام الظاهرة القرآنية، وفى مواضع تفوق الحصر تتجلى هذه الظاهرة فى تحد من نوع آخر، إنه الوصف للقرآن بالعظمة والصدق، والوصف بالعزة والرفعة، والوصف بالاستمرار والخلود..

قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ (٤).

﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (٤١) لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِن خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (٥).

(٢) سورة الصافات الآية ٣٦.

(١) سورة الأنفال الآية ٣١.

(٤) سورة الحجر الآية ٨٧.

(٣) سورة المدثر الآيات ١٨ : ٢٥.

(٥) سورة فصلت الآيتان ٤١، ٤٢.

﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ (١).

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (٢).

فهل للعرب أن يفاخروا أو ينافسوا؟!

لا موقف لهم ولا تعليل لمعجزهم إلا أنهم ألقوا آباءهم ضالين فهم على آثارهم يهرعون.

لقد تعدد أسلوب القرآن في تحدى العرب فوصف من كذب به بأنه أصم، وأبكم، وأعمى، وفي الظلمات ليس بخارج منها، وأضل من الأنعام، وشر من الدواب، وله فى الآخرة نار جهنم لا يموت فيها ولا يحيا.. فما كان أيسر للعرب أن يعارضوا القرآن لو استطاعوا ليزيلوا عن أنفسهم هذه النقائص ويريحوا أفتدتهم من هذا العناء.

لقد أكد القرآن فى أسلوب معجز أنهم عاجزون عن المعارضة وقال: ﴿فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ (٣).

فالتعبير بقوله «ولن تفعلوا» يفيد تأكيد نفى المستقبل.. وهذا هو متهى التحدى لهم والإحباط من جانبهم..

وقد يتوهم البعض أن التحدى القرآنى موجه للعرب فقط فما بال الأمم غير الناطقة بالعربية..؟!

وهذا وهم كبير فإن التحدى لأهل الذكر والاختصاص ينسحب على غيرهم من باب أولى، ومن شهد له الأطباء أو علماء الفضاء باختراع معين فاق به أقرانه لا يضيره أن يعترض عليه جاهل من عامة الناس.

إن التحدى القرآنى موجه إلى العالمين فى شخص الناطقين بالعربية، فإذا عجز العرب وهم أهل اللغة وأرباب فصاحتها والعارفون بأسرارها فقد لزم الجميع الحجة وقام عليهم الدليل.

(١) سورة الأنبياء آية ٥٠.

(٢) سورة الحجر آية ٩.

(٣) سورة البقرة آية ٢٤.

ومن أبى فليعارض وليقدم ما يثبت به معارضته، وسيعلم حينئذ أنه يعيش في سراب فكرى وظلام عقدى ولا نجاة له إلا في نور القرآن.

ب — تذوق البيان القرآنى:

من المقطوع به أن القرآن المجيد نزل مفرقا طوال مدة الرسالة التى تقدر بثلاث وعشرين سنة، منها ثلاث عشرة سنة فى مكة، وعشر سنوات فى المدينة، وذلك فى مناسبات شتى وأحداث بعيدة وقضايا متفرقة، وكان إذا نزلت آية أو آيات يقول الرسول ﷺ ضعوها فى مكان كذا من سورة كذا.

ومع هذا الانفصال الزمنى نجد القرآن العظيم محكم الأسلوب، قوى الاتصال، أخذنا بعضه برقاب بعض فى سورته وآياته، فى انسجام ووحدة وترابط كأنما نزل جملة واحدة، وماذا لك إلا لأنه تنزيل رب العالمين..

وعندما ارتاب المشركون فى تنجيم القرآن وتفريقه نزل الوحي الإلهى مبينا للحكمة فقال:

﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ٥﴾ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ١﴾.

وفى نفس السورة يحكى أيضاً:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ٣٣﴾ (٢)

وفى سورة أخرى يوضح مزيداً من حكمة تنجيده وتفريقه فيقول:

﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا ٣﴾.

وهكذا كان ما اتخذوه سبباً للطعن حجة عليهم، فإنهم عجزوا عن أن يأتوا بنجم واحد من نجومه، وتحداهم القرآن بأقصر سورة منه فكيف لو نزل جملة واحدة؟!

(٢) سورة الفرقان الآيتان ٣٢، ٣٣.

(١) سورة الفرقان ٥، ٦.

(٣) سورة الإسراء آية ١٠٦.

ومن حكمة الله تعالى فى البيان القرآنى أنه مع بلاغته العظمى وإعجازه اللغوى فإنه ميسر للفهم، قريب للعقل، واضح الدلالة، قوى التأثير ويستطيع كل إنسان مهما كان ذكاؤه أن ينتفع بهدايته.

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ (١).

إن القرآن المجيد قد تتركب من جنس الكلمات التى يتكلم بها العرب ومن نفس الحروف التى ينطقونها. ومع ذلك فقد وقف العرب مشدوهين أمام الإعجاز البيانى للقرآن، ولعل هذا هو أحد الأسرار التى يرمز إليها القرآن فى فواتح بعض سورة مثل: ألم، أ، ص، ق، ن.. الخ.

ولعلنا نذكر أن إسلام عمر بن الخطاب كان من أثر تذوق لبيان القرآن حين سمعه فى دار أخته زوجة سعيد بن زيد، عندما دخل عليهما للبطش بهما لعلمه بإسلامهما، فما هى إلا لحظات سمع فيها القرآن من سورة طه فاهتز قلبه لجلاله وإعجازه فقصده إلى مجلس الرسول ﷺ وشهد شهادة حق بأن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله.

وقد أدرك زعماء الشرك فى مكة هذا الأثر العظيم للقرآن فخافوا على أهلهم وحاولوا بكل وسيلة منع الأذان من سماعه، وحكى القرآن ذلك فى قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٢).

وسجل البخارى فى صحيحه عن عائشة رضى الله عنها قالت:

لما ابتلى المسلمون خرج أبو بكر مهاجرا نحو أرض الحبشة، حتى إذا بلغ برك الغماد - مكان على خمسة أميال من مكة إلى جهة اليمن - لقيه ابن الدغنة وهو سيد الفارة - قبيلة مشهورة - فقال:

أين تريد يا أبا بكر؟

فقال أبو بكر: أخرجنى قومى فأريد أن أسبح فى الأرض وأعبد ربى.

(١) سورة القمر آية ١٧.

(٢) سورة فصلت آية ٢٦.

فقال ابن الدغنة: فإن مثلك لا يُخْرَج ولا يُخْرَج، إنك تكسب المعدوم وتصل الرحم وتحمل الكل وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق، فأنا لك جار، ارجع واعبد ربك.

فرجع أبو بكر وارتحل معه ابن الدغنة وطاف على أشراف قريش يخبرهم بضمائه لجوار أبي بكر فقالوا:

مر أبا بكر فليعبد ربه في داره فليصل فيها وليقرأ ما شاء، ولا يؤذينا بذلك ولا يستعلن به فإننا نخشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا.

فقال ذلك ابن الدغنة لأبي بكر، فلبث أبو بكر بذلك يعبد ربه في داره ولا يستعلن بصلاته، ولا يقرأ في غير داره، ثم بدا لأبي بكر فابتنى مسجداً بفناء داره، وكان يصلى فيه ويقرأ القرآن فينقذ عليه نساء المشركين وأبنائهم وهم يعجبون به وينظرون إليه، وكان أبو بكر رجلاً بكاء لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن، وأفرع ذلك أشراف قريش من المشركين فأرسلوا إلى ابن الدغنة فقدم عليهم فقالوا: إنا كنا أجرتنا أبا بكر بجوارك على أن يعبد ربه في داره، فقد جاوز ذلك فابتنى مسجداً بفناء داره، فأعلن الصلاة والقراءة فيه، وإنا قد خشينا أن يفتن نساءنا وأبناءنا، فانه فإن أحب أن يقتصر على أن يعبد ربه في داره فعل، وإن أبى إلا أن يعلن بذلك فسله أن يرد إليك ذمتك، فإننا قد كرهنا أن نخفرك ولسنا مقرين لأبي بكر الاستعلان.

فأتى ابن الدغنة إلى أبي بكر، وقص عليه رأى قريش، فقال له أبو بكر فإني أرد إليك جوارك وأرضى بجوار الله عز وجل.

وساق ابن إسحق قصة استماع قريش إلى قراءة النبي ﷺ فقال:

إن أبا سفيان بن حرب، وأبا جهل بن هشام، والأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفي حليف بنى زهرة، خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلى من الليل في بيته، فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع فيه، وكل لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فتلاوموا.

وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً، ثم انصرفوا، حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه، فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق فقال بعضهم لبعض مثل

ما قالوا أول مرة، ثم انصرفوا، حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه، فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق فقال بعضهم لبعض:

لا نبرح حتى نتعاهد أن لا نعود، فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا، فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه، ثم خرج حتى أتى أبا سفيان في بيته فقال:

أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد؟ فقال يا أبا ثعلبة والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها.

قال الأخنس: وأنا والذي حلفت به كذلك، ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل، فدخل عليه بيته فقال: يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد؟

فقال: ماذا سمعت؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاذينا على الركب، وكنا كفرسى رهان قالوا منا نبى يأتيه الوحي من السماء...!!

فمتى ندرك مثل هذه، والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقها!!^(١).

(ج) وجوه الإعجاز القرآني:

وجوه إعجاز القرآن متعددة متجددة على مدى الزمان، ونوجزها فيما يلي:

١ - الإعجاز البياني.

٢ - الإعجاز العقدي.

٣ - الإعجاز التشريعي.

٤ - الإعجاز العلمي.

٥ - الإخبار بالغيب.

وقد حظيت هذه الجوانب بدراسات وافية قام بها علماء أجلاء قديماً وحديثاً، ونحاول هنا أن نقدم إشارات يسيرة حول هذه الجوانب.

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج ١ ص ٣١٥.

الإعجاز البياني

هو النظم البديع والفصاحة البالغة والمعنى الراقى، وهذا النوع من الإعجاز هو المقصود عند الإطلاق لأنه متغلغل فى كل سور القرآن وآياته.

ومن أشهر الكتب التى ألفت فى هذا الجانب كتاب «إعجاز القرآن» لأبى بكر الباقلانى (ت ٤٠٣ هـ)، وكتاب «دلائل الإعجاز» لعبد القاهر الجرجانى (ت ٤٨١ هـ)، وكتاب «النبأ العظيم» للدكتور محمد عبد الله دراز (ت ١٩٥٨ م).

وقد ذكر العلماء مجموعة خصائص للأسلوب القرآنى المعجز نفتبس منها ما يلى:

الخاصة الأولى:

النظام الصوتى البديع الذى قسمت فيه الحركة والسكون تقسيما منوعاً، ووزعت فى تضاعيفه حروف المد والغنة توزيعاً بالقسط يساعد على ترجيع الصوت به..

إنه ليس بأنغام الموسيقى ولا بأوزان الشعر ولكنه شىء آخر فى لحن متنوع متجدد يأخذ بأوتار القلوب ولا يخفى على أحد ممن سمع القرآن حتى ولو كان غير عربى.

إن الجمال الصوتى للقرآن راجع إلى الظاهرة الفريدة فى ترتيب حروفه وكلماته التى تخضع للإخفاء أو الإظهار أو الهمس أو الجهر وغير ذلك مما هو معروف فى علم التجويد.

الخاصة الثانية:

القصد فى اللفظ والوفاء بحق المعنى وهما غايتان لم يجتمعا لكلام بشر، فالذى يعتمد إلى ادخار لفظه يحيف على المعنى قليلاً أو كثيراً، والذى يعتمد إلى الوفاء بحق المعنى وتحليل عناصره وإبراز كل دقائقه لا يجد بداً من أن يمد فى كلامه مدّاً.

وقد اجتمعت هاتان الغايتان على تمامهما فى القرآن الكريم فنجد بيان القرآن على قدر حاجة النفس فلا إسراف فى اللفظ ولا إجحاف، ولا نقص فى عناصر المعنى ولا شذوذ، فهو محاسن متوالية وبدائع تترى.

الخاصة الثالثة:

خطاب العامة وخطاب الخاصة، وهاتان غايتان متباعدتان، لكل منهما أساليبه ومعانيه، فالعامة تحتاج إلى الواضح المكشوف، والخاصة يكفيها الإشارة واللمحة. وليس فى طاقة البشر أن يقدموا أسلوباً واحداً يوجه إلى العلماء والجهلاء، وإلى الأذكىاء والأغبياء، وإلى السوقة والملوك.. ولكن القرآن وحده يراه البلغاء أوفى كلام بلطائف التعبير، ويراه العامة أحسن كلام وأقربه إلى عقولهم.

الخاصة الرابعة:

إقناع العقل وإمتاع العاطفة أسلوبان متميزان، ولقد بات العرف العام يقسم الأسلوب إلى علمى وأدبى، فنجد فى كلام العلماء جفاء لا يحرك النفوس. ونجد فى كلام الأدباء عقم لا يقنع العقول، ولا يتسنى لإنسان أن تأتى كل جملة من كلامه جامعة للغايتين معاً، ولكن القرآن العظيم وهو فى معمعان الاستدلال العقلى على البعث والإعادة فى مواجهة المنكرين يسوق استدلاله سوقاً يهز القلوب هزاً ويمتع العاطفة إمتاعاً.. قال تعالى:

﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ (٦) وَالْأَرْضِ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧) تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (٨) وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (٩) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ (١٠) رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ (١).

الخاصة الخامسة:

براعة القرآن فى تصريف القول وثروته فى أفانين الكلام، فهو يورد المعنى الواحد بألفاظ وطرق مختلفة لها مناسبتها بالسياق البيانى، وعلى سبيل المثال فإن التعبير القرآنى عن إباحة الفعل جاء بالطرق التالية:

(١) سورة ق الآيات ٦ : ١١.

- ١ - التصريح فى جانبه بمادة الحل نحو ﴿أَحِلَّتْ لَكُمْ بِهِيْمَةُ الْأَنْعَامِ﴾^(١).
- ٢ - الأمر به مع قرينة صارفة عن الطلب نحو ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾^(٢).
- ٣ - نفى الإثم عن الفعل نحو ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٣).
- ٤ - نفى الحرج عنه نحو ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ﴾^(٤).
- ٥ - نفى الجناح عنه فى غير ما ادعى فيه الحرمة نحو ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا﴾^(٥).
أما ما ادعى فيه الحرمة فإن نفى الجناح عنه يصدق بوجوبه، نحو ﴿فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾^(٦).
- ٦ - إنكار تحريمه فى صورة استفهام نحو ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾^(٧).
- ٧ - الامتنان بالشىء ووصفه بأنه رزق حسن نحو ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾^(٨).

الخاصة السادسة:

الإجمال والبيان غايتان متقابلتان لا يجتمعان فى كلام واحد للناس، فالكلام إما مجمل وإما مبين، لأن الكلمة إما واضحة المعنى لا تحتاج إلى بيان وإما خفية المعنى تحتاج إلى بيان، ولكن القرآن وحده هو الذى انخرقت له هذه العادة فتسمع

(٢) سورة البقرة آية ١٨٧

(٤) سورة النور الآية ٦١.

(٦) سورة البقرة الآية ١٥٨.

(٨) سورة النحل آية ٦٧.

(١) المائدة الآية ١

(٣) سورة البقرة الآية ١٧٣.

(٥) سورة المائدة آية ٩٣.

(٧) سورة الأعراف آية ٣٢.

الجملة منه وإذا هي بيئة مجملة في آن واحد وذلك أنها واضحة المعنى وضوحاً يريح
النفس من عناء التنقيب والبحث لأول وهلة، فإذا أمعنت النظر فيها لاحت منها معان
جديدة كلها صحيح أو محتمل، وكلما أمعنت فيه النظر زادك من المعارف والأسرار
بقدر ما تصيب أنت من النظر وما تحمل من الاستعداد، على حد قول القائل:
يزيدك وجهه حسنا إذا ما زدته نظراً^(١).

(١) راجع كتاب النبأ العظيم للدكتور محمد دراز ص ١٠١ وكتاب مناهل العرفان في علوم القرآن
للشيخ محمد الزرقاني ص ٢٠٥.

الإعجاز العقدي

جاء القرآن المجيد بالتوحيد الخالص لله عز وجل في مواجهة انحرافات الوثنيين وتحريفات أهل الكتاب وضلالات الفلاسفة.

لقد كانت قضية الألوهية أخطر قضية واجهت الإنسان، وحارت فيها البشرية، فذهب الوثنيون إلى أصنام نحتوها بأيديهم وعبدوها زلفى إلى الله.

وذهب المجوس إلى وجود إلهين اثنين للكون، واحد للخير وآخر للشر.

وقالت اليهود عزيز ابن الله، وافتروا على الله الكذب وقتلوا الأنبياء والمصلحين.

وقالت النصارى المسيح ابن الله، وطمسوا نور عقولهم بعقيدة اللاهوت والناسوت، والخطيئة الموروثة، والصلب والفداء والقيامة من بين الموتى، وتوالت عليهم مآسى كرسى الاعتراف وصكوك الغفران ومحاكم التفتيش.

وضل الفلاسفة منذ المدارس الطبيعية الأولى في بلاد اليونان قبل الميلاد، وزعموا أن أصل الكون هو الماء أو التراب أو النار أو الهواء أو الجوهر الفرد أو العدد أو النغم..

وكان عالم الآلهة عند اليونانيين مأساة وملهاة عقلية، وملأت آلهة اليونان المزعومة الأرض والسما، فجعلوا لكل مظهر من مظاهر الكون إلهًا خاصًا، فللشمس إله، وللقمر إله، وللبحار إله.. ولكل فن إله، فللحكمة إله وللطب إله، وهناك آلهة للحرب والسلام وللخير والشر، حتى البغاء كان له في المجموعة نصيب.

وصاغ الأدب اليونانى القديم هذه الأساطير فى ملاحم شعرية.

وجاء أفلاطون (٤٢٨ ق.م - ٣٤٧ ق.م) ونادى بمثال المثل، فالعالم المادى هو ظلال لعالم آخر يسميه عالم المثل، وعلى قمته مثال المثل وهو الله عز وجل.

واخترع أرسطو (٣٨٤ ق.م - ٣٢٢ ق.م) نظرية المحرك الذى لا يتحرك فالعلم نشأ عن الله تعالى فيضاً، ويتحرك إليه شوقاً، ولا علاقة لله تعالى بهذا العالم خلقاً أو تدبيراً.

وعلى أبواب الفلسفة الحديثة وقف مونتاني (١٥٣٢ - ١٥٩٢م) ليعلن أن الجهل المطبق بداية العلم وأن جهل العالم هو النهاية.

ثم كان «توماس هوبز» (١٥٨٨ - ١٦٧٩م) أول الماديين المحدثين الذى اتخذ من المادية مبدءاً لتفسير كل شيء، حتى الإحساس والحياة الفكرية والإرادة، وأنكر إمكان الاستدلال على وجود الله تعالى.

وتبنى الفيلسوف الألمانى كانت (١٧٢٤ - ١٨٠٤م) المذهب النقدى الذى ادعى استحالة العلم الذى لا يستند إلى الحس، وزعم أن وجود الله وخلود الروح يعجز عنها العقل النظرى ويسلم بها العقل العملى.

وتعتقد الماركسية أن المادة أزلية أبدية، وهى سبب كل موجود وليس ثمة مكان لقوة أخرى فوق الطبيعة.

وقدم الفيلسوف الإنجليزى تشارلس دارون (١٨٠٩ - ١٨٨٢) نظرية فى أصل الأنواع تقوم على الانتخاب الطبيعى القائل بأن الحياة نشأت بمحض الاتفاق عبر سلسلة من التطورات المادية والعضوية، حتى كان الإنسان حلقة عليا فى سلسلة الموجودات..

ونادى الفيلسوف الألمانى فردريك نيتشه (١٨٤٤ - ١٩٠٠م) بموت الإله، ودعا إلى مجتمع العمالقة أو السوبرمان الذى يقوم على إرادة القوة بديلاً عن إرادة الحق.

إن هذا الحصاد الفكرى الطويل أثقل كاهل الإنسان وهوى به إلى مكان سحيق من الاضطراب والقلق والشذوذ والدمار.

إن الإسلام - وحده - هو الذى يقف شامخاً منادياً بالتوحيد الخالص لله رب العالمين، بلا طلاس للعقل، وبلا ذنب موروث، وبلا كهنوت أسود.

إن الجانب الإلهى فى الإسلام تحدده كلمات قصار، هى قمة الإعجاز وقوة التصوير، فى قوله تعالى:

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤)﴾.

ويلتقى على هذه العقيدة السمحة نداء العقل وصوت الفطرة وكرامة الإنسان.

ولعل فيما نقدمه من دراسات عقدية يجلى الإعجاز العقدى فى القرآن المجيد.

الإعجاز التشريعي

إن التشريع القرآني جمع مطالب الإنسانية الراشدة، وحقق أسمى ما ترنو إليه في العلاقات الدولية وسياسة الحرب والسلام، وبناء المجتمع اقتصادياً واجتماعياً وأخلاقياً. وتمتاز الشريعة الإسلامية بأمور منها:

١ - شرع الله منوط بمصلحة الإنسان، فحيثما توجد فثم وجه الله، والحلال مرتبط بالطيبات والحرام متعلق بالخبائث.. قال الله تعالى: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ (١).

٢ - نفى الحرج ملاحظ في التشريع، قال سبحانه ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ (٢)، وقال جل شأنه ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمُ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ (٣).

٣ - لا تكتفى الشريعة بالمظاهر العامة والشعارات الجوفاء، وإنما تتولى تأصيل مبادئها داخل النفس الإنسانية حتى ينبع سلوكك على مقتضى الإيمان يتسم بنبل الهدف وشرف المقصد، قال الله تعالى ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَاؤها وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ﴾ (٤).

٤ - لا كهانة في الإسلام ولا احتكار للتشريع، وإنما هناك علماء وفقهاء، وكل من لديه ملكة علمية، وفقه في الدين، وبصر بأحوال الناس، ويمتاز بصفاء الفهم فهو من أهل الاجتهاد، وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ (٥). وقوله تعالى ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٦).

ونسوق نموذجاً واحداً لهذا الإعجاز التشريعي، قد يعده البعض أمراً هيناً، لكنه جد خطير وله شأن عظيم في المجتمع، ألا وهو نظام الميراث في الإسلام.

(٢) سورة البقرة الآية ١٨٥.

(١) سورة الأعراف الآية ١٥٧.

(٤) سورة الحج الآية ٣٧.

(٣) سورة الحج الآية ٧٨.

(٦) سورة الأنبياء الآية ٧.

(٥) سورة التوبة الآية ١٢٢.

لقد كان الناس في الجاهلية لا يورثون النساء ولا الصبية بحجة أن الوارث لا يكون إلا من قاتل على ظهور الخيل وحاز الغنيمة...!!

ونسى هؤلاء أن الرجل إنما يجمع ثروته لنفسه وولده، وأن كدح المرء إنما هو لأجل أبنائه، ولا يسعد الإنسان العاقل إلا أن يكف أبنائه عن المسألة ويكفيهم مؤنة الحياة ومشاقها.

ولم يكن العالم يومئذ يعرف نظاماً عادلاً للميراث بل لا يكاد العالم قديماً ولا حديثاً يعرف نظاماً لتوزيع التركة يقوم على العدل المطلق مثل الإسلام.

إن توزيع التركة اليوم موكول لأهواء البشر، فقد يوصي الشخص بماله كله لعشيخته ويترك زوجته وأولاده، أو قد يوصي لأحد أبنائه ويدع الباقيين للحسرة والحقرة والضغينة، أو قد يجعله وقفاً على حيوان أليف ويترك ذوى قرباه يقاسون آلام الحياة.

وقامت نظم ترفض أن يكون الميراث من أسباب الملكية..!

ويتلفت الناس يمناً ويسرة، وتبحث العقائد والنظم شرقاً وغرباً، ولا يوجد غير الإسلام يقدم نظاماً للميراث يقوم على العدل المطلق، ويتضمن الحقوق ويصون حرمة النفس الإنسانية..

وقد جمع القرآن المجيد نظام الميراث الإسلامي في ثلاث آيات محكمات، آيتان منها متواليتان في سورة النساء هما:

﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَّمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١١) وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَّمْ يَكُنْ لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَّمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمْنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ

وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً^(١) أَوْ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتُ^(٢) فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرِ مُضَارٍ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ^(٣).

والآية الثالثة في آخر السورة وهي:

﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنْ امْرُؤٌ هَلَكَ^(٤) لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتُ^(٥) فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ^(٦)﴾.

وقد فصل القرآن هذا النظام تفصيلاً دقيقاً جمع فيه كل أطرافه، ويكاد يكون هذا التفصيل وقفاً على الميراث، فلا نجد عبادة من العبادات ولا لوناً من المعاملات حظي بهذه المكانة، فلم ينص القرآن على عدد ركعات الصلاة ولا مقادير الزكاة ولا كيفية الطواف والسعي، وأحيل كثير منها إلى البيان النبوي فقال عليه الصلاة والسلام «صلوا كما رأيتموني أصلي» وقال «خذوا عني مناسككم» وهكذا.

وما ذاك إلا لأن الميراث في الإسلام مرتبط ارتباطاً وثيقاً بحياة المسلم الدينية والدنيوية، فالاعتداء على الأموال من أكبر جرائم الإثم، والمال الحرام لا يقبل معه عمل، ولا يرفع معه دعاء، ولا تنفع منه صدقة.

وكان الوعيد شديداً في مخالفة هذا النظام بقدر ما كان الفوز عظيماً في تطبيقه والالتزام به، فقال جل شأنه عقب آيتي الميراث ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ^(١٣) وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ^(٧)﴾.

(١) الكلاله من لا ولد له ولا والد. (٢) أى لأم وليس شقيقاً ولا من الأب.

(٣) سورة النساء الآيتان ١١، ١٢. (٤) أى مات.

(٥) أى شقيقة أو لأب. (٦) النساء الآية ١٧٦.

(٧) سورة النساء الآيتان ١٣ : ١٤.

وإذا كان الميراث نظاماً مالياً، فإن الجانب الأخلاقي والاجتماعي فيه جد خطير، فهو يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالرحم والنسب، مما يؤكد حرص الإسلام الكبير على وشائج القربى وشرف العرض وسلامة الأسرة.

ونظام الوصية جائز في الإسلام وليس ممنوعاً ولكن له ضوابط حددها الشرع. فالوصية في حدود ثلث التركة، حتى لا ندع الورثة يتكففون الناس، وهي لغير وارث حتى يعم الانتفاع.

فإذا فقدت الوصية أحد الشرطين أو كليهما توقفت على إجازة الورثة فمن أوصى بما زاد على الثلث لا ينفذ منها إلا الثلث ويستأذن الورثة في الباقي فإن أجازوه فيها ونعمت وإلا فلا.

ومن أوصى بأى شيء ولو قل لوارث توقف التنفيذ على رأيهم^(١).

فالإسلام جعل للمسلم ثلث ماله يتصرف فيه عند الموت بما يحقق النفع العام ويصلح شأن المسلمين كافة أو ذوى قرباه غير الوراثين.

والوصية غير التبرع في حال الحياة والصحة فهذا جانب وذاك جانب آخر.. فالمقصود من الوصية هو نقل الملكية بعد موت صاحبها لمن يحدده المورث، أما أن وجود الإنسان في صحته وحياته ولو بماله كله فذلك اتجاه آخر قد يحمد منه ما يحمد، وقد يذم منه ما يذم تبعاً للنية والهدف، وظروف المتبرع، وملابسات الموقف ومقتضى الحال.

(٢) هذا هو رأى جمهور العلماء.

الإعجاز العلمى

الربط بين آيات القرآن المجيد وحقائق العلم الحديث قائم على قدم وساق، وهناك علماء أجلاء قاموا بالجمع بين الآيات القرآنية والآيات الكونية، وهناك مؤتمرات علمية على مستوى العالم الإسلامى لهذا الغرض الشريف، فالقرآن كون مقروء، والكون قرآن منظور.

وقد أطلق القرآن لفظ الآيات على نواميس الكون فى كثير من آياته.. قال الله تعالى ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٣) وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٤) وَاختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٥) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ (١).

كل ما ينبغى التنبيه عليه أننا يجب أن لا ننساق وراء كل فرض علمى، ونحاول أن ندلل عليه من القرآن المجيد، فالعلم المادى لا يعرف الكلمة الأخيرة، ومن الخطورة بمكان تفسير آيات القرآن بفروض لم تثبت، ولا زالت قيد البحث والتجربة، ولنحاذر ونحن نربط بين آيات القرآن ومكتشفات العلم الحديث، ولنتذكر أن القرآن - فى المقام الأول - كتاب هداية للضمير والسلوك والحياة، ويوم نصصح المسيرة العلمية لتبدأ باسم الله، وتستمر باسم الله نكون قد أخذنا بحظ وافر من الرقى والحضارة وحققنا السعادة الكاملة لبنى الإنسان.

ولعل حكمة بالغة يوحى بها هذا البدء الكريم للقرآن العظيم فى قوله تعالى ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (٢).

(١) سورة الجاثية الآيات ٣ : ٦ .

(٢) سورة العلق الآيات ١ : ٥ .

إن مراكز البحوث التجريبية فى العالم اليوم تتولى رعايتها وتوجيهها عقول مادية تنكرت لنعم الله عز وجل فى الخلق والتدبير، ورفضت الخشوع لله تعالى الذى منح الإنسان العقل، وكرمه بالعلم، وسخر له الكائنات.

لقد ظهرت نتائج رهيبة لأبحاث لا ترقب فى مؤمن إلا ولا ذمة، وظهر السلاح النووى والنيوترونى، والأقمار الصناعية للتجسس، واستنفدت الطاقات البشرية مالا وإنسانا فى الحروب والاستعداد للحروب، كما نشأت اتجاهات علمية تتنافى مع الأخلاق تمثلت فى بنوك حفظ الأجنة وتأجير الأرحام وغير ذلك.

هذا ومن أهم الكتب التى ظهرت فى مجال الإعجاز العلمى كتاب «التفسير العلمى للآيات الكونية فى القرآن» تأليف الأستاذ حنفى أحمد^(١).

وقد قام المؤلف بحصر وجمع الآيات عن الكائنات المنبثة فى سور الكتاب العزيز ثم رتبها وقسمها على حسب موضوعاتها، وذكر المؤلف مقدمة ذات أهمية بالغة جعلها فى فصلين:

الأول: رسالة القرآن والآيات الكونية.

الثانى: رسائل البحوث الفلكية وبعض نتائجها.

وقد التزم المؤلف بتفسير الآيات تفسيراً أميناً وفق مقتضيات اللغة وصحيح المنقول وآراء المفسرين ثم قام بالتعليق عليها ومقابلة القضايا القرآنية بالقضايا المناظرة لها فى حقائق العلم ونظرياته.

وجاء الكتاب فى بايين ولكل منهما فصول:

الباب الأول: خلق السموات والأرضين وتدبير الأمر فيهما، ويحوى خمسة فصول:

الأول: موجز خلق العالم المادى وتدبير الأمر فيه.

وساق آيات مثل قوله تعالى ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا

(١) طبعة دار المعارف سنة ١٩٨٠م.

تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴿١﴾.

الثاني: نيرات السماء أو النجوم والكواكب وحال الفضاء فيها.

وساق آيات مثل قوله تعالى ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ (٢).

وقوله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ (٣).

وقوله تعالى ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا﴾ (٤).

وخلال هذا الفصل تحدث عن الضياء والنور في الآيات، ومعنى النجم الثاقب والسكون الظاهري للنجوم، والمصابيح والسرّج ووجود أقمار متعددة مثل قمر الأرض واختلاف النجوم والكواكب في التكوين والصفات، وأهمية النجوم بالنسبة للكواكب. ثم تكلم عن آيات الشهب والحاصب أو الحجارة من سجيل.

الفصل الثالث: نشوء السموات والأرض.

وساق آيات مثل قوله تعالى ﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٥).

وقوله تعالى ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا (٢٧) رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا (٢٨) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (٢٩) وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (٣١) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (٣٢) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ (٦).

وتحدث هنا عن المادة الكونية الأولى التي تشبه الدخان ونظرية المدّ عن نشوء السيارات والتوابع في المجموعة الشمسية.

الفصل الرابع: بناء السموات بالقوى ونظام ترابطها.

(١) سورة السجدة الآيتان ٤، ٥.

(٢) سورة الفرقان الآية ٦١.

(٣) سورة يونس الآية ٥.

(٤) سورة نوح الآية ١٦.

(٥) سورة الأنبياء الآية ٣٠.

(٦) سورة النازعات الآيات ٢٧ : ٣٣.

وساق آيات مثل قوله تعالى ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾^(١)، وقوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾^(٢).

وتحدث هنا عن قوى التجاذب في بناء السماء، ونظام ترابط الأجرام ونظام تكوين البروج.

الفصل الخامس: تدبير الأمر في السموات والأرض بالتسخير بالحركة.

وساق آيات مثل قوله تعالى ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾^(٣).

وقوله تعالى ﴿وَأَيَّةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلَمُونَ﴾^(٣٧) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ^(٣٨) وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ^(٣٩) لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ^(٤٠). وتحدث هنا عن نظام تولد الليل والنهار.

وفي الباب الثاني ذكر فصلين تحدث فيهما عن خلق الأرض والقمر، واختلاف الليل والنهار وتصريف الرياح وتسخير السحاب وإحداث البرق والرعد والصواعق، ومد الأرض وإلقاء الرواسي بها، وتسخير الأنهار والبحار والفلك.

وفي نهاية الكتاب القيم جاءت الخاتمة في ست صفحات تلخص البحوث التي جاوزت أربعمائة صفحة.

وها هي ذى الخاتمة بنصها كما كتبها المؤلف جزاء الله خيراً.

إن لهذا الكتاب غرضاً مقصوداً وغاية محدودة بيتنها في كلمته الافتتاحية وتنحصر في دعوى أقامها وأرفق بها دليلها، وقدمها إلى محكمة الرأي العام يحده

(٢) سورة فاطر الآية ٤١.

(٤) سورة يس الآيات ٣٧ : ٤٠.

(١) سورة لقمان الآية ١٠.

(٣) سورة الأعراف الآية ٥٤.

الأمل بأن يجد أعضاؤها الكرام متسعاً من وقتهم الثمين لنظرها دون تأخير، وأن لا تضيق صدورهم بقراءة أو سماع دفاعها الطويل. لأنها دعوى كبرى تتصل بصالح الدين والدنيا.

ونص دعوى الكتاب هي أن رسالة القرآن قد أتت فيما أتت به بوصف شامل دقيق للعالم المادى فى صورة أصول وجوامع من العلم الصحيح: تارة بصريح النص وغالباً بإشارات فيه واضحة ومحدودة، وأن هذا العلم الدقيق لم يكن يعلمه أحد من الناس ولا كان فى مكنة أحد منهم أن يأتى بمثله لا قبل ظهور القرآن ولا بعده بقرون، إذ كانوا فى جهل مطبق وظلام حالك بحقيقة حال الكائنات، ثم ظهر العلم الحديث بينهم فى القرون الثلاثة الأخيرة، فكشف عن كثير من أسرار المخلوقات، وعجيب صنعها وتوجيهها بقدر ما قدر له من وسائل البحث العلمى الدقيق، ثم إذا به يقيم من نفسه شاهداً على صحة ما أتى به القرآن من قبله ولم يعارضه فى شىء منه، ولكنه فى الوقت نفسه لا يدري كيف أتى القرآن بهذا العلم، الذى معرفته منوطة بوسائل البحث الدقيق التى كانت مجهولة كل الجهل حتى وقت قريب.

هذا نص دعوى الكتاب، أما دفاعه عنها فقد قدم الشطر الأول منه فى جزئه الأول ممثلاً فى الآيات الكونية التى وصفت الخلق العام للسموات والأرضين. والخلق الخاص للأرض ووسائل إعدادها للحياة مرتبة ومقسمة إلى موضوعات محدودة، ويسر سبل الاطلاع عليه بمقدمة من فصلين، يحتاج إليها كثير من القراء والمستمعين له.

وجعل الكتاب هذا الدفاع على مرحلتين (الأولى): استخرج فيها وحصر المعانى العلمية التى تفيدها الآيات فى حدود ألفاظها، ثم وضعها فى صورة قضايا مستنبطة يسهل استيعابها وبحثها. والثانية: قابل فيها بين هذه القضايا ونظائرها من قضايا العلم الحديث مستشهداً به على صحة دعواه.

والمفروض أن القراء عند مطالعة هذه الخاتمة يكونون قد قرءوا بحوث الكتاب ودفاعه فى مرحلته الأولى، ثم استمعوا إلى المناظرة الشائقة بين قضايا وقضايا العلم وبذلك يكونون قد فرغوا من سماع شهود الإثبات، ويريدون بعد ذلك أن يستمعوا

إلى كلمة الدفاع النهائية فى صورة موجزة محدودة تبين صدق دعواه - كما يقول -
وتقضى على كل شك أو ريب فيها.

يا معشر القراء: إن هذه الكلمة النهائية إنما هى تلخيص لما قرأتم واستمعتم له
من البحث المفصل فى موضوعات الكتاب، ومن شهادة العلم فيه، وعرض ملخص
شامل له غير ضرورى، إذ الأغراض المقصودة منه متكررة مرات متعددة فى صور
مختلفة فى موضوعاته المختلفة ويكفى لتحقيقها عرض بعض نتائج البحث دون
جميعه نموذجاً له.

لذلك سأكتفى بعرض ملخص نتائج بحث الفصول الثلاثة الأولى من الباب
الأول، فأقول:

١ - إن قضايا هذا الفصل تبين مجموع تكوين العالم المادى من عوالمه الرئيسية وهى:
سموات سبع طباق غير أرضية النوع، وأرضون متعددة معها تشبه أرض
الإنسان، وخلق ثالث مجهول بينها ليس بسموات ولا أرضين، وتذكر الأرض
فى باقى الآيات بصيغة المفرد دائماً لحكمة فى التنزيل - وتبين معنى خلق العالم
فى ستة أيام، وتذكر أن للخلق سنة حكيمة تقوم على تدبير أمره بعد إيجاده - وأن
كائنات العالم غير الحى تبعاً لهذه السنة قد سخرت جميعها بعد خلقها ووجهت
بالعمل نحو الغاية التى خلقت من أجلها، وأن أول ما أجرى على الأرضين كان
إحداث تعاقب الليل والنهار عليها بسرعة فائقة أخذت فى النقص بعد ذلك كما
بيّنته آيات أخرى.

والعلم أيها السادة لم يقل بلغته أكثر من ذلك عن ملخص التكوين الأساسى
للعالم المادى ثم تسخير بعد وجوده. فياله من اتفاق عجيب!

٢ - وفصل القرآن ما أجمله فى الفصل الأول بآيات أخرى فى الفصول الأربعة التالية
له وفى الباب الأول بفصيليه ومباحثه.

فبين فى آيات الفصل الثانى أنواع الكائنات فى السموات، وقال إنها لنجوم
وكواكب وقمر الأرض ولم يذكر غيره من الأقمار لحكمة، وذكر معها الشهب، ثم

تحدث عن حال الضياء فى الأجسام حديث العلم الدقيق وخالف جهل الناس بحال الضياء لكى يعلمهم، فبين أن الضوء منه الذاتى وأسماء الضياء، ومنه المكتسب المعكوس وأسماء النور، ثم بين أن النجوم ضياؤها ذاتى وأن الكواكب والقمر ضياؤها مكتسب، فكشف بعض الشئ عن حقيقة حالها، ولكنه أضاف بإشارة قوية أن القمر ليس من الكواكب.

وزاد فى بيانه فذكر أن النجوم متحركة، وأنها ترى ساكنة بالنسبة بعضها لبعض؛ ثم جلا هذا التناقض فقال إنها على أبعاد فوق ما يتصوره العقل من الأرض فأشار بذلك إلى سبب رؤيتها ساكنة برغم أنها متحركة.

وأكد فى بعض الآيات أن النجوم مختلفة عن الكواكب فى التركيب وأنها أعظم شأنا منها فى بناء السماء، وصرح بأن النجوم منشأ الشهب، وأشار بوضوح إلى أنها حجارة مظلمة وأنها تصير ثاقبة أو مضيئة عندما تسير بسرعة نحو الأرض.

ثم جاء العلم ببحوثه الدقيقة وأيد صحة هذه البيانات ولم يعارضها فى شئ على الإطلاق. فما رأيكم أيها القراء فى ذلك؟

٣- وبين القرآن فى قضايا الفصل الثالث أصل العالم المادى، وسماه (دخاناً) ولم يسمه سحاباً أو هواء أو غباراً لكى يشير بذلك إشارات قوية عن حاله وتكوينه بما اتفق للدهشة الكبيرة فى مبادئه وما قاله العلم فى نظرياته المعتمدة عن الغاز الكونى الأول.

ثم أوضح كيف خلقت السموات غير الأرضية (أى النجوم) من المادة الدخانية فقال: إنها بنيت فأشار بذلك إلى تجزئة المادة الدخانية ثم تجميع أجزائها ثم ربط بعضها ببعض حتى صارت بناء من أجزاء أو أجرام مترابطة وقال إن سمكها رُفِعَ أى جعلت أجرامها مرتفعة القامة ضخمة الحجم، وأنها سويت، فوصف تكوينها وشكلها بكل ما يفيد معنى التسوية، وهذه بلاغة فى إيجاز جامع.

ثم وصف ما أجراه على أجرام السموات بعد تكوينها وتسويتها من المادة الدخانية حتى صارت نجوماً لوامع فى جملتين فحسب فقال: (وأغطش ليلها وأخرج ضحاها).

فبين بالأولى أن الأجرام لم يكن لها ظل أو ليل مظلم فجعل لها ظلاً وليلاً مظلماً، أو بعبارة أخرى كانت شفاقة ثم كشفها وأزال شفيفها، وبين في الثانية أن الأجرام مع تكثيفها أخرج منها ضياء يشبه ضياء الشمس في وقت الضحى.

وغنى عن البيان أن قوله بتكثيف الأجرام إشارة قوية إلى أنه جعلها تنكمش بعضها على بعض، وأن قوله بإخراج ضياء منها يشبه ضياء الشمس في وقت الضحى فيه إشارات قوية؛ فقلوه (أخرج) إشارة إلى أن ضياء الأجرام كَوْن في داخلها ثم أخرج إلى سطحها، وقوله (ضحها) فيه إشارتان واضحتان:

الأولى: أن هذا الضياء بعد خروجه إلى السطح كان يتقلب في اللون من الأحمر إلى البرتقالي، إلى الأصفر، إلى الأبيض، وأخيراً إلى الأبيض الأزرق، كما ينقلب ضوء الشمس بعد الشروق إلى وقت الضحى في نفوذه خلال الهواء فيرى أولاً أحمر ثم برتقالياً ثم أصفر حتى يصير أبيض أزرق.

الثانية: أن خروج هذا الضوء متقلباً في لونه من الأجرام إشارة أخرى قوية على ضوء الخبرة إلى أن درجة حرارتها كانت تزيد تدريجاً وهي تنكمش أثناء خروج الضوء منها حتى صارت ضوءاً ساطعاً كضوء الشمس التي وصفها القرآن بأنها سراج وهاج أى لهب متقد ومضى؛ فبين بذلك حقيقة النجوم وأنها لهب متقدة ومضيئة.

وذكرت هذه الآيات أيضاً أن الأرضين خلقت مشابهة في بعض الصفات للسموات غير الأرضية (أى النجوم)، وأنهما جعلتا مطاوعتين بعضهما لبعض كأعضاء الجسم الواحد، وأن أجرامها قذف بها في مقارها وأكمل خلقها بعد إخراج ضحى النجوم، وأنها في الغالب خلقت بعد السموات؛ فقدمت بذلك معلومات ترجح خلق الأرضين من النجوم بعد إخراج الضياء منها.

وذكرت آية الرشق والفتق أن السموات والأرض (أى النجوم والكواكب والأقمار) كانتا شيئاً واحداً ملتحمات ثم فصل بينهما: فبينت على ضوء آيات خلق النجوم والأرضين وآية الرفع وحدة النظام في خلق أنواع الأجرام المختلفة من أجزائها (بالرشق ثم الفتق): النجوم من المادة الدخانية، ثم الكواكب من النجوم، ثم

الأقمار من الكواكب؛ كما فسرت معنى خلق العالم فى ستة أيام: اثنين للسموات أى النجوم، وأربعة للأرضيين من الكواكب والأقمار.

ومن العجيب أن العلم فى نظرياته عن خلق النجوم والكواكب والأقمار لم يأت بمبادئ أساسية عنها أكثر مما بينته الآيات بلغتها الموجزة الجامعة، ولكنه قد أتى طبعاً بتفاصيل عن هذه الأسس أغفل القرآن ذكرها على حسب سنته الحكيمه فى التبليغ حثاً للناس على النظر والبحث فى عجائب المخلوقات، كما قال ونه إلى ذلك فى آيات متعددة.

ومن المسلم به أن من يحكى القواعد الأساسية لبناء شىء لابد أن يكون عالماً بتفاصيل وجزئيات هذه الأسس لأن هذه إنما هى تلخيص لتلك.

يا معشر القراء الكرام: لقد بينا لكم طرفاً من أصول العلم الجامع بالكائنات الذى تحتويه بعض آيات القرآن، والعلم الجامع هو الذى يذكر أصل الشىء وطريقة تكوينه وأهم صفاته، وما ذكرناه مشابه فى غايته للعلم الوارد فى باقى آيات فصول الكتاب، فمن الحق أن يقال إنه يمثل الدفاع الكامل عن دعوى الكتاب فى جزئه الأول وأنه قد أثبت لكم صحة هذه الدعوى.

أما وقد ثبت لكم صدق دعوى الكتاب فلنعد النظر إلى ما تقول: إنها تقول إن القرآن قد أتى بوصف شامل عن العالم المادى فى صورة أصول وجوامع العلم الدقيق الصحيح الذى لم يكن أحد يعلمه ولا كان فى مكنة أحد من الناس أن يأتى بمثله قبل ظهور العلم الحديث، وإن العلم الحديث الذى ظهر بعد القرآن بقرون قد أيد ما احتواه القرآن من العلم الدقيق بالكائنات الوارد فى آيات الجزء الأول من الكتاب، ولكنه لا يدرى كيف أتى به، لأنه علم لا ينكشف بالظن أو مجرد ذكاء الفكر والمشاهدة العادية ويحتاج لكشفه إلى بحوث دقيقة لم تكن معروفة على الإطلاق قبل ظهور العلم الحديث.

وهذه شهادة لا تشكُّون فيها طبعاً ولا يصح أن تشكُّوا فيها لأنكم تدينون بالعلم الحديث بعد أن عرفتُم أنه يقوم على المشاهدة والخبرة العملية الدقيقة، ولا يخفى مغزى هذه الشهادة على فطنتكم، ومعناها الوحيد أن ما أتى به القرآن من الآيات الكونية فى الجزء الأول من الكتاب ليس من كلام بشر، لأنه ليس من حول

فكر أو خيال أو عبقرية، وأن ما ورد فيها من علم بالكائنات هو من قبيل الأنباء الغيبية والمعجزة الخالدة التى عجز الناس قاطبة عن أن يأتوا بمثلها قبل ظهوره أو بعده حتى ظهر العلم الحديث. وهذا خلا ما فى هذه الآيات من وجوه البلاغة منقطعة النظير التى هى جزء أو بعض من معجزة القرآن الكبرى.

ومعنى هذا بعبارة أخرى وبكل اختصار أن «محمدا» العربى الهاشمى الذى أتى بالآيات الكونية المذكورة بالجزء الأول من الكتاب والتى هى جزء من القرآن لم يأت بها وبقاى الآيات بالمثل من نفسه ولا بذكاء نادر أو عبقرية فيه، وأنه لا مفر من القول بأنها أوحيت إليه - لا من بشر - وإنما ممن يعلم السر فى السماء والأرض، وأنه إنما بلغها كما أنزلت عليه، وأنه بذلك صادق أمين فى دعواه بأنه رسول الله إلى الناس جميعاً وأنه خاتم الأنبياء، وأن القرآن خاتم الرسالات السماوية.

الإخبار بالغيب

اشتمل القرآن المجيد على قصص الأولين وصحح مفاهيم الناس حول قضايا تتعلق بالماضى السحيق.

ثم كشف عن مواقف ودخائل فى أنفس فريق من البشر يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله.

ثم أخبر بأمور وأحداث فى المستقبل القريب والبعيد، انقطعت دونها الأسباب، وقصرت عنها مقاييس العقل وفراصة الوجدان، وجاء الواقع بعد ذلك تصديقاً وتحققاً لما تنبأ به.

والذى نريد أن نؤكد ابتداء أن سيدنا محمداً ﷺ لم يكن يعلم الغيب من تلقاء نفسه، ولم يكن ممن انقطع لدراسة التاريخ وتمحيص حوادثه، ولم تكن المقدمات القريبة أو البعيدة تمهد لحدث المستقبل حتى ينسب ذلك إلى فراصة أو ذكاء.

قال جل جلاله ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لِأَرْتَابِ الْمُبْطِلُونَ (٤٨) بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ (١).

وقال جل شأنه ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعْ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ (٢).

وانطلاقاً من هذا المعنى يمكن أن نقسم الإخبار بالغيب إلى ثلاثة أنواع:

(أ) غيب الماضى. (ب) غيب الحاضر.

(ج) غيب المستقبل.

وإليك بعض الأضواء على هذه الجوانب من الإعجاز القرآنى.

(١) سورة العنكبوت الآيتان ٤٨ ، ٤٩ . (٢) سورة الأنعام آية ٥٠ .

(أ) غيب الماضي:

نعنى بهذا الغيب ما قصه القرآن العظيم عن الأمم السابقة ومواقفها من أنبيائها، ذلك القصص الحق الذى التمس مواطن العبرة وحقائق التاريخ.

ففى سورة «آل عمران»، بعد أن قص الله تعالى أخبار مريم وزكريا قال سبحانه ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُونَ أَقْلَامُهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ (١).

وفى سورة «هود» بعد ذكر قصة نوح عليه السلام قال تعالى ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (٢).

وفى سورة «القصص» يوجه الله سبحانه الخطاب بما يقطع الشك، ويلفت الأنظار والعقول إلى قضية الوحي الكبرى فيقول:

﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ (٤٤) وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٤٥) وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (٣).

وهذا الإخبار بالتاريخ على الوجه المطابق للواقع قد صحح أوهام البشر، فعبسى عبد الله ورسوله وليس إلها أو ابن إله أو ثالث ثلاثة، ومريم عذراء بتول طهرها الله واصطفها وليس - كما يزعم اليهود - بغيا، وليس - كما يزعم النصارى - فوق طبيعة البشر.

وسليمان نعم العبد، آتاه الله النبوة والملك، وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا.

وموسى كلیم الله، وكان عند الله وجيها، وليس كما اتهموه من قتل هارون أو كما عيروه به من جسده.

(١) سورة آل عمران آية ٤٤.

(٢) سورة هود آية ٤٩.

(٣) سورة القصص الآيات ٤٤ - ٤٦.

وإبراهيم أمة وحده، وخليل الرحمن، وليس - كما يفترى البعض - يهودياً أو نصرانياً، وما كان من المشركين.

والكتب المنزلة السابقة است حفظها الله الربانيين والأخبار، فخانوا الأمانة وكتبوا الحق واشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً.

وهكذا هيمن القرآن المجيد على التاريخ الإنساني، وصحح مساره الفكري، ومن هنا يقول الله تعالى ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقْصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (١).

إن طريق العلم بهذه الحقائق التاريخية منحصرة في ثلاثة:

١ - المشاهدة والمعاصرة.

٢ - الاستماع من أهل العلم وقراءة أسفارهم.

٣ - الوحي من الله رب العالمين.

والمشاهدة منفية بداهة، إذ يستحيل على الإنسان أن يشاهد ما سبق وجوده الزمنى، والاستماع من أهل العلم منتف أيضاً لأن سيدنا محمداً كان أمياً في بيئته أمية، ولم يثبت أنه تعلم أو صاحب أهل الخبرة في هذا المجال، ومكث أربعين سنة من حياته المباركة لا يعرف عنه إلا أنه الصادق الأمين، فما كان ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله.

وهذا هو ما يشير إليه قوله تعالى ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٢).

وهناك فرية روج لها المستشرقون تتعلق بمصدر القصص القرآني يزعمون فيها أن سيدنا محمداً - ﷺ - قد تلقى أخبار الأمم السابقة عن بعض الرهبان النصارى، ويحاولون أن يتلمسوا لها سنداً من السيرة النبوية عندما التقى الرسول الكريم براهب يسمى «بحيرا» وهو في صباه أثناء رحلة تجارية مع عمه أبى طالب إلى الشام، أو عندما التقى براهب آخر يسمى «نسطورا» أثناء رحلة تجارية للسيدة خديجة وهو في شبابه.

(١) سورة النمل آية ٧٦. (٢) سورة يونس آية ١٦.

هذا الافتراء من المستشرقين لا يدل إلا على جهلهم الفاضح وعصبيتهم الصليبية التى تستر وراء دعاوى البحث العلمى والفكر الحر.

وهذه الفرية مرفوضة تماما لأكثر من سبب:

١ - إن التقاء الراهب «بحيرا» بالغلام محمد أو التقاء الراهب «نسطورا» بالشاب محمد - ﷺ - هو التقاء عابر، حيث إن طريق التجارة من مكة إلى الشام كان يتخذ من أديرة الرهبان مواقع استظللال وراحة.

ولم يكن هذا اللقاء خاصا بسيدنا محمد أو على انفراد معه بل كان لقاء عاما يجمع قوافل التجارة كلها، فسرعة اللقاء لا تمكن من تعليم ولا تعلم.

٢ - إن نبوة سيدنا محمد - ﷺ - أتت بعد اللقاء الأول بثلاثين سنة تقريبا، وبعد اللقاء الثانى بخمسة عشر عاماً، فلم هذا الصمت الطويل إن كانت هناك إحياءات من هذين الراهبين؟

ومن المعروف أن فترة الشباب هى أجمع فترات العمر للقوة والثورة وإرادة التغيير.

٣ - إن النصرانية فى المنطقة العربية لم يكن لها حكومة أو هيئة تجمعها على وحدة التعاليم، فهؤلاء الرهبان المنتشرون فى صحارى المنطقة هم من الذين فرقهم الصراعات المذهبية حول طبيعة المسيح أو مزقتهم الاضطهادات السياسية.

فأى عقيدة تلقاها سيدنا محمد - ﷺ - من هؤلاء الرهبان؟

أهى عقيدة الصلب والفداء؟ أم عقيدة التثليث؟!

إنه من البدهى أن القرآن العظيم قد التقى مع الكتب السابقة فى قصصها العام باعتبار المشكاة الواحدة التى خرجت منها ولكن تفاصيل القصة فى القرآن قد فضحت تحريفات أهل الكتاب وافتراءاتهم على الله ورسله.

٤ - يقول أحد الباحثين المنصفين من غير المسلمين ^(١):

«محمد بغير ذلك اللقاء فى عرض الفلاة كان حرياً أن يغدو محمداً بقضه وقضيضه، وفضله وعقله وهده.

(١) هو الدكتور نظمى لوقا فى كتابه «وامحمداه».

أما «بحيرا» بغير هذا اللقاء فكان حرياً أن يذهب في التاريخ نسياً منسياً، فأدخله ذلك اللقاء دولة التاريخ، وأحدث له ذكراً باقياً، وقد راح ألوف من نظرائه المنقطعين للنسك في الصحراء واختلط تراب عظامهم بالرمال التي يذروها الهواء.

فالباحث يريد أن يقول إن «بحيرا» لم يكن سقراط عصره ولا فيلسوف زمانه ولم يعرف له ذكر في التاريخ قبل هذا اللقاء ولا بعده، فمن هو بحيرا - إذن - حتى ينسب إليه قصص القرآن؟!!

وعلى كل فما أشبه الليلة بالبارحة.. وصدق الله حيث يقول: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ۝٤﴾ وَقَالُوا أَأَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٥﴾ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١﴾.

(ب) غيب الحاضر:

نعني بغيب الحاضر ما كشفه القرآن الكريم من خفايا النفوس المحيطة برسول الله عليه الصلاة والسلام، والمتشرة في مجتمع المؤمنين بالمدينة. وأكثر ما ورد من ذلك كان خاصاً بالمنافقين، هؤلاء الذين أضمووا الكفر بالله ورسوله، وسايروا المؤمنين في شعائر الدين خداعاً ومكرًا،

ومن المعلوم أن العهد المكي للمسلمين لم يوجد به نفاق، وإنما انقسم الناس إلى كافر متكبر أو مسلم مستضعف.

فلما هاجر المسلمون إلى المدينة وأسلم الأوس والخزرج، وعلت كلمة المسلمين في غزوة بدر الكبرى بدأ بعض الناس يدخلون في الإسلام تقية أو إثارةً لمغنم أو تربصاً لفتنة.

وعلى رأس هؤلاء عبد الله بن أبي بن سلول، وهو من قبيلة الخزرج، وكان سيد المدينة في الجاهلية، وكانوا قد عزموا على تنصيبه ملكاً عليهم، فلما جاءهم الخير وأسلموا شغلوا عنه فبقى في نفسه شيء من الإسلام وأهله إلى أن وقعت غزوة بدر الكبرى وانتصر فيها المسلمون انتصاراً باهراً فتظاهر بالإسلام ودخل معه في الدين الجديد أفراد ممن ارتابت قلوبهم.

(١) سورة الفرقان الآيات ٤ - ٦.

وهنا ملاحظة يجب أن نتنبه إليها جيداً وهى أن النفاق فى لغة القرآن المجيد لم يذكر إلا فى العهد المدنى من التنزيل وهو يعنى ما انطوت عليه نفوس أصحابه من الكفر بالله واليوم الآخر وإنكار رسالة سيدنا محمد ﷺ. وقد استحق هؤلاء المنافقون الدرك الأسفل من النار لأنهم أشد خطراً من الكافرين المعلنين.

وهذا النفاق المذكور فى القرآن العظيم هو غير النفاق الذى ذكرته السنة المطهرة فى مثل قوله عليه الصلاة والسلام «آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان».

فالحديث الشريف قائم على التشبيه فى بعض الصفات، فهو نفاق عمل بمعنى أن هذه الخصال هى من صفات المنافقين من جهة إظهار ما يبطن خلافه فى حق من حدثه أو وعده أو استأمنه، وليس هو بمنافق فى العقيدة، ولهذا ورد فى بعض روايات الصحيح «أربع من كُنَّ فيه كان منافقاً خالصاً ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها، إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر».

ومعنى «كان منافقاً خالصاً، أنه شديد الشبه بالمنافقين وذلك فيمن غلبت عليه هذه الخصال.

فهناك - إذن - نفاق يتعلق بالعقيدة وهو أشد من الكفر، وهناك نفاق عملى يتعلق بمظاهر السلوك، وهو من المعاصى والكبائر.

نماذج من حديث القرآن عن المنافقين :

تحدث القرآن المجيد كثيراً عن دخائل النفس المنافقة على عهد رسول الله ﷺ، وجاءت سور كثيرة تكشف خفايا هذه النفوس، فكانت سورة البقرة وآل عمران والنساء والتوبة والأحزاب والمنافقون.. إلخ كلها حديث عن خلجات نفوسهم وحقيقة مشاعرهم المريبة.

وإذا توقفنا قليلاً عند سورة «المنافقون» نجد أنها ابتداء تفضح عقيدتهم الباطلة: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ (١).

فهم - قاتلهم الله - يأتون إلى مجلس الرسول ﷺ معلنين إسلامهم ومؤكدين صدقهم، حتى إنهم استعملوا «إن» و«واللام» لمزيد التأكيد، وجاءوا بلفظ «نشهد» ليدل على مطابقة قلوبهم لألستهم فيما أعلنوه.

ومع هذا يأتى القرآن ليرد عليهم شهادتهم ويعلن خداعهم فيقول «والله يشهد إن المنافقين لكاذبون» أى كاذبون عند أنفسهم وفيما أخبروا به من إيمانهم وليس لديهم اعتقاد يصدق ما يقولون.

والملاحظ فى لغة القرآن هنا أن الله سبحانه وسط قوله «والله يعلم أنك لرسوله» بين شهادتهم وردّها عليهم دفعا لإيهام حاصله أنه لو قيل «نشهد أنك لرسول الله، والله يشهد إن المنافقين لكاذبون» لأوهم أن قولهم هذا باطل فى نفس الأمر وليس مطابقاً للواقع الخارجى وأن محمداً ليس برسول الله، وجاء قوله «والله يعلم أنك لرسوله» احتراساً يفيد أن كذبهم إنما هو بالنسبة لاعتقادهم فقط.

ثم قصت السورة بعض أوصاف المنافقين الملازمة وهى الخور والهلع والجبن، وإن حاولوا إخفاء ذلك بكلام أجوف وأيمان كاذبة وتظاهر براق، فقال جل شأنه ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خَشْبٌ مُسْنَدَةٌ يَخْسِبُونَ كُلَّ صِيحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرهُمْ قَاتِلْهُمْ اللَّهُ أُنِّى يُؤَفِّكُون﴾ (٢).

(١) سورة المنافقون آية ١.

(٢) سورة المنافقون آية ٤.

والملاحظ هنا فى لغة القرآن أيضا أنهم لم يشبهوا بالخشب فقط بل بالخشب المسندة، لأن الخشب إذا انتفع به كان فى سقف أو جدار أو غيرهما من مظان الانتفاع، وما دام متروكا غير منتفع به أسند إلى الحائط، فشبها به فى عدم الانتفاع.

ثم تعرضت السورة الكريمة لموقف خاص لزعيم المنافقين عبد الله بن أبى، فى غزوة بنى المصطلق فى شعبان من السنة السادسة للهجرة على أصح الروايات، وعند مورد ماء يقال له المريسيع، تزاحم عليه أحد المهاجرين وأحد الأنصار، ووقع بينهما ما أثار الفريقين فنادى المهاجرى: يا للمهاجرين، ونادى الأنصارى: يا للأنصار فخرج عليهم رسول الله ﷺ وقال: ما بال دعوى الجاهلية.. دعوها فإنها منتنة.

فانتهاز ابن أبى هذه الفرصة وأراد أن يشعلها فتنة وقال: ما مثلنا وجلابيب قريش إلا كما قال القائل سمن كلبك يأكلك.. والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل.. ثم توجه بالنداء إلى بعض الأنصار قائلا:

هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتهم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم.

فسمع هذا الكلام غلام من المسلمين هو زيد بن أرقم فنقله إلى الرسول ﷺ، فلما علم بذلك ابن أبى سارع إلى نفى الخبر وحلف بالله ما قال واتهم الغلام بالتخليط والكذب.

وحاول عمر بن الخطاب رضى الله عنه - كعادته فى شدة الغيرة - أن يستأذن رسول الله فى قتل ابن أبى ولكن الرسول ﷺ - كعادته فى الحلم والحكمة - قال:

فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه؟! وأذن الرسول بالرحيل والعودة إلى المدينة فى ساعة لم يكن يرحل فيها، وما هى إلا مسافة الطريق حتى نزلت الآيات تحسم هذا الموقف ﴿هُمْ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَيَّ مِنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ (٧) يَقُولُونَ لئن رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١).

(١) سورة المنافقون الآيتان ٧، ٨.

فأخذ الرسول ﷺ بأذن زيد بن أرقم وقال: «هذا الذي أوفى الله بأذنه..».

وظن الناس أن في هذه الآيات قضاء على زعيم المنافقين فذهب ابنه عبد الله إلى رسول الله ﷺ وقال:

إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبي فيما بلغك عنه، فإن كنت فاعلا فمرني به فسأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان بها من رجل أبر بوالده مني وإنني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله فلا تدعني نفسي أن أنظر إلى قاتل أبي يمشي في الناس فأقتله، فأقتل مؤمنا بكافر فأدخل النار».

فقال عليه الصلاة والسلام لهذا الولد المؤمن الصادق الإيمان:

«بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقى معنا».

ولكن الرجل لم يع الدرس، والنفس الخبيثة من العسير عليها أن تتراجع عن غيها أو تخفف من غلوائها فما أن دخل المسلمون المدينة عقب هذه الغزوة حتى أشاع ابن أبي حديث الإفك حول السيدة عائشة رضي الله عنها وقال قولته الآثمة: والله ما نجت منه ولا نجا منها.. عندما رأى السيدة عائشة رضي الله عنها تدخل المدينة على جمل يقوده صفوان بن المعطل بعد أن تأخرت عن مقدم الجيش لعذر ألم بها..

واكفهر جو المدينة ما يقرب من شهر، والرسول الكريم في حيرة وقلق، وأسرة الصديق في كرب شديد، والمسلمون في فتنة شديدة حتى جاء الوحي فاصلا في القضية:

﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١).

والإفك هو أبلغ ما يكون من الكذب والافتراء، وقيل هو البهتان، لا تشعر به حتى تفاجأ به، والعصبة هي الجماعة.

والذي تولى كبره هو عبد الله بن أبي الذي تزعم العداوة لرسول الله ﷺ، وانتهاز الفرصة للغمز في العرض الشريف..

(١) سورة النور آية ١١.

وخاض معه جماعة من المسلمين مثل حسان بن ثابت وحمنة بنت جحش ومسطح بن أثاثة، فلما نزلت البراءة من السماء أقيم على هؤلاء حد القذف ثمانين جلدة، وترك ابن أبي لينال العذاب العظيم يوم الفزع الأكبر، ولأن الحدود توبة، وهذا المنافق لا توبة له، ولعله ترك أيضا تأليفاً للأنصار الذين ينتمى إليهم، ومراعاة لشعور ولده المسلم الصادق.



نتقل إلى صورة أخرى من صور النفاق، ففي العام التاسع للهجرة قبيل غزوة تبوك حاول اثنا عشر رجلاً من المنافقين بناء معقل للفتنة وتجميع السلاح تحت ستار إقامة مسجد لشعائر الصلاة.

ولمزيد من التمويه تقدموا بالتماس إلى الرسول ﷺ أن يفتتحه للصلاة حتى يتخذوا من ذلك ذريعة لاجتماع المسلمين فيه فيردوهم عن دينهم إن استطاعوا. فاعتذر الرسول ﷺ بانشغاله بتجهيز جيش العسرة ووعدهم أن يصلى فيه عند العودة إن شاء الله.

ولكن الوحي الإلهي لم يمهل هؤلاء فكشف أغراضهم الدنيئة وخفياً صدورهم المحترقة فنزل قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضُرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٠٧) لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾ (١).

عندئذ بعث الرسول ﷺ إلى هذا المكان من هدمه وأحرقه، وقد قال العلماء: كل مسجد بنى مباهاة أو رياء وسمعة أو لغرض سوى ابتغاء وجه الله، أو بمال غير طيب فهو لاحق بمسجد الضرار» (٢).

(١) سورة التوبة الآيتان ١٠٧ - ١٠٨.

(٢) الكشف للزمخشري ج ٢ ص ٢١٤.

وجه الإعجاز فى الإخبار بغيب الحاضر:

إن هذه الوقائع الثابتة الصحيحة لم تكن تعلم فراسة أو ذكاء أو تحسنا وتحسسا، فليس للرسول ولا لبشر من الناس اطلاع على مكنون الصدور ومستخفى الأنفس.

وقد حكى القرآن المجيد قصة يعقوب عليه السلام عندما رجع إليه أبناؤه ليكون ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ (١٧) وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ (١).

ماذا قال يعقوب؟: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ (٢).

وكانت تلك فراسة صادقة من يعقوب عليه السلام.

ولكن عندما ذهبوا إليه مرة أخرى بعد سنين طوال قائلين: ﴿يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ (٨١) وَسَأَلَ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ (٣).

عندئذ ظن يعقوب بينه خلاف الواقع قائلاً:

﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ (٤).

وطبعاً كان ذلك اتهاماً غير مطابق للواقع وهم برآء منه، فالأنبياء بشر لا يطلعون على خفايا النفوس إلا بقدر ما يطلعهم الله، وقد أكد هذه الحقيقة سيدنا محمد ﷺ بقوله - كما فى صحيح البخارى - «إنما أنا بشر وإنه يأتينى الخصم فلعل بعضهم أن يكون أبلغ من بعض فأحسب أنه صادق فأقضى له، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هى قطعة من النار فليأخذها أو ليتركها».

ومما يزيد تأكيد هذه الحقيقة - وهى أن الرسول ﷺ لم يتلمس أخطاء المنافقين ولم يتعقب تصرفاتهم ولم يشق عن قلوبهم، ما ثبت فى الصحيح من أن الرسول ﷺ

(١) سورة يوسف الآيتان ١٧ - ١٨. (٢) سورة يوسف آية ١٨.

(٣) سورة يوسف الآيتان ٨١ - ٨٢. (٤) سورة يوسف الآية ٨٣.

أعطى قميصه ليكفن فيه ابن أبي عندما مات، وصلى عليه فاعترض عمر بن الخطاب قائلاً: كيف تصلى على عدو الله؟

فقال الرسول الكريم: إنما خيرني الله فقال: «استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم» وسأزيده على السبعين.
فما كان إلا يسيرا حتى نزل قوله تعالى:

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (١).

وعلى هذا فإخبار القرآن عن غيب الحاضر الذي لم تقم عليه قرائن الأحوال ولم تشر إليه ملابسات الظروف لا يكون إلا وحياً إلهياً نزل به الروح الأمين.. وصدق الله حيث يقول:

﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهِزُّوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مِمَّا تَحْذَرُونَ﴾ (٢).

(ج) غيب المستقبل :

نعنى بغيب المستقبل ما أخبر به القرآن المجيد من حوادث، أو وعد به من آمال، أو أشار إليه من نذر، أو ألم به من قضايا، كل ذلك فى مستقبل الأيام.

ونستطيع أن نصنف هذا الغيب المتعلق بالمستقبل إلى موضوعات منها:

١ - ما يتعلق بالرسول ﷺ مثل قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ (٣)، وقوله تعالى ﴿وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى﴾ (٤) وَلَسَوْفَ يَعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ (٤).

٢ - ما يتصل بالقرآن المجيد نفسه، مثل قوله تعالى ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (٥).

(٣) سورة المائدة الآية ٦٧.

(٥) سورة الحجر الآية ٩.

(١) سورة التوبة آية ٨٤.

(٢) سورة التوبة آية ٦٤.

(٤) سورة الضحى الأيتان ٤ : ٥.

٣ - ما يبشر المؤمنين، مثل قوله تعالى ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (١).

٤ - ما ينذر المشركين مثل قوله تعالى ﴿سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ وَيُولُونِ الدُّبُرَ﴾ (٢).

وتلك الآية نزلت بمكة في وقت لا حول للمسلمين فيه ولا طول..

٥ - ما يرتبط بالتاريخ الإنساني العام مثل قوله تعالى ﴿الْمَ (١) غَلَبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بَضْعِ سَنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدِ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٥) وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٣).

٦ - ما يتعلق بأهل الكتاب من اليهود، مثل قوله تعالى ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٩٤) وَلَنْ يَتَمَنَّوَهُ أَبَدًا بِمَا قَدِمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٩٥) وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمَنْ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحِّزٍ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ (٤).

فالإخبار بالغيب وجه أصيل من وجوه الإعجاز القرآني، ويتجلى فيه صدق اليقين بنبوته سيدنا محمد ﷺ (٥).

* * *

(١) سورة النور الآية ٥٥.

(٢) سورة القمر الآية ٤٥.

(٣) سورة الروم الآيات ١ : ٦.

(٤) سورة البقرة الآيات ٩٤ : ٩٦.

(٥) لمزيد من التفاصيل راجع كتابنا «الرسول في رمضان» في سلسلة «إسلاميات» ط المؤسسة العربية الحديثة.

الفصل الرابع

المعجزات الحسية

- الإسراء والمعراج
- انشقاق القمر
- نبع الماء
- تكثير الطعام
- حنين الجذع
- الدعاء المستجاب
- الإخبار بالغيب

المعجزات الحسية

وقعت على يدى رسول الله ﷺ خوارق للعادات حسية، واجتمع له ﷺ ما لم يجتمع لنبي قبله، وهذه الخوارق منها ما يدخل تحت المعجزة الاصطلاحية كالإسراء والمعراج وانشقاق القمر لأن التحدى وقع بها، ومنها ما يعد تكريماً للنبي وتثبيتاً للذين آمنوا معه، وذلك كنسج الماء من بين أصابعه الشريفة وتكثير الطعام القليل وحنين الجذع وغير ذلك.

وهذه المعجزات الحسية سجل القرآن بعضها كالإسراء والمعراج وجاءت بها أحاديث صحيحة خرجها الإمام البخارى والإمام مسلم وغيرهما، وهى وإن لم تبلغ مبلغ التواتر المعتبر فى مصطلح الحديث إلا أن لها من الشهرة والقرائن والقبول ما يجعلها محل التصديق والجزم واليقين.

قال الإمام ابن حجر:

«وأما ما عدا القرآن من نبع الماء من بين أصابعه، وتكثير الطعام وانشقاق القمر ونطق الجماد، فمنه ما وقع التحدى به، ومنه ما وقع دالا على صدقه من غير سبق تحدى، ومجموع ذلك يفيد القطع بأنه ظهر على يديه ﷺ من خوارق العادات شىء كثير، كما يقطع بوجود جود حاتم وشجاعة على، وإن كانت أفراد ذلك ظنية وردت مورد الآحاد، مع أن كثيراً من المعجزات النبوية قد اشتهر وانتشر ورواه العدد الكثير والجم الغفير وأفاد الكثير منه القطع عند أهل العلم بالآثار، والعناية بالسير والأخبار، وإن لم يصل عند غيرهم إلى هذه الرتبة لعدم عنايتهم بذلك، بل لو ادعى مدع أن غالب هذه الوقائع مفيدة للقطع بطريق نظرى لما كان مستبعداً، وهو أنه لا مرية أن رواة الأخبار فى كل طبقة حدثوا بهذه الأخبار فى الجملة، ولا يحفظ عن أحد من الصحابة ولا من بعدهم مخالفة الراوى فيما حكاه من ذلك ولا الإنكار عليه فيما هنالك، فيكون الساكت منهم كالناطق لأن مجموعهم محفوظ من الإغضاء على الباطل...»^(١).

ونسوق هنا بعض هذه الخوارق بقسميها مما يدخل تحت المعجزة وما يدخل تحت التأييد والكرامة:

(١) فتح البارى بشرح صحيح البخارى ج ٦ ص ٥٨٢.

١ - الإسراء والمعراج:

الإسراء هو السير ليلاً.

والمعراج هو سلم الصعود.

والمقصود هو انتقال النبي ﷺ من مكة إلى بيت المقدس ثم الصعود إلى السموات العلا، ثم إلى سدرة المنتهى، ثم إلى حيث شاء العلى الأعلى، كل ذلك فى جزء يسير من الليل.

وقد ثبت الإسراء بنص قوله تعالى:

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (١).

ويشير إلى المعراج صدر سورة النجم فى قوله سبحانه:

﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (١٣) عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ (١٤) عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ (١٥) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ (١٦) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَفَىٰ (١٧) لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾ (٢).

والأحاديث الصحيحة المخرجة فى البخارى ومسلم وغيرهما كثيرة ضافية.

وقدرة الله فوق الشك، وتصدير آية الإسراء بكلمة «سبحان» دليل على عظم الأمر الذى يليها، وإذا كنا نحن البشر قد اخترعنا الطائرات الأسرع من الصوت، والصواريخ عابرة القارات والمحيطات، وسفن الفضاء بما لها من طاقات هائلة - أفيعجز رب البشر وواهب القُدْر، وبارئ النسم، ومالك الملك والملكوت؟!!

وقد حكى القرآن المجيد عن عجائب تشبه الإسراء والمعراج وإن لم تقاربه، فالرياح سخّرت لسلیمان عليه السلام تحمله إلى آفاق بعيدة، عبر عنها القرآن بقوله ﴿غَدَوْهَا شَهْرًا وَرَوَّاحَهَا شَهْرًا﴾ (٣).

(١) سورة الإسراء آية ١.

(٢) سورة النجم الآيات ١٣ - ١٨.

(٣) سورة سبأ آية ١٢.

وأخبر القرآن أن الذى عنده علم من الكتاب أحضر عرش بلقيس من أقصى اليمن إلى أقصى الشام فى مقدار لمح البصر، سواء قلنا إنه سليمان أو عبد صالح أو ملك مقرب.

قال تعالى: ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي﴾ (١)؟

والتصديق بالإسراء والمعراج - بعد ما صح النقل - هو مرتبط ارتباطاً لا ينقسم بقضية النبوة، ولعل موقف أبى بكر الصديق - رضى الله عنه - خير تعبير عن ذلك المعنى، حيث جاءه المشركون قائلين:

هل لك فى صاحبك يزعم أنه أسرى به الليلة إلى بيت المقدس؟

قال أبو بكر: أو قال ذلك؟

قالوا: نعم.

قال: لئن كان قال ذلك لقد صدق.

قالوا: أتصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح؟!

قال: نعم، إنى لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك، أصدقه فى خبر السماء فى غدوة أو روحة.

ومن يومها سمى أبو بكر صديقا.

حقا إن الإسراء والمعراج أمر عجيب ومثير للدهشة لكن العجب والدهشة شىء والإنكار شىء آخر.

فما كل عجيب منكر.

ولا كل مدهش غير واقع.

فالمعجزات جميعاً عجيبة ومدهشة ومثيرة لكنها واقعة.

وغرائب المخترعات كذلك تثير تساؤلات لدى العامة والخاصة ولكن نصدق بها ونحسها ونلمس آثارها.

(١) سورة النمل آية ٤٠.

قد يقول البعض إن هناك آراء تزعم أن الإسراء والمعراج وقع مناما؟! وبقليل من التأمل نرى أنه لو وقع مناما لما كان له كبير اعتبار، فإن فى الرؤى عجائب وعجائب، ولما بادرت قريش إلى التكذيب، فإن كل إنسان له من الرؤيا ما يحمله على التصديق بمثل ذلك.

وإن التعبير القرآنى فى قوله (بعده) له دلالة، فإن العبد مجموع الروح والجسد.

وانظر إلى قوله تعالى ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى (٩) عَبْدًا إِذَا صَلَّى﴾ (١).

وقوله سبحانه ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ (٢).

وما قد يستدل به من بعض الروايات التى فيها «وهو نائم» أو «بين النائم واليقظان» فلا حجة فيها - كما يقول القاضى عياض (٣) - إذ قد يكون ذلك حاله أول وصول الملك إليه وليس فى الحديث ما يدل على كونه نائما فى القصة كلها.

ومن المعروف لدى علماء الحديث أن هناك رواية عن شريك بن عبد الله بن أبى نمر - خرجها البخارى - فيها أوهام أنكرها عليه العلماء منها:

١ - أن الإسراء وقع مناما.

٢ - وأنه كان قبل أن يوحى إليه.

٣ - أن الجبار عز وجل، رب العزة تبارك وتعالى دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى فأوحى إليه ما شاء الله.

وقد نقل النووى عن القاضى عياض قوله:

وقد جاء فى رواية شريك فى هذا الحديث أوهام أنكرها عليه العلماء، وقد نبه مسلم على ذلك بقوله «فقدم وأخر وزاد ونقص».

وقال الإمام ابن كثير (٤).

(١) سورة العلق الآيتان ٩، ١٠.

(٢) سورة الجن آية ١٩.

(٣) صحيح مسلم بشرح النووى ج ٢ ص ٢١٠.

(٤) البداية والنهاية ج ٣ ص ١١٤، ١١٢.

وقوله في حديث شريك عن أنس «ثم استيقظت فإذا أنا في الحجر» معدود في غلطات شريك أو محمول على أن الانتقال من حال إلى حال يسمى يقظة». ويقول أيضا:

«وأما قول شريك عن أنس في حديث الإسراء «ثم دنا الجبار رب العزة فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى» فقد يكون من فهم الراوى فأقحمه في الحديث والله أعلم». ونسوق رأى عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها - كما رواه مسلم عن الشعبى عن مسروق قال:

كنت متكئا عند عائشة فقالت:

يا أبا عائشة ثلاث من تكلم بواحدة منهن فقد أعظم على الله الفرية.

قلت: ما هن؟

قالت: من زعم أن محمدا ﷺ رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية.

قال: وكنت متكئا فجلست فقلت:

يا أم المؤمنين انظرينى ولا تعجلينى، ألم يقل الله عز وجل:

﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمِيمِينِ﴾^(١).

﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾^(٢).

فقالت: أنا أول هذه الأمة سأل عن ذلك رسول الله ﷺ فقال إنما هو جبريل لم أره على صورته التى خلق عليها غير هاتين المرتين، ورأيته منهبطا من السماء، سادا عظم خلقه ما بين السماء إلى الأرض.

فقالت: أو لم تسمع أن الله يقول ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾^(٣).

(٢) سورة النجم آية ١٣.

(١) سورة التكوين آية ٢٣.

(٣) سورة الأنعام آية ١٠٣.

أو لم تسمع أن الله يقول ﴿وَمَا كَانَ لَبِشْرَ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يَرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيُّ حَكِيمٌ﴾ (١).

قالت: ومن زعم أن رسول الله ﷺ كنتم شيئا من كتاب الله فقد أعظم على الله الفرية، والله يقول ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ (٢).

قالت: ومن زعم أنه يخبر بما يكون في غد فقد أعظم على الله الفرية، والله يقول ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ (٣).

وعن معنى قوله تعالى «ثم دنا فتدلى» نسوق وجوها ذكرها الإمام الرازي في تفسيره (٤):

أحدها: أن جبريل دنا من النبي ﷺ أى بعد ما مد جناحه، وهو بالأفق عاد إلى الصورة التى كان يعتاد النزول عليها، وقرب من النبي ﷺ وعلى هذا ففى (تدلى) ثلاثة وجوه:

١ - فيه تقديم وتأخير، تقديره ثم تدلى من الأفق الأعلى فدنا من النبي ﷺ.

٢ - الدنو والتدلى بمعنى واحد كأنه قال دنا فقرب.

٣ - دنا إلى أى قصد القرب من محمد ﷺ وتحرك عن المكان الذى كان فيه فتدلى فنزل إلى النبي ﷺ.

الثانى: أن محمدا ﷺ (دنا) من الخلق والأمة ولأن لهم وصار كواحد منهم (فتدلى) أى فتدلى إليهم بالقول اللين والدعاء الرفيق فقال «إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى».

وعلى هذا ففى الكلام كما لان:

(١) سورة الشورى آية ٥١.

(٢) سورة المائدة آية ٦٧.

(٣) سورة النمل آية ٦٥.

(٤) ج ٢٨ ص ٢٨٦ ط الثالثة دار إحياء التراث العربى.

كأنه تعالى قال إلا وحى يوحى جبريل على محمد فاستوى محمد وكمل فدنا من الخلق بعد علوه، وتدلى إليهم وبلغ الرسالة.

الثالث: وهو ضعيف سخيف وهو أن المراد منه هو ربه تعالى، وهو مذهب القائلين بالجهة والمكان، اللهم إلا أن يريد القرب بالمنزلة، وعلى هذا يكون منه ما فى قوله ﷺ حكاية عن ربه تعالى «من تقرب إلى شبرا تقربت إليه ذراعا، ومن تقرب إلى ذراعا تقربت إليه باعا، ومن مشى إلى أُنْبته هرولة».

إشارة إلى المعنى المجازى..»

• • •

وهناك استدلال طريف مأخوذ من ختام آية الإسراء والنجم، ففى آية الإسراء قال تعالى (لنريه من آياتنا).

وفى آية النجم قال (لقد رأى من آيات ربه الكبرى) فالملاحظ هنا أن الآيتين أثبتتا رؤية الآيات ولم تشيرا إلى رؤية الله تعالى، فلو وقعت رؤية الله سبحانه كانت أولى بالتسجيل والتنبيه والإشارة.

بل يذهب بعض العلماء إلى أهمية تفسير آيات النجم برؤية جبريل عليه السلام فيقول^(١):

ونحن إلى تقرير رؤيته لجبريل أحوج منا إلى تقرير رؤيته لربه تعالى، وإن كانت رؤية الرب تعالى أعظم وأعلى، فإن النبوة لا يتوقف ثبوتها عليها (رؤية الله) ألبتة.

٢ - انشقاق القمر :

أخرج البخارى فى صحيحه روايات عن ابن مسعود وابن عباس وأنس رضى الله عنهم، منها:

«انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فرقتين، فرقة فوق الجبل، وفرقة دونه، فقال رسول الله ﷺ: اشهدوا».

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص ٢١٤ ط المكتب الإسلامى سنة ١٣٩٩ هـ ولمزيد من التفاصيل راجع كتابنا «الرسول حول الكعبة» سلسلة «إسلاميات»، طبعة المؤسسة العربية الحديثة».

«أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية فأراهم القمر حتى رأوا حراء بينهما».

وجاءت روايات بلفظ «فرقتين»، ولفظ «فلقتين»، ولفظ «شقتين»، وفي رواية «فانشق باثنتين»، وفي رواية «مرتين» وعلق عليها الإمام ابن حجر فقال: ولا أعرف من جزم من علماء الحديث بتعدد الانشقاق في زمنه ﷺ^(١).

ولعلها محمولة على معنى الفرقتين، وقد وقع خلاف في موضع شق القمر، هل كان بمكة بخصوصها أم بمكة زمن العهد المكي للدعوة؟ والراجح الثاني بدليل رواية مسلم عن الأعمش: بينما نحن مع النبي ﷺ بمنى إذ انفلق القمر.

وتدور تساؤلات عن كيفية انفلاق القمر وإمكان وقوعه، وقد نقل الإمام ابن حجر أقوال العلماء في هذه المعجزة، وساق رأى أبى إسحق الزجاج في معانى القرآن فقال:

أنكر بعض المبتدعة الموافقين لمخالفي الملة - انشقاق القمر، ولا إنكار للعقل فيه، لأن القمر مخلوق لله، يفعل فيه ما يشاء، كما يكوره يوم البعث ويفنيه.

وأما قول بعضهم: لو وقع لجاء متواترا، واشترك أهل الأرض في معرفته، ولما اختص بها أهل مكة، فجوابه أن ذلك وقع ليلا، وأكثر الناس نيام، والأبواب مغلقة، وقل من يراصد السماء إلا النادر، وقد يقع بالمشاهدة في العادة أن ينكسف القمر، وتبدو الكواكب العظام وغير ذلك في الليل ولا يشاهدها إلا الأحساد، فكذلك الانشقاق كان آية وقعت في الليل لقوم سألوا واقترحوا فلم يتأهب غيرهم لها.

ويحتمل أن يكون القمر ليلتئذ كان في بعض المنازل التي تظهر لبعض أهل الآفاق دون بعض كما يظهر الكسوف لقوم دون قوم^(٢).

هذا وقد حاول البعض الاستدلال على هذه المعجزة بالقرآن الكريم في قوله تعالى ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾^(٣).

(٢) فتح الباري ج ٧ ص ١٨٥.

(١) فتح الباري ج ٧ ص ١٨٣.

(٣) سورة القمر، الآية ١.

ويمكن رد الاستدلال بأن التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي شائع في البيان القرآنى كما فى قوله تعالى ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾^(١)، ويكون معنى الآية الكريمة أن القمر سينشق يوم القيامة حين تبدل الأرض غير الأرض والسموات.

٣ - نبع الماء من بين أصابعه الشريفة :

وقد تكرر هذا الموقف أكثر من مرة، ومن روايات البخارى فى هذا المجال رواية جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال: عطش الناس يوم الحديبية والنبي ﷺ بين يديه ركوة، فتوضأ فجھش^(٢) الناس نحوه فقال: ما لكم؟ قالوا: ليس عندنا ماء نتوضأ ولا نشرب إلا ما بين يديك، فوضع يده فى الركوة، فجعل الماء يثور بين أصابعه كأمثال العيون، فشربنا وتوضأنا، قلت: كم كنتم؟ قال: لو كنا مائة ألف لكفانا، كنا خمس عشرة مائة.

٤ - تكثير الطعام القليل:

وتعددت مواقفه كثيراً، ومن المرويات الصحيحة فى ذلك ما أخرجه البخارى فى صحيحه أن جابراً رضى الله عنه قال:

إنا يوم الخندق نحفر، فعرضت كيدة شديدة، فجاءوا النبي ﷺ فقالوا: هذه كدية^(٣) عرضت فى الخندق، فقال: أنا نازل، ثم قام ويطنه معصوب بحجر^(٤)، ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقاً، فأخذ النبي ﷺ المعول فضرب فى الكدية فعاد كشيئاً أهيل أو أهيم، فقلت: يا رسول الله ائذن لى إلى البيت، فقلت لامرأتى: رأيت بالنبي ﷺ شيئاً ما كان فى ذلك صبر، فعندك شيء؟ فقلت: عندى شعير وعناق^(٥) فذبحتُ العناق وطحنت الشعير، حتى جعلنا اللحم بالبرمة، ثم جثت النبي ﷺ والعجيين قد انكسر^(٦)، والبرمة بين الأثافي^(٧) قد كادت أن تنضج، فقلت: طعيم لى، فقم أنت يا

(١) سورة النحل، الآية ١. (٢) جهش: نزع إلى غيره وهو يكاد ييكى.

(٣) الكيدة بفتح الكاف والكدية بضم الكاف: القطعة الصلبة الصماء من الأرض.

(٤) فائدة ربط الحجر على البطن أنها تضممر من الجوع، فيخشى على انحناء الصلب، فإذا وضع فوقها الحجر وشد عليها استقام الظهر. وقيل لعله لتسكين حرارة الجوع ببرد الحجر.

(٥) الأثنى من المعز. (٦) لأن وتمكن منه الخمير.

(٧) الحجارة التى يوضع عليها القدر وهى ثلاثة.

رسول الله ورجل أو رجلان، قال: كم هو؟ فذكرت له، فقال: كثير طيب، قال: قل لها لا تنزع البرمة ولا الخبز من التنور حتى آتى، فقال: قوموا، فقام المهاجرون والأنصار فلما دخل على امرأته قال: ويحك، جاء النبي ﷺ بالمهاجرين والأنصار ومن معهم، قالت: هل سألوك؟ قلت: نعم.

فقال: ادخلوا ولا تضغطوا، فجعل يكسر الخبز ويجعل عليه اللحم، ويخمر البرمة والتنور إذا أخذ منه، ويقرب إلى أصحابه ثم ينزع، فلم يزل يكسر الخبز ويغرف حتى شبعوا، وبقي بقية، قال: كل هذا وأهدى فإن الناس أصابتهم مجاعة.

وفى بعض روايات هذه الواقعة قال جابر:

فلقيت من الحياء ما لا يعلمه إلا الله عز وجل، وقلت: جاء الخلق على صاع من شعير وعناق، فدخلت على امرأتى أقول: افتضح، جاءك رسول الله ﷺ بالخنديق أجمعين، فقالت: هل كان سألوك كم طعامك؟ فقلت: نعم، فقالت: الله ورسوله أعلم، ونحن قد أخبرناه بما عندنا، فكشفت عني غماً شديداً.

٥ - حنين الجذع:

أخرج البخاري في صحيحه عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: كان النبي ﷺ يخطب إلى جذع، فلما اتخذ المنبر تحول إليه، فحن الجذع، فأتاه فمسح يده عليه.

وفى رواية: فصاحت النخلة صياح الصبي.

وفى رواية: فسمعنا لذلك الجذع صوتاً كصوت العشار.

ويقال: كان الحسن إذا حدث بهذا الحديث يقول: يا معشر المسلمين الخشبة تحن إلى رسول الله ﷺ شوقاً إلى لقائه فأنتم أحق أن تشفقوا إليه.

٦ - الدعاء المستجاب:

كان الرسول ﷺ مستجاب الدعوة، وتحققت هذه الدعوات كلها، ومن ذلك ما أخرجه البخاري في صحيحه عن أنس رضى الله عنه قال: أصاب أهل المدينة قحط على عهد رسول الله ﷺ فبينما هو يخطب يوم الجمعة إذ قام رجل فقال: يا رسول

الله هلكت الكراع^(١)، هلكت الشاء، فادع الله يسقينا، فمد يده ودعا، قال أنس: وإن السماء كمثل الزجاج^(٢)، فهاجت ريح أنشأت سحباً، ثم اجتمع ثم أرسلت السماء عزاليها، فخرجنا نخوض الماء حتى أتينا منازلنا، فلم نزل نمطر إلى الجمعة الأخرى، فقام إليه ذلك الرجل أو غيره فقال: يا رسول الله تهدمت البيوت فادع الله يحبسها، فتبسّم ثم قال: حوالينا ولا علينا، فنظرت إلى السحاب يتصدع حول المدينة كأنه إكليل^(٣).

٧ - الإخبار بالغيب:

أخرج البخارى بسنده عن عدى بن حاتم قال: بينا أنا عند النبي ﷺ إذا أتاه رجل فشكا إليه الفاقة، ثم أتاه آخر فشكا إليه قطع السبيل فقال: يا عدى هل رأيت الحيرة^(٤)؟ قلت: لم أرها وقد أنبت عنها قال:

فإن طالت بك حياة لترين الظعينة^(٥) ترنحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحداً إلا الله.

قلت - فيما بينى وبين نفسى - فأين دُعَار^(٦) طيئ الذين سَعَرُوا^(٧) البلاد؟

ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى^(٨).

قلت: كسرى بن هرمز؟ قال: كسرى بن هرمز.

ولئن طالت بك حياة لترين الرجل يخرج ملء كفه من ذهب أو فضة يطلب من يقبله منه فلا يجد أحداً يقبله منه.

(١) الكراع بضم أوله الخيل وقد يطلق على غيرها من الحيوان.

(٢) من شدة الصفاء ليس فيها سحب.

(٣) الإكليل هى العصاة التى تحيط بالرأس، وأكثر ما تستعمل فيما إذا كانت العصاة مكللة بالجوهر.

(٤) الحيرة: مدينة قرب الكوفة بالعراق.

(٥) الظعينة: المرأة فى الهودج.

(٦) دُعَار: جمع داعر وهو الخبيث المفسد فى الأرض.

(٧) سَعَرُوا: أوقدوا نار الفتنة.

(٨) كسرى: علم على كل من حكم فارس القديمة.

وليلقين الله أحدكم يوم يلقاه وليس بينه وبينه ترجمان يترجم له، فيقولن: ألم أبعث إليك رسولا فيبلغك؟ فيقول: بلى. فيقول: ألم أعطك مالا وأفضل عليك؟ فيقول: بلى.. فينظر عن يمينه فلا يرى إلا جهنم، وينظر على يساره فلا يرى إلا جهنم.

قال عدى: سمعت النبي ﷺ يقول: اتقوا النار ولو بشق تمرة، فمن لم يجد شق تمرة فبكلمة طيبة. قال عدى: فرأيت الطعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلا الله، وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز، ولئن طالت بكم حياة لترون ما قال النبي أبو القاسم ﷺ "يُخرج ملء كفه".

الفصل الخامس

الخلق العظيم

- حرص الرسول على أمته
- عدل الرسول بين أزواجه
- حسن توكله على الله
- شجاعته
- كرمه
- حسن معاملته
- رحمته
- حياؤه
- تواضعه
- سماحته
- عفوه
- طيب ريحه

الخلق العظيم

لقد حقق سيدنا محمد ﷺ في حياته الخاصة والعامة - المثل الأعلى والقُدوة الحسنة والسيرة العطرة، وحرص المسلمون على تسجيل وقائع هذه الحياة الشريفة على كل حال، في المدخل والمخرج، في المنشط والمكروه، في الحضر والسفر، في السلم والحرب، في اليقظة والنوم.. بالكلمة والفعل والموقف.

وقام علماء أجلاء بالبحث والتمحيص في السيرة العطرة، وكتبوا كتابات قيمة، سجلت تلك الحياة النبوية بأكملها، بحيث أصبح لدى المسلم ما يشبه اليوميات لسيدنا رسول الله.

وهذا ما لم يحدث لعظيم من عظماء البشرية قاطبة، ولم يقع لزعيم على مستوى التاريخ الإنساني العام.. وكل الذين كتبوا في سير العظماء، أو الذين سجلوا بأنفسهم يوميات حياتهم - كان كل همهم الاختصار على أحداث بعينها ومواقف خاصة، ولم يتوفر لهم عمق المعرفة ولا وضوح السيرة في زوايا الحياة بأسرها..

ونحن المسلمين نفاخر الدنيا كلها بتلك السيرة الصادقة الصحيحة لسيدنا محمد ﷺ، والتي اعترف بها الأعداء، وسلم بها الخصوم، ونالت التقدير والإعجاب من كل الباحثين على اختلاف مللهم ونحلهم.

إن جوانب الأخلاق كثيرة متعددة، ولكل إنسان نصيب منها قل أو كثر، لكن أن نجد إنساناً جمع فضائل الأخلاق كلها وحاز مكارمها بأجمعها، والتقى فيه شرف النسب، وجمال النفس والبدن، ومحاسن السلوك فهذا لا يكون إلا محمداً ﷺ.

ونحن نسوق قبسات من هذا الخلق العظيم..

١ - حرص الرسول على أمته:

حدثنا القرآن المجيد عن شفقة الرسول ﷺ بأمرته وحرصه عليهم وسعيه في هدايتهم، وتحمله المشاق في سبيل إصلاح شئونهم. قال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسِكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ (٦) إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (٧) وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا (٨).

(١) سورة الكهف، الآيات ٦ - ٨.

ومعنى «باخع نفسك» أى مهلكها أسفاً، والمراد لا تأسف عليهم ولا تصل إلى مرحلة القلق النفسى المضنى لإعراضهم عن دعوة الحق والخير، وما عليك إلا أن تبلغهم وتوضح لهم معالم الطريق، ودعهم وشأنهم، فإن الحياة قائمة على الابتلاء والامتحان، ولا يخدع بزخرفها وزينتها إلا الأغرار السفهاء، فمصير الحياة إلى زوال وفناء، إما بموت الإنسان نفسه، وإما بجائحة يسلمها الله على متع الحياة، وإما بانتهاء الدنيا وقيام الساعة..

وفى تشبيهه بليغ لحرص الرسول وشفقته على أمته يقول عليه الصلاة والسلام - كما فى صحيح مسلم: (إن مثلى ومثل ما بعثنى الله به، كمثلى رجل أتى قومه فقال: يا قوم إني رأيت الجيش بعينى، وإنى أنا النذير العريان، فالنجاء، فأطاعه طائفة من قومه فأدبحوا فانطلقوا على مهلتهم، وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم فصباحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم، فذلك مثل من أطاعنى واتبع ما جئت به، ومثل من عصانى وكذب ما جئت به من الحق).

ومعنى قوله: (أنا النذير العريان) أن الرجل إذا أراد إنذار قومه وإعلامهم بما يتوقع شره ويخشى بأسه وتساء عاقبته - نزع ثوبه وأشار به إليهم إذا كان بعيداً منهم ليأخذوا حذرهم، ويفعل ذلك من يكون فى طليعة الجيش وذهب يتحسس الأخبار ويتعرف على قوة العدو، ويكون منظره هذا أبلغ فى استحثاث قومه على التأهب والاستعداد، وقيل إن مورد المثل فى رجل أدركه العدو فأخذ ثيابه، فرجع إلى قومه عرياناً، فعرفوا من هذا المنظر شدة عدوهم وقوة بأسه.

وأياً ما كان فإن رسول الله ﷺ قد بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وتركها على المحجة البيضاء.

وقد كان هذا الحرص من الرسول على أمته عظيماً وكبيراً وممتداً إلى ساحة العرض الأكبر، يوم يقوم الناس لرب العالمين، فقال عليه الصلاة والسلام: (لكل نبي دعوة مستجابة، وإنى اختبأت دعوتى شفاعة لأمتى يوم القيامة، فهى نائلة إن شاء الله من مات من أمتى لا يشرك بالله شيئاً).

وكان سيدنا محمد ﷺ: النبي المبلغ عن الله، والحاكم على المسلمين فيما شجر بينهم، والراعى الصالح لشئونهم، يتفقد غائبهم ويعود مريضهم، ويتحمل ديونهم، ففي صحيح الحديث قال عليه الصلاة والسلام: (ما من مؤمن إلا وأنا أولى به في الدنيا والآخرة اقرأوا إن شئتم: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾^(١) فأیما مؤمن مات وترك مالا فليرثه عصبته من كانوا، ومن ترك ديناً أو ضياعاً فليأتمني فأنا مولاه).

والملاحظة الجديرة بالاعتبار هنا أن الرسول ﷺ لم يذكر ما يستحقه على المؤمنين بسبب هذه الأولوية، وإنما ذكر ما يتحمله هو نحو المؤمنين، وهذا في غاية السمو ونهاية الرفعة.

ففي صدر الإسلام لم يكن النبي ﷺ يصلى على من مات وعليه دين، ويدع أصحابه يصلون، وفي امتناع الرسول الكريم عن صلاة الجنازة على المدين تحريض للناس على رد الحقوق لأصحابها، وتنبيه لهم على أن الدين هم بالليل ومذلة بالنهار، ودفع لهم لأن يعملوا ويكتسبوا ويدخروا.

ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: (روح المؤمن مرهونة بدينه حتى يقضى عنه) أى محبوسة عن النعيم الذى تستحقه حتى تسدد الديون التى على صاحبها.

ولما جاءت الغنائم وتوالت انتصارات المسلمين أصبح رسول الله يقضى ديون من مات من المسلمين، فإذا وضعت الجنازة سأل إن كان للميت مال وزعه على ورثته حسب الأنصبة الشرعية، وإن لم يكن له مال تكفل ﷺ بذريته وجعل لهم نصيباً من بيت مال المسلمين، بل إن كان على الميت دين قضاه عنه.

وبهذا أرسى رسول الله ﷺ أصلاً عظيماً في بناء المجتمع وكفالة الدولة لأبنائها ورعايتها لمواطنيها، فإن الشأن في الولاية أن يراقبوا الله تعالى فيما ولاهم، وأن يحسنوا التصرف في أموال الدولة بما ينفع الناس ويحقق استقرار أحوالهم المالية.

وتقول السيدة عائشة رضى الله عنها، كما في صحيح الحديث: سمعت رسول الله ﷺ يقول في بيتي هذا: (اللهم من ولى من أمر أمتي شيئاً فشق عليهم فاشقق عليه، ومن ولى من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فرفق به).

(١) سورة الأحزاب، الآية ٦.

٢ - عدل الرسول بين أزواجه:

تزوج الرسول ﷺ لحكم كثيرة، منها تأليف أصحابه وتكريمهم كزواجه من عائشة بنت الصديق، ومنها رعاية اليتامى والأرامل كزواجه من أم سلمة، ومنها إبطال عادات الجاهلية في التبنى كزواجه من زينب بنت جحش، ومنها جبر خاطر المرأة وتطبيب نفسها كزواجه من صفية بنت حيى بن أخطب، وقد ظل رسول الله مع زوجته الأولى السيدة خديجة خمساً وعشرين سنة، كانت حبه الأول والكبير، وظل وفيّاً لها طوال حياتها وبعد مماتها، حتى إن عائشة رضى الله عنها تقول: ما غرت على امرأة ما غرت على خديجة، وما رأيتها قط، ولكن كان النبی ﷺ يكثر ذكرها، وربما ذبح الشاة ثم يبعثها في صدائق خديجة.

وعندما يكثر الرسول من ذكر خديجة تقول له عائشة:

ما تذكر من عجز من عجائز قريش حمراء الشدقين (أى سقطت أسنانها) فأبدلك الله خيراً منها، فيقول عليه الصلاة والسلام:

«والله ما أبدلنى الله خيراً منها، آمنت بى إذ كفر الناس، وصدقتنى إذ كذبنى الناس، وواستنى بمالها إذ حرمنى الناس، ورزقنى الله منها الولد دون غيرها من النساء».

وعندما عدد الرسول زوجاته لحكم سامية كان يقسم بينهن في المبيت والنفقة وسائر الأمور المادية ثم يجأر إلى الله متضرعاً: اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك «يعنى القلبى»!

وإذا أراد سفرأ أقرع بين نسائه فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه.

وهذا موقف فى غاية النبى، ولم يكن سفره يومئذ بالأشهر والسنين فما بالنا اليوم بمن يسافرون إلى خارج القطر ويتركون زوجاتهم وأولادهم شهوراً وأعواماً بلا رقيب ولا مسئولية ويدعون أسرهم نهبا للفراغ والضياع الأخلاقى.

إن جمع شمل الأسرة واستقرارها العاطفى والأخلاقى هو أغلى ما يحرص عليه العاقل، وماذا يجدى المال عند فساد الأخلاق؟ وماذا تجدى الثروة عند انفراط عقد الزوجية؟!

فالحياة أعمق من المادة، واستقرار الأسرة مع الكفاف خير من الترف مع الفساد.

٣ - حسن توكله على الله:

أخرج مسلم في صحيحه بسنده عن جابر بن عبد الله قال:

غزونا مع رسول الله ﷺ غزوة قبل نجد، فأدركنا رسول الله ﷺ في واد كثير العضاة^(١)، فنزل رسول الله ﷺ تحت شجرة فعلق سيفه بغصن من أغصانها، وتفرق الناس في الوادى يستظلون بالشجرة، فقال رسول الله ﷺ: إن رجلاً أتاني وأنا نائم فأخذ السيف فاستيقظت وهو قائم على رأسى، فلم أشعر إلا والسيف صلتا^(٢) في يده فقال لى: من يمنعك منى؟ قلت: الله، ثم قال فى الثانية: من يمنعك منى؟ قلت: الله، فشام^(٣) السيف، فها هو ذا جالس، ثم لم يعرض له رسول الله ﷺ.

٤ - شجاعته:

أخرج مسلم في صحيحه بسنده عن أنس بن مالك قال:

كان رسول الله ﷺ أحسن الناس، وكان أجود الناس وكان أشجع الناس، ولقد فزع أهل المدينة ذات ليلة فانطلق ناس قبل الصوت فتلقاهم رسول الله ﷺ راجعاً وقد سبقهم إلى الصوت، وهو على فرس لأبى طلحة عرى، فى عنقه السيف، وهو يقول: لم تراعوا، لم تراعوا، وجدناه بحراً، أو إنه لبحر. وكان فرساً يبطأ^(٤).

٥ - كرمه :

أخرج مسلم في صحيحه بسنده عن ابن عباس قال:

كان رسول الله ﷺ أجود الناس بالخير، وكان أجود ما يكون فى شهر رمضان، إن جبريل عليه السلام كان يلقاه فى كل سنة فى رمضان حتى ينسلخ فيعرض عليه رسول الله ﷺ القرآن، فإذا لقيه جبريل كان رسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة.

(١) شجرة ذات شوك.

(٢) مسلولاً.

(٣) غمده.

(٤) كان الفرس بطيئاً فلما ركب الرسول تحول إلى فرس سريع العدو، قوى الحركة كأنه موج البحر العاتى.

وعن أنس قال:

إن رجلاً سأل النبي ﷺ غنماً بين جبلين فأعطاه إياها فأتى قومه فقال أى قوم أسلموا فوالله إن محمداً ليعطى عطاء ما يخاف الفقر، فقال أنس: إن كان الرجل ليسلم ما يريد إلا الدنيا، فما يسلم حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما عليها.

وأخرج الترمذى عن عمر رضى الله عنه أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ فسأله أن يعطيه فقال: ما عندي ما أعطيك ولكن ابتع على^(١) فإذا جاءني شيء قضيته.

٦ - حسن معاملته :

أخرج مسلم فى صحيحه بسنده عن أنس قال:

لما قدم رسول الله ﷺ المدينة أخذ أبو طلحة^(٢) بيدي فأنطلق به إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إن أنسا غلام كيس فليخدمك، قال: فخدمته فى السفر والحضر، والله ما قال لى لشيء صنعته لم صنعت هذا هكذا؟ ولا لشيء لم أصنعه لم لم تصنع هذا هكذا؟

٧ - رحمته :

أخرج مسلم فى صحيحه بسنده عن أبى هريرة قال: إن الأقرع بن حابس أبصر النبي ﷺ: يقبل الحسن فقال: إن لى عشرة من الولد ما قبلت واحدا منهم، فقال رسول الله ﷺ من لا يرحم لا يرحم.

٨ - حياؤه :

أخرج مسلم فى صحيحه أن أبا سعيد الخدرى قال: كان رسول الله أشد حياء من العذراء فى خدرها وكان إذا كره شيئاً عرفناه فى وجهه^(٣).

(١) اشتر على حسابى.

(٢) زوج أم أنس.

(٣) أى لا يتكلم به لحيائه.

٩ - تواضعه :

أخرج مسلم في صحيحه أن امرأة كان في عقلها شيء قالت: يا رسول الله إن لي إليك حاجة، فقال: يا أم فلان انظري أي السكك شئت حتى أقضي لك حاجتك فخلا^(١) معها في بعض الطرق حتى فرغت من حاجتها.

وفي الصحيح أيضاً: أن امرأة سوداء كانت تقم^(٢) المسجد ففقدتها رسول الله ﷺ فسأل عنها فقالوا: ماتت، قال: أفلا كنتم آذنتموني؟ فكأنهم صغروا أمرها، فقال ﷺ دلوني على قبرها، فدلوه، فصلى عليها ثم قال: إن هذه القبور مملوءة ظلمة على أصحابها وإن الله عز وجل ينورها لهم بصلاتي عليهم.

١٠ - سماحته :

أخرج مسلم في صحيحه بسنده عن عائشة زوج النبي ﷺ أنها قالت: ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثماً، فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله عز وجل. وقالت عائشة أيضاً :

ما ضرب رسول الله ﷺ شيئاً قط بيده ولا امرأة ولا خادماً إلا أن يجاهد في سبيل الله، وما نيل منه شيء قط فينتقم من صاحبه إلا أن ينتهك شيء من محارم الله فينتقم لله عز وجل.

١١ - عفوه :

أخرج البخاري بسنده عن عبد الله رضي الله عنه قال: لما كان يوم حنين آثر النبي ﷺ ناساً، أعطى الأقرع بن حابس مائة من الإبل، وأعطى عيينة مثل ذلك، وأعطى ناساً، فقال رجل: ما أريد بهذه القسمة وجه الله، فقلت: لأخبرن النبي ﷺ فأخبرته فقال: رحم الله موسى قد أودى بأكثر من هذا فصبر، وفي رواية: ومن يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله.

(١) تنحى بها جانباً بحيث يراها الناس ولا يسمعون حديثها.

(٢) تزيل القمامة منه.

١٢ - طيب ريحه :

أخرج مسلم بسنده عن أنس قال: ما شممت عنبراً قط ولا مسكاً ولا شيئاً أطيب من ريح رسول الله ﷺ ولا مسست شيئاً قط ديباجاً ولا حريراً ألين مساً من رسول الله ﷺ.

• • •

وبعد: فإن هذه الأخلاق مجتمعة لا تكون إلا لنبي اصطفاه الله، وتحمل أمانة التبليغ عن الله إلى خلق الله.

قال العلامة سعد الدين التفتازانى:

اجتمع فيه (ﷺ) من الأخلاق الحميدة، والأوصاف الشريفة، والسير المرضية، والكمالات العلمية والعملية، والمحاسن الراجعة إلى النفس والبدن والنسب والوطن - ما يجزم العقل بأنه لا يجتمع إلا لنبي^(١).

(١) شرح المقاصد ج ٢ ص ١٣٩، وراجع ما ذكرناه فى الباب الأول من كتابنا هذا عن ملامح الشخصية المحمدية.

البابُ الثالثُ

الوحي المحمدي

الفصل الأول : صور الوحي المحمدي

الفصل الثاني : شبهات حول الوحي المحمدي

الفصل الأول

صور الوحي المحمدي

- الرؤيا الصالحة.
- لقاء إسرافيل.
- صلصلة الجرس.
- تشكل الملك بصورة رجل.
- رؤية الملك في صورته الحقيقية.
- المناجاة في الحضرة الإلهية.
- تذييل.

الوحي المحمدي

نقف هنا وقفة نستجلي فيها صور الوحي الإلهي التي صاحبت الاصطفاء لسيدنا محمد ﷺ، وهي صور لا يجمعها نص ديني واحد، وإنما استقرأها العلماء من تتبع أحوال الوحي مع الرسول الكريم..

وهي - في جوهرها - تلتقي مع الآية الكريمة: ﴿وَمَا كَانَ لَبِشْرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يَرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِي بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيُّ حَكِيمٌ﴾ (١).

وقد جمع الله لرسوله محمد ﷺ ما تفرق في الرسل، فتحققت له كل أنواع الوحي..

وصور الوحي المحمدي على النحو التالي..

أولاً - الرؤيا الصالحة:

جاء في صحيح البخاري عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت: (أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح...).

فالرؤيا الصالحة كانت تمهيداً للوحي وتقدمة للنبوّة، تجعل الرسول في تهيئة نفسية لما ينتظره من الكرامة.

وهذه الرؤيا من الصدق والوضوح بحيث تتحقق في اليقظة كما رآها في النوم أو بحيث تعبر وتكون أعلام خير وبشائر هدى..

وقد بدأت هذه المرحلة قبيل لقاء غار حراء بستة أشهر واستمرت بقية عمره الشريف.

ولا نعرف نماذج من الرؤى قبل النبوّة، ولكن جاء القرآن وجاءت السنة الصحيحة بنماذج من الرؤى التي وقعت بعد النبوّة، منها على سبيل المثال:

(١) سورة الشورى، الآية ٥١

١ - قال الله تعالى: ﴿إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (١).

ففى غزوة بدر الكبرى واجه المسلمون المشركين فى أول واقعة حربية حاسمة، وكان المشركون أضعاف عدد المسلمين، وقد وقعت رؤيا لرسول الله ﷺ خلال المعركة شاهد فيها المشركين قلة قليلة، فأخبر أصحابه يومئذ قائلاً: (كأننى أنظر إلى مصارع القوم)، وتلك بشرى إلهية حتى يشتد العزم وتقوى الإرادة ويزداد الإقدام.

٢ - قال الله سبحانه: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾ (٢).

فقد أخبر الرسول ﷺ صحابته فى العام السادس للهجرة برؤيا حق شاهد فيها المسلمين داخلين المسجد الحرام فى أمن تام مؤدّين المناسك..

ولما سار المسلمون ووصلوا إلى الحديبية لم يشك جماعة منهم أن الرؤيا النبوية تتحقق عامهم هذا.. وحين وقع ماوقع من صلح الحديبية تساءل عمر بن الخطاب رضيه الله عنه وقال: ألم نخبرنا أننا سنأتى البيت ونطوف به؟!.

قال عليه الصلاة والسلام: بلى، أفأخبرت أنك آتية عامك هذا؟!

قال عمر: لا.

قال عليه الصلاة والسلام: فإنك آتية ومطوف به..!!

وفعلا ففى العام السابع وفى ذى القعدة أدّى الرسول والمسلمون عمرة القضاء ودخلوا مكة معتمرين ملبين بعد سبع سنين طوال حرموا خلالها من رؤية الكعبة المشرفة.

وتجمع المشركون رجالاً ونساءً وصبية، وتزاحموا ليروا هذا النبى القائد يحيط به المهاجرون والأنصار فى ولاء كامل وحب كبير وطاعة مطلقة (٣).

٣ - جاء فى صحيح البخارى أن ابن عمر رضيهما الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (بيننا أنا نائم أتيت بقدح لبن فشربت منه حتى إني لأرى الرى يخرج من أزفارى ثم أعطيت فضلى عمر).

(١) سورة الأنفال، الآية ٤٣ (٢) سورة الفتح، الآية ٢٧

(٣) لمزيد من التفاصيل راجع كتابنا «الرسول حول الكعبة»، سلسلة «إسلاميات» طبعة المؤسسة العربية الحديثة.

قالوا: فما أولته يارسول الله؟ قال: العلم).

فهنا عبّر الرسول رؤياه، وفسر اللبن بالعلم في كثرة الانتفاع بهما، ويظهر من ذلك فضل عمر، فهو الفاروق الذي كان إسلامه فتحاً، وهجرته نصراً وخلافته رحمة.

٤ - وفي صحيح البخارى أيضاً عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله ﷺ: (بينما أنا نائم رأيت الناس يعرضون علىّ وعليهم قمص، منها ما يبلغ الثدي، ومنها ما يبلغ دون ذلك، ومرّ علىّ عمر بن الخطاب وعليه قميص يجره).

قالوا: ما أولته يارسول الله؟ قال: الدين).

وتعبير الرؤيا هنا بتفسير القميص بالدين، لأن الأول يستر العورة في الدنيا، والثانى يستر العورة في الآخرة، والقميص به كمال الإنسان في مظهره، والدين به كمال الإنسان في حقيقته وباطنه، وعمر رضى ﷺ له من سابقته فى الإسلام وجهاده مع رسول الله ونصرتة للمسلمين وخدمته إياهم، ما يجعله من أعلام الصحابة المبشرين بالجنة والفائزين بالرضوان.

٥ - وجاء في الصحيح أيضاً: (بينما أنا نائم أوتيت خزائن الأرض فوضع فى يدي أسوران من ذهب، فكبرا علىّ، وأهمانى، فأوحى إلىّ أن أنفخهما، فنفختهما فذهبا.. فأولتهما الكذابين اللذين أنا بينهما، صاحب صنعاء وصاحب اليمامة).

والمعنى أن الرسول ﷺ أول سوارى الذهب اللذين طارا من يديه بالعنسى متنبئى صنعاء، ومسيلمة متنبئى اليمامة، وأن هذين الشخصين الكذابين سيذهب كيدهما وينمحق شأنهما..

وقد وقع ذلك كما أخبر الصادق المصدوق...

ثانياً. لقاء إسرافيل :

ذكرت كتب السيرة وبعض المسانيد فى السنة أن الرسول ﷺ تلقى وحى الملك إسرافيل مدة ثلاث سنين لم ينزل فيها شىء من القرآن.

وإنما كانت هذه المرحلة توسطاً بين الرؤيا الصالحة وتتابع الوحي بالقرآن الكريم بواسطة الملك جبريل، أو كانت في المدة التي فتر فيها الوحي بعد لقاء غار حراء...

فالقرآن الكريم هو وحى الله بواسطة جبريل فقط، وكان إسرائيل يتنزل يعلمه الكلمة والشئ مما يريد الله عز وجل..

وفي مسند الإمام أحمد عن الشعبي: (أن رسول الله ﷺ نزلت عليه النبوة وهو ابن أربعين سنة، فقرن بنبوته إسرائيل عليه السلام ثلاث سنين، فكان يعلمه الكلمة والشئ ولم ينزل القرآن، فلما مضت ثلاث سنين قرن بنبوته جبريل عليه السلام، فنزل القرآن على لسانه عشرين سنة، عشراً بمكة وعشراً بالمدينة، فمات وهو ابن ثلاث وستين سنة).

ونقل الإمام السيوطي عن ابن عساكر قوله: (والحكمة في توكيل إسرائيل به أنه الموكل بالصورة الذي فيه هلاك الخلق وقيام الساعة، ونبوته ﷺ مؤذنة بقراب قيام الساعة وانقطاع الوحي) (١).

وإثبات هذا اللون من الوحي بلقاء إسرائيل يتعارض مع حديث بدء الوحي للسيدة عائشة، المخرج في الصحيحين.

وموقف العلماء من هذا إما التوفيق أو الترجيح..

وممن وفق الإمام أبو شامة قال: (وحديث عائشة لا ينافي هذا، فإنه يجوز أن يكون أول أمره الرؤيا، ثم وكل به إسرائيل في تلك المدة التي كان يخلو فيها بحراء، فكان يلقي إليه الكلمة بسرعة، ولا يقيم معه تدريجاً وتمريناً، إلى أن جاءه جبريل فعلمه بعدما غطه ثلاث مرات.

فحككت عائشة ما جرى له مع جبريل، ولم تحك ما جرى له مع إسرائيل، اختصاراً للحديث، أو لم تكن وقفت على قصة إسرائيل..) (٢).

(١) الإتيان في علوم القرآن، ج ١، ص ٦٠، «بعضة الحلبي».

(٢) نقلاً عن كتاب «سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد» للإمام محمد بن يوسف الصالحى - تحقيق الدكتور مصطفى عبدالواحد، ج ٢، ص ٣٠٩.

ومن العلماء من رجّح رواية عائشة ورفض رواية الشعبي، ونقل الإمام العيني أن الواقدي وغيره أنكر كون النبي ﷺ وكُلَّ به غير جبريل عليه السلام^(١).

ونقل الطبري قول الواقدي: (فذكرت ذلك لمحمد بن صالح بن دينار، فقال: والله يا ابن أخي لقد سمعت عبدالله بن أبي بكر بن حزم، وعاصم بن عمر بن قتادة يحدثان في المسجد، ورجل عراقي يقول لهما هذا، فأنكراه جميعاً وقالاً: ماسمعنا ولا علمنا إلا أن جبريل هو الذي قُرْن به، وكان يأتيه بالوحي من يوم أن نُبئ إلى أن تُوفى ﷺ) (٢).

ومما يستدل به البعض على توهين رواية الشعبي ما جاء في الطبراني والبيهقي بسند حسن عن ابن عباس رضيهما الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ ذات يوم وجبريل علي الصفا، فقال رسول الله ﷺ: يا جبريل والذي بعثك بالحق ما أمسى لآل محمد سفةٌ دقيق ولا كف من سويق...!!

فلم يكن كلامه بأسرع من أن سمع هدة من السماء أفزعته، فقال رسول الله ﷺ: أمر الله القيامة أن تقوم؟!.

فقال: لا، ولكن أمر إسرافيل فنزل إليك حتى يسمع كلامك، فأناه إسرافيل فقال: إن الله تعالى بعثنى إليك بمفاتيح خزائن الأرض وأمرني أن أعرض إليك أسير معك جبال تهامة زمرداً وياقوتاً وذهباً وفضة، فقلت: فإن شئت نبياً ملكاً وإن شئت نبياً عبداً؟.

فأوماً إليه جبريل أن تواضع، فقال: بل نبياً عبداً.. ثلاثاً).

ورواه ابن حبان في صحيحه مختصراً من حديث أبي هريرة ولفظه: (جلس رسول الله ﷺ فنظر إلى السماء فإذا ملك ينزل فقال له جبريل: هذا الملك ما نزل منذ خُلِق قبل الساعة.. وذكر الحديث) (٣).

(١) عمدة القاري شرح صحيح البخاري، ج ١، ص ٤٠

(٢) تاريخ الرسل والملوك، ج ٢، ص ٣٨٦.

(٣) نقلاً عن كتاب «سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد»، ج ٢، ص ٣١٠.

فمن هذه الآثار فهم البعض أن إسرائيل لم ينزل على رسول الله قبل هذا اللقاء مع جبريل، فكيف يستقيم أن يكون مكث مع الرسول ثلاث سنين قبل مجيء جبريل؟!.

ومهما يكن من أمر فإن جانب التوفيق أرجح لما يلي:

١ - إن إثبات لقاء إسرائيل لا ينافي أن القرآن كله نزل به جبريل الأمين.

٢ - إن مهمة إسرائيل كانت تهيئة نفسية وتدريباً وتمريناً..

٣ - إن ما نقله الواقدي بأن مشايخه قالوا: ما سمعنا ولا علمنا.. لا ينفى القضية في واقعها، فعدم سماعهم أو علمهم لا ينفى الأمر في ذاته.

٤ - إن رواية الطبراني لا يفهم منها أن نزول إسرائيل مع جبريل على الصفا كان ابتداءً ولأول مرة، وليس هناك تعارض بين لقاء إسرائيل في ابتداء النبوة وبين نزوله حينذاك..

ففي الأول كان يعلمه الكلمة والشيء، وفي الثاني كان للتخيير بين النبي الملك وبين النبي العبد، ولعل هذا اللقاء الثاني كان امتداداً للمرحلة الأولى، بل هذه الرواية تؤكد علاقة إسرائيل بالنبوة والوحي..!

ثالثاً. صلصلة الجرس:

في صحيح البخاري عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أن الحارث ابن هشام رضي الله عنه سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، كيف يأتيك الوحي؟.

فقال عليه الصلاة والسلام: (أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده عليّ، فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال...)

الصلصلة هي الصوت القوي..

والمعنى أن لحظة الإحياء هذه يجتمع لها من اليقظة والوعي والتغيرات النفسية والعضوية ما يشد النبي شداً قوياً لتلقى الوحي، وتحاط هذه اللحظة بأصوات الملائكة المصاحبين لجبريل، حتى يتفرغ الوعي كله لمصدر الوحي..

وأخرج ابن أبي حاتم بسند صحيح عن سعيد بن جبير قال: (ما جاء جبريل بالقرآن إلى النبي ﷺ إلا ومعه أربعة من الملائكة حفظة).

وأخرج ابن جرير عن الضحاك قال: (كان النبي ﷺ إذا بُعث إليه الملك بُعث ملائكة يحرسونه من بين يديه ومن خلفه أن يتشبه الشيطان على صور الملك) (١).

وقد كان الصحابة رضى الله عنهم يحسون بهذه الأمور الطارئة، وقد عبر عنها عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: (كنا نسمع عنده مثل دوى النحل).

وهذه الحالة هي أشد حالات الوحي، وقد جاء في الأحاديث الشريفة ما يشير إلى هذه الشدة، ويصف ما يعتري النبي عندها، ففي حديث عائشة السابق تقول: (ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً).

وفي حديث الإفك قالت عائشة رضي الله عنها: (فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء) (٢) عند الوحي، حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان (٣) من العرق، في اليوم الشاتي، من ثقل القول الذي أنزل عليه).

وفي حديث عبادة بن الصامت قال: (كان نبي الله عليه الصلاة والسلام إذا أنزل عليه، كرب لذلك وتردد) (٤) وجهه).

فهذه المعاناة وتلك المكابدة في تلقى الوحي هي تفسير لقوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ (٥).

فثقل القول في تلقيه وحيًا، وفي التزامه عملاً، والقيام به تكليفاً.

(١) نقلا عن كتاب (الإتقان في علوم القرآن) للسيوطي، ج ١، ص ٥١

(٢) البرحاء - بضم الباء وفتح الراء - شدة الكرب وشدة الحمى.

(٣) الجمان - بضم الجيم وتخفيف الميم - جمع جمانة وهي حبة تعمل من فضة كالذرة.

(٤) أى تغير لونه.

(٥) سورة المزمل، الآية ٥.

لكن مع تكرار الوحي وتتابع النزول تخف حدة هذه الأعراض ويصبح الأمر أيسر من ذي قبل.

وإذا قارنا بين القرآن في عهده المكي والمدني نلاحظ أن الآيات المكية أقصر على وجه العموم من الآيات المدنية، بل إن أطول آية في القرآن هي آية المدائنة في سورة البقرة - وهي مدنية.

ونجد أيضاً أن السور المدنية - على جهة العموم - أطول كثيراً من السور المكية، اللهم إلا مآندر، كسورة النصر المدنية.

ويظهر كذلك أن النجم القرآني - وهو القدر المنزل من الآيات مرة واحدة - في عهده المكي قليل الآيات، وانظر - مثلاً - النجم الأول من القرآن، وهو الآيات الخمس الأولى من سورة العلق، وقارن بها نزول صدر سورة براءة إلى ما يقرب من أربعين آية في العهد المدني..

بل أحياناً تنزل السورة كلها، ففي مسند أحمد عن أسماء بنت يزيد قالت: (إنني لآخذة بزمام العضباء، ناقة رسول الله ﷺ، إذ نزلت عليه المائدة كلها، وكادت من ثقلها تدق عضد الناقة).

وفي رواية : فلم تستطع أن تحمله فنزل عنها.

وثبت في الصحيحين نزول سورة الفتح على رسول الله ﷺ مرجعه من الحديبية، وهو على راحلته..

وأخيراً نستحضر صورة اللقاء الأول في غار حراء:

(فجاءه الملك فقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارئ. قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارئ. قال: فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ. فأخذني فغطني الثالثة... إلخ).

استحضر معي هذه الصورة ومشاقها وما خلفته من آثار نفسية جعلت الرسول يرجع إلى السيدة خديجة يرجف فؤاده، ويقول: زملوني.. زملوني، حتى ذهب عنه الروع.

وأضف إليها صورة اللقاء المتكرر في رمضان لمدارس القرآن، ففي الصحيح: (كان رسول الله ﷺ أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان يلقاه في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن، فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة).

رابعاً. تشكل الملك في صورة رجل:

قدرة الملك على التشكل بالصورة البشرية محل اتفاق أهل الأديان جميعاً، لقد نزل الملائكة على إبراهيم الخليل ضيفاً مكرمين، وقدم لهم عجلاً حنيذاً، ولم يعرف أنهم ملائكة إلا حين أفصحوا له عن حقيقة أمرهم..

قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (٢٤) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (٢٥) فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعَجَلٍ سَمِينٍ (٢٦) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٢٧) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ (١).

وأتى الملائكة لوطاً عليه السلام في صورة شباب بهي الطلعة، جميل المنظر.. قال سبحانه: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ (٧٧) وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ (٢).

وبعث الله إلى مريم البتول جبريل عليه السلام في صورة بشر سوى يبشرها باصطفائها واصطفاء وليدها..

قال جل شأنه: ﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ (٣).

(١) سورة الذاريات، الآيات ٢٤ - ٢٨.

(٢) سورة هود، الآيتان ٧٧ - ٧٨.

(٣) سورة مريم، الآية ١٧.

وانطلاقاً من هذه الحقيقة (١) كان جبريل عليه السلام يتنزل على سيدنا محمد ﷺ ويتمثل له في صورة رجل.. وقد أخرج البخاري في صحيحه: (وأحياناً يتمثل لى الملك رجلاً فيكلمنى فأعنى مايقول).

وجاء فى السنة الصحيحة أن هذا الرجل اتخذ أكثر من شكل:

١ - فتارة يأتى على صورة رجل أحسن الناس وجهاً، وأطيبهم ريحاً ولا يعرفه أحد من الصحابة، وتعددت الروايات فى ذلك.

ففى صحيح مسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: (بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يُرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبى ﷺ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، وقال: يا محمد، أخبرنى عن الإسلام).

فقال رسول الله ﷺ: الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتى الزكاة، وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً. قال: صدقت.

فعجبنا له يسأله ويصدقه.

قال: فأخبرنى عن الإيمان.

قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره. قال: صدقت.

قال: فأخبرنى عن الإحسان.

قال: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

قال: فأخبرنى عن الساعة.

(١) الفرق بين تشكىل الملك وتشكىل الجن، أن الملك يتشكل بالصورة الحسنة فقط ولا تحكم عليه الصورة، أما الجن فيتشكىل بالحسن والقبح وتحكم عليه الصورة.

قال: ما المستول عنها بأعلم من السائل.

قال: فأخبرني عن أماراتها.

قال: أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان.

ثم انطلق، فلبثنا ملياً، ثم قال: يا عمر أتدري من السائل؟

قلت: الله ورسوله أعلم.

قال: فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم).

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة قال: (كان النبي ﷺ بارزاً يوماً للناس، فأتاه جبريل فقال: ما الإيمان؟ قال: أن تؤمن بالله وملائكته وبلقائه ورسله، وتؤمن بالبعث.

قال: ما الإسلام؟

قال: أن تعبد الله ولا تشرك به، وتقيم الصلاة، وتؤدى الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان.

قال: ما الإحسان؟

قال: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

قال: متى الساعة؟

قال: ما المستول عنها بأعلم من السائل، وسأخبرك عن أشراطها، إذا ولدت الأمة ربتها، وإذا تناول رعاة الإبل البهم^(١) في البنيان، في خمس^(٢) لا يعلمهن إلا الله، ثم تلا النبي ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾^(٣)

(١) روى برفع «البهم» صفة للرعاة والمعنى الرعاة السود أو المجهولون، وروى بالجر صفة للإبل، أى الإبل السود وهى شرها.

(٢) خبر مبتدأ محذوف، أى علم الساعة فى خمس.

(٣) سورة لقمان، الآية ٣٤

ثم أدبر، فقال: ردوه، فلم يروا شيئاً، فقال: هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم).

وقد أتى جبريل على هذه الصورة ليخفى على الناس في بادئ الأمر، ويتطلعوا إليه في شغف، ويتأملوه في تعجب، كي تقوى ملكتهم في تتبع أسئلته وحفظ الجواب عنها، ولأن القضية قضية تعليم لهم وبيان، فاتخذت هذا الشكل من الحوار، لفتاً للأنظار وترسيخاً لحقائق الإيمان..

ووقعت في هذا اللقاء بعض الأمور التي ساعدت على هذا الهدف:

- فالرجل على صورة وضاعة، وهو ليس من أهل المدينة، فلا يعرفه أحد، وليس قادماً من سفر، فثيابه بيضاء، ولا يرى عليه عناء ولا إرهاق..

- عندما قدم إلى النبي ﷺ جلس بين يديه جلسة المتعلم، فأسند ركبته إلى ركبته ووضع كفيه على فخذه.

- عقب جواب النبي ﷺ كان يقول: (صدقت)، وتعجب الصحابة يسأله ويصدق، فشان السائل أن يكون جاهلاً بالجواب وخاصة بما يتعلق بأمور الوحي والتشريع، فهي من خصائص النبي، فدلّت كلمة (صدقت) على أن سؤاله سؤال عارف محقق..

٢ - وتارة يأتي جبريل في صورة بشرية ويؤم النبي ﷺ عند الكعبة، ويعلمه الصلاة، ويبين له أوقاتها بدءاً ونهاية، وذلك في غداة الليلة المباركة التي وقع فيها الإسراء والمعراج.

ففي صحيح مسلم عن أبي مسعود رضي الله عنه قال: (سمعت رسول الله ﷺ يقول: نزل جبريل عليه السلام فأمنى فصليت معه، ثم صليت معه، ثم صليت معه، يحسب بأصابه خمس مرات).

وثبت في سنن أبي داود والترمذي وغيرهما من رواية ابن عباس وغيره في إمامة جبريل أنه صلى الصلوات الخمس مرتين في يومين، فصلى الخمس في اليوم الأول أول الوقت، وفي اليوم الثاني آخر وقت الاختيار.

ونص الحديث كما رواه الترمذى عن ابن عباس: (أمنى جبريل عليه السلام عند البيت مرتين، فصلى الظهر فى الأولى منهما حين كان الفىء مثل الشراك، ثم صلى العصر حين كان كل شىء مثل ظله، ثم صلى المغرب حين وجبت الشمس وأفطر الصائم، ثم صلى العشاء حين غاب الشفق، ثم صلى الفجر حين برق الفجر وحرم الطعام على الصائم..)

وصلى المرة الثانية الظهر حين كان ظل كل شىء مثله لوقت العصر بالأمس، ثم صلى العصر حين كان ظل كل شىء مثليه، ثم صلى المغرب لوقته الأول، ثم صلى العشاء الآخرة حين ذهب ثلث الليل، ثم صلى الصبح حين أسفرت الأرض. ثم التفت إلى جبريل فقال: يا محمد، هذا وقت الأنبياء من قبلك، والوقت فيما بين هذين الوقتين).

فنحن نعتقد أن هذه الإمامة كانت فى الصورة البشرية حتى تتأنى المسائلة والافتداء..

٣ - وأحياناً يأتى الملك على صورة أحد الصحابة وهو دحية الكلبي، كان من كبار الصحابة، وشهد أحداً وما بعدها، وأعطى شطراً كبيراً من الحسن حتى قيل: إن دحية إذا قدم المدينة لم تبق معصر^(١) إلا خرجت تنظر إليه لفرط جماله، ويروى أنه كان يمشى متلشماً يستر وجهه متخرجاً من فتنة النساء به..

قال ابن حجر: وكان جبرائيل عليه السلام ينزل على صورته (أى: دحية الكلبي)، جاء ذلك من حديث أم سلمة، ومن حديث عائشة، وروى النسائي بإسناد صحيح عن يحيى بن معمر عن ابن عمر رضي الله عنهما: (كان جبريل يأتى النبى ﷺ فى صورة دحية الكلبي).

وروى الطبراني من حديث عفير بن معدان عن قتادة عن أنس أن النبى ﷺ قال: (كان جبرائيل يأتينى على صورة دحية الكلبي، وكان دحية رجلاً جميلاً)^(٢).

(١) المعصر: الفتاة إذا اكتملت أنوثتها.

(٢) الإصابة فى تمييز الصحابة، ج ١، ص ٤٦٣ - طبعة المكتبة التجارية الكبرى.

وساق محمد بن سعد روايات في هذا المعنى منها:

عن عامر الشعبي قال: شبه رسول الله ﷺ ثلاثة نفر من أمته فقال: دحية الكلبي يشبه جبرائيل، وعروة بن مسعود الثقفي يشبه عيسى بن مريم، وعبد العزى يشبه الدجال.

وعن عائشة قالت: (وثب رسول الله ﷺ وثبة شديدة، فنظرت فإذا معه رجل واقف على برذون، وعليه عمامة بيضاء قد سدل طرفها بين كتفيه ورسول الله ﷺ واضع يده على معرفة^(١) برذونه، فقلت: يا رسول الله، لقد راعتنى وثبتك.. من هذا؟ قال: ورأيتي؟ قلت: نعم، قال: ومن رأيت؟

قالت: رأيت دحية الكلبي. قال: ذاك جبريل عليه السلام^(٢).

وفى أحاديث الإسراء ثبت أن النبي ﷺ قال: (عُرِضَ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ، فَإِذَا مُوسَى ضَرْبَ مِنَ الرِّجَالِ كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَنْوَاءَ، وَرَأَيْتَ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ فَإِذَا أَقْرَبَ مِنْ رَأْيَتِهِ بِهِ شَبْهًا صَاحِبِكُمْ، - يَعْنِي نَفْسَهُ -، وَرَأَيْتَ جِبْرِيلَ فَإِذَا أَقْرَبَ مِنْ رَأْيَتِهِ بِهِ شَبْهًا دَحِيَّةَ الْكَلْبِيِّ).

وهذا التشكل من الملك بصورة الإنسان لا يعنى بحال من الأحوال أنه انقلب عن طبيعته وخرج عن فطرته، ولا يعنى أيضاً أنه صار له بدنان أو جسمان، ولا علاقة له بتنقل الأرواح في الأجساد.

كل ما في الأمر أن القدرة على التشكل في الملك تجعله يرى على أوضاع مختلفة، ويظهر أمام الرائي على أشكال متعددة، وهو هو في حقيقته وطبائعه وسائر أحواله المميزة..

وأظن أن في التصوير التليفزيوني والسينمائي الآن ما يقرب هذا المعنى، فإن في استطاعة المصور أن يقدم لك صوراً متعددة للشخص الواحد في أوضاع لا تتصورها في الواقع، بأن تكون الصورة صغيرة جداً أو كبيرة عن المألوف، أو في حركات لا يمكن أن يأتي بها الشخص في لحظة واحدة..

(١) المعرفة بفتح الراء : الموضع الذي ينبت فيه العُرف.

(٢) الطبقات الكبرى، ج ١ القسم الأول ص ١٨٤ - طبعة مؤسسة دار التحرير.

ولا مجال بعد ذلك لأن يقال: إذا أتى جبريل النبي ﷺ في صورة دحية فأين تكون روحه؟ أفى الجسد الذى يشبه جسد دحية، أم فى الجسد الذى خلق عليه، له ستمائة جناح؟!.

فإن كان فى الجسد الأعظم فما الذى أتى إلى النبي ﷺ جبريل، لا من جهة روحه ولا من جهة جسده!!.

وإن كانت فى الجسد المشبه بجسد دحية فهل يموت الجسد الذى له ستمائة جناح كما تموت الأجساد إذا فارقتها الأرواح؟ أم يبقى حياً خالياً من الروح؟!.

فهذه التساؤلات غير مطروحة إطلاقاً، والأعجب من ذلك هو ما تكلفه العلماء فى الجواب عليها..

فقد نقل صاحب السيرة الشامية عدة أجوبة منها:

يقول الشيخ عز الدين بن عبد السلام: لا يسعد أن يكون انتقالها من الجسد الأول غير موجب لموته، لأن موت الأجساد بمفارقة الأرواح ليس بواجب عقلاً، وإنما هو بعادة مطردة أجراها الله فى أرواح بنى آدم فىبقى ذلك الجسد حياً لا ينقص من معارفه وطاعاته شىء..

ويقول العلامة علاء الدين القونوى: فى الممكن أن يخص الله بعض عباده فى حال الحياة بخاصة لنفسه الملكية القدسية، وقوة لها يقدر بها على التصرف فى بدن آخر غير بدن المعهود، مع استمرار تصرفها فى الأول.

وقد قيل فى الأبدال: إنهم إنما سموا أبدالاً، لأنهم قد يرحلون إلى مكان ويقيمون فى مكانهم شبحاً آخر تشبيهاً بشبحهم الأصلي بدلاً عنه.

وقد أثبت الصوفية عالماً متوسطاً بين عالمى الأجساد والأرواح، وبنوا على ذلك تجسُّد الأرواح وظهورها فى صور مختلفة من عالم المثال^(١)

وأظن أن هذه الإجابات عقدت القضية أكثر، وزادت المسألة غموضاً، والأمر أهون مما تصور هؤلاء!!..

(١) سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد، للإمام الصالحى الشامى، ج٢، ص٣٥٨

هذا والفرق بين صورة الوحي فى صلصلة الجرس، وصورة الوحي فى تشكىل الملك بصورة البشر؛ راجع إلى ضرورة المناسبة بين الملك والرسول بإيجاد العامل المشترك الذى يجمع بينهما حتى يمكن التلقى والتعليم والوعى..

ويكون ذلك إما بتقارب الرسول من الملك أو بتقارب الملك من الرسول، والحال الأولى هى الصلصلة بحيث تغلب الأوضاع الروحية، وتعلو فوق المدارك الإنسانية، وينخلع الرسول من صورته البشرية فى الوعى والإدراك.

وهذا الوضع يجعل الرسول فى شدة وتكلف ومجاهدة..

والحال الثانية هى تشكىل الملك بصورة البشر، ويظل الرسول فى مداركه الإنسانية المعتادة، فيسهل التلقى والحوار.

ويرى ابن خلدون أن الحال الأولى - وإن كانت أشد - أدنى مرتبة من الثانية، ويذهب إلى أن الأولى رتبة الأنبياء غير المرسلين، فهى بداية الخروج من أفق البشرية إلى أفق الملائكية..

وأن الثانية رتبة الأنبياء المرسلين الذين تمرسوا على الاتصال بالملأ الأعلى، وتكرر لديهم الانسلاخ من البشرية..

ويذهب ابن خلدون إلى أن التعبير النبوى بصلصلة الجرس وصورة الرجل على التمثيل وليس الحقيقة، تقريباً لحالى الوحي، وذلك بناء على نظريته فى ترتيب الموجودات وقدرتها على الانسلاخ من طبائعها إلى الرتبة العليا..

وذكر ابن خلدون الحديث الشريف: (أحياناً يأتينى مثل صلصلة الجرس وهو أشده علىّ فيفصم عنى وقد وعيت ما قال، وأحياناً يتمثل لى الملك رجلاً فيكلمنى فأعنى مايقول).

وعلق عليه قائلا: (واعلم أن الأولى، وهى حالة الدوى، هى رتبة الأنبياء غير المرسلين على ما حققوه، والثانية - وهى حالة تمثل الملك رجلاً يخاطب - هى رتبة الأنبياء المرسلين، ولذلك كانت أكمل من الأولى.

وإنما كانت الأولى أشد لأنها مبدأ الخروج في ذلك الاتصال من القوة إلى الفعل، فيعسر بعض العسر، ولذلك لما عاج^(١) فيها على المدارك البشرية اختصت بالسمع، وصعب ماسواه، وعندما يتكرر الوحي، ويكثر التلقى يسهل ذلك الاتصال، فعندما يعوج إلى المدارك البشرية يأتي على جميعها وخصوصاً الأوضح منها، وهو إدراك البصر..

وفي العبارة عن الوعي في الأولى بصيغة الماضي، وفي الثانية بصيغة المضارع لطيفة من البلاغة، وهي أن الكلام جاء مجيء التمثيل لحالتي الوحي، فمثل الحالة الأولى بالدوى الذي هو في المتعارف غير كلام، وأخبر أن الفهم والوعي يتبعه عقب انقضائه، فناسب عند تصوير انقضائه وانفصاله - العبارة عن الوعي بالماضي المطابق للانقضاء والانقطاع.

ومثل الملك في الحالة الثانية برجل يخاطب ويتكلم، والكلام يساوقه الوعي، فناسب العبارة بالمضارع المقتضى للتجدد...^(٢).

ونحن نرفض أن تكون العبارة النبوية تمثيلاً وليست حقيقة لما يلي:

أولاً : ابن خلدون فسر العبارة النبوية (مثل صلصلة الجرس) بأنها الدوى الذي هو في المتعارف غير كلام، وهذا خلط بين موقفين:

- موقف الرسول عند هذه الحال من الوحي، فكان صوت الملك أو حفيف أجنحة الملائكة المصاحبة لملك الوحي، من القوة والشدة مساقر به الرسول إلينا بمثل صلصلة الجرس.

- موقف الصحابة عندما تعثرى الرسول هذه الحال أنهم يسمعون دوى كدوى النحل، فقد روى الإمام أحمد والحاكم عن عمر بن الخطاب قال: (كان رسول الله ﷺ إذا أنزل عليه يسمع عند وجهه كدوى النحل).

فيتضح من ذلك أن الصلصلة تقرب لصوت الملك وليست تقريباً لحالة من الانسلاخ عن البشرية.

(١) عاج بالمكان : أقام فيه.

(٢) مقدمة ابن خلدون - تحقيق الدكتور على عبدالواحد وافي، ج ١، ص ٤٠٩.

ثانياً : إن تمثّل الملك بصورة الرجل حقيقة رآها الصحابة وصارت محل إجماع المسلمين، وليست تقريباً لمعنى معين، وحديث الإسلام والإيمان والإحسان وأشراف الساعة، جرت وقائعه أمام الصحابة، وأخبرهم الرسول ﷺ أن السائل هو جبريل أتاهم يعلمهم دينهم...

خامساً- رؤية الملك في صورته الحقيقية:

بعد لقاء الغار الأول انقطع الوحي فترة زمنية، اختلف العلماء في مدتها، والمشهور أنها سنتان ونصف، ثم انجلى الموقف، وتراءى للرسول جبريل عليه السلام في صورته الملائكية، ونزل عليه صدر سورة المدثر..

فقد أخرج البخاري في صحيحه في كتاب الوحي: أن جابر بن عبد الله الأنصاري قال وهو يحدث عن فترة الوحي فقال في حديثه: (بينما أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء فرفعت بصري فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فرعبت منه، فرجعت فقلت: زملوني، فأنزل الله تعالى: «يا أيها المدثر، قم فأندر...» إلى قوله: «والرجز فاهجر»^(١) فحمى الوحي وتتابع).

وزاد البخاري في رواية ساقها في باب التعبير:

(وفتر الوحي فترة حتى حزن النبي ﷺ - فيما بلغنا - حزناً غداً منه مراراً كي يتردّي من رءوس شواهق الجبال، فكلما أوفى بذروة جبل لكي يلقي منه نفسه تبدّى له جبريل فقال: يا محمد، إنك رسول الله حقاً، فیسكن لذلك جأشه وتقرّ نفسه، فيرجع، فإذا طالت عليه فترة الوحي غداً لمثل ذلك، فإذا أوفى بذروة جبل تبدّى له جبريل فقال له مثل ذلك).

وهنا موقف يحتاج إلى تأمل..

فهذه الرواية الأخيرة يفهم منها أن الرسول حاول أن ينتحر بإلقاء نفسه من شاهق الجبل حزناً على انقطاع الوحي!!..

(١) سورة المدثر الآيات ١ - ٥

ونحن إذا تأملنا هذه الرواية سنداً - نرى الإمام العيني يقول: (وهذا من بلاغات معمر، ولم يسنده، ولا ذكر راويه، ولا أنه عليه السلام قاله، ولا يعرف هذا من النبي ﷺ...) .

ومن العلماء من قبل هذه الرواية وحاول تعليلها، ويسوق الإمام العيني: (قد يحمل على أنه كان أول الأمر قبل رؤية جبريل عليه الصلاة والسلام كما جاء مبيناً عن ابن إسحاق عن بعضهم...) .

أو أنه فعل ذلك لما أخرج تذيب قومه، كما قال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ﴾ (١) ...

أو خاف أن الفترة لأمر أو سبب، فخشي أن يكون عقوبة من ربه، ففعل ذلك بنفسه، ولم يرد بعد شرع بالنهي عن ذلك فيعترض به، ونحو هذا فرار يونس عليه السلام حين تذيب قومه.. والله أعلم (٢) .
ونحن نرفض هذه الرواية سنداً ومتناً..

أما من جهة السند فنكتفي بما ساقه الإمام العيني، ولا نجعل للاحتتمالات نصيباً، مثل احتمال أن يكون بلغه من الثقات أو احتمال أن يكون بنفس الإسناد المذكور في حديث بدء الوحي.. فالاحتمال يسقط اليقين..
ومحاولات التعليل السابقة يشوبها الكثير..

فالحمل على أن ذلك كان قبل رؤية جبريل يسقطه نص الرواية القائل: (فكلما أوفى بذروة جبل لكي يلقي منه نفسه تبدى له جبريل فقال: يا محمد، إنك رسول الله حقاً) .

والحمل على أن فعله ذلك كان خشية تذيب قومه - غير منطقي، لأنه لم يكن كُلف بالرسالة والتبليغ، وما زال مستقبل الوحي غيباً بالنسبة له لا يدري ما الله صانع فيه .

والحمل على خوف أن الفترة لأمر ما فخشي أن يكون عقوبة من ربه، لو قبلناه من حيث الشكل فهو مرفوض من حيث الموضوع، فخوف عقوبة الله لا يدفع إلى

(١) سورة الكهف، الآية ٦

(٢) عمدة القارى شرح صحيح البخارى، ج ١ ص ٥٥

مزيد من المعصية، وكون الشرع لم يرد بعدُ بالنهي عن الانتحار ليس مبرراً، فإن من بداهة التفكير أن قتل النفس وقتل الغير سواء فى الجريمة..

ويضاف إلى ذلك كله أن سيدنا محمداً ﷺ لم يعد نفسه لرسالة، ولم يتوقع نبوة بنص قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (١).

ولا يتصور أن يستبد به الحزن أو يصل به الشوق إلى الانتحار، مع أن سيدنا محمداً ﷺ رجع من لقاء غار حراء يرجف فؤاده ويخشى على نفسه..!!

كل ما يمكن أن يقال: إن الرسول الكريم فى فترة الوحي حصلت له خواطر وتوقعات وإحياءات نفسية دفعت إليها الإرهاصات التى مربها فى الرؤيا الصالحة، والخلة فى الغار، ولقاء الملك، فلعله ﷺ غدا إلى شواهد الجبال تطلعا وترقبا للقاء جديد..



هذا ولقد ظهر جبريل للرسول مرة أخرى فى صورته الملائكية ليلة الإسراء والمعراج عند سدرة المنتهى، ذلك المكان العلوى الذى ينتهى إليه ما يهبط من فوق وما يصعد من تحت، والذى توقف عنده جبريل وترك محمداً ﷺ يزج به فى النور القدسى، وقال له: (وما منا إلا له مقام معلوم) (٢).

وإلى هاتين المرتين فى الرؤية لحقيقة جبريل يشير قوله تعالى: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى (٦) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى (٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى (٩) فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى (١٠) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى (١١) أَفَتَمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَى (١٢) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى (١٣) عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى (١٤)﴾ (٣).

وقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ﴾ (٤).

(١) سورة يونس، الآية ١٦.

(٢) سورة الصافات ١٦٤

(٣) سورة النجم، الآيات ١٤-٥.

(٤) سورة التكويد، الآية ٢٣.

ويؤكد هذا المعنى الحديث الشريف في صحيح مسلم بسنده عن مسروق قال: كنت متكئاً عند عائشة فقالت: يا أبا عائشة^(١)، ثلاث من تكلم بواحدة منهن فقد أعظم على الله الفرية..

قلت: ما هن؟ قالت: من زعم أن محمداً ﷺ رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية.

قال: وكنت متكئاً فجلست فقلت: يا أم المؤمنين أنظريني ولا تعجلي، ألم يقل الله عز وجل:

«وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْقِ الْمُبِينِ»^(٢)، «وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى»^(٣).

فقالت: أنا أول هذه الأمة سأل عن ذلك رسول الله ﷺ فقال: إنما هو جبريل لم أره على صورته التي خلق عليها غير هاتين المرتين، رأيتُه منهبطاً من السماء، ساداً عظم خلقه ما بين السماء والأرض.

فقالت: أو لم تسمع أن الله يقول: «لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ»^(٤).

أو لم تسمع أن الله يقول: «وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يَرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِي بِلَاذِنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيُّ حَكِيمٌ»^(٥).

قالت: ومن زعم أن رسول الله ﷺ كتم شيئاً من كتاب الله فقد أعظم على الله الفرية، والله يقول: «يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ»^(٦).

قالت: ومن زعم أنه يخبر بما يكون في غد فقد أعظم على الله الفرية، والله يقول: «قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ»^(٧).

(١) كنية مسروق الراوى، وهو تابعى

(٢) سورة التكوين الآية ٢٣

(٣) سورة النجم الآية ١٣

(٤) سورة الأنعام، الآية ١٠٣

(٥) سورة الشورى، الآية ٥١

(٦) سورة المائدة، الآية ٦٧

(٧) سورة النمل، الآية ٦٥.

ومن المعروف فى فقه العقيدة أن هناك خلافاً بين أهل السنة فى رؤية الرسول لربه عز وجل ليلة الإسراء والمعراج، وأن هناك فريقاً على رأسه أم المؤمنين عائشة ينكر هذه الرؤية ويفسر آيات النجم على أنها رؤية لجبريل.

وأن فريقاً آخر على رأسه عبدالله بن عباس يثبت الرؤية ويفسر آيات النجم على أنها رؤية لله عز وجل.

وليس فى المسألة قول قاطع ولا نص صريح، والأرجح هو رأى عائشة.. وفى صحيح الحديث أن أبا ذر سأل رسول الله ﷺ: هل رأيت ربك؟ فقال: (نور أنى أراه؟) (١).

وقد فسر النور بالحجاب فى حديث آخر: (حجابه النور)، فيكون الرسول ﷺ رأى الحجاب الذى هو النور، وقد منعه ذلك من رؤية الرب عز وجل.. وهناك استدلال طريف مأخوذ من ختام آية الإسراء وآية النجم، ففى آية الإسراء قال: ﴿لَنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾ (١).

وفى آية النجم قال: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ (٢). فالملحظ أن الآيتين هنا أثبتتا رؤية الآيات ولم تشيرا إلى رؤية الله، ولو وقعت رؤية الله سبحانه لكنت أولى بالتسجيل والتنبيه والإشارة!!

بل يذهب بعض العلماء إلى أهمية تفسير آيات النجم برؤية جبريل عليه السلام فيقول:

(ونحن إلى تقرير رؤيته لجبريل أحوج منا إلى تقرير رؤيته لربه تعالى، وإن كانت رؤية الرب تعالى أعظم وأعلى، فإن النبوة لا يتوقف ثبوتها عليها (رؤية الله) ألبتة) (٣).

(١) سورة الإسراء الآية ١

(٢) سورة النجم الآية ١٨

(٣) شرح العقيدة الطحاوية، ص ٢١٤ - طبعة المكتب الإسلامى سنة ١٣٩٩هـ،، وراجع ص ١٤٤ من كتابنا هذا

سادساً. المناجاة فى الحضرة الإلهية:

هذا اللون من الوحي وقع لسيدنا محمد ﷺ ليلة الإسراء والمعراج، حيث فرضت الصلاة على الأمة الإسلامية من خلال مناجاة علوية قدسية، ناجى فيها الرسول ربه تبارك وتعالى، واشترك فيها موسى عليه السلام..

وكان ذلك من وراء حجاب، فلم تثبت الرؤية لأحد من الأنبياء مطلقاً فى هذه الدنيا.. وتخيل معى حديثاً مع الله، هو الصدق كله، والصفاء كله، والنور كله، وتتقاصر الكلمات عن وصف هذه المناجاة، ونكتفى بما يقربها وهو النص الصحيح كما ورد عن المعصوم ﷺ.

ففى صحيح مسلم من رواية ثابت البناني عن أنس:

(ثم ذهب بى إلى السدرة المنتهى، وإذا ورقها كأذان الفيلة، وإذا ثمرها كالقلال.. قال: فلما غشيها من أمر الله ماغشى تغيرت، فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها.. فأوحى الله إلى ما أوحى، ففرض على خمسين صلاة فى كل يوم وليلة، فنزلت إلى موسى ﷺ، فقال: ما فرض ربك على أمتك؟ قلت خمسين صلاة. قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فإن أمتك لا يطيقون ذلك، فإنى قد بلوت بنى إسرائيل وخبرتهم.

قال: فرجعت إلى ربي فقلت: يارب خفف على أمتى.

فحط عني خمساً، فرجعت إلى موسى فقلت: حط عني خمساً. قال: إن أمتك لا يطيقون ذلك فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف.

قال: فلم أزل أرجع بين ربي تبارك وتعالى وبين موسى عليه السلام حتى قال: يا محمد إنهن خمس صلوات كل يوم وليلة، لكل صلاة عشر، فذلك خمسون. ومن هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له عشرين. ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب شيئاً، فإن عملها كتبت سيئة واحدة.

قال: فنزلت حتى انتهيت إلى موسى ﷺ فأخبرته، فقال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف.

فقال رسول الله ﷺ: فقلت قد رجعت إلى ربي حتى استحييت منه).

وننبه القارئ الكريم إلى بعض ملاحظات:

١ - جاء فى بعض الروايات أن المناجاة كانت بعد مرحلة سمع فيها صريف الأقلام، وهو صوت ماتكتبه الملائكة من أقضية الله تعالى ووحيه وما ينسخونه من اللوح المحفوظ أو ما شاء الله من ذلك أن يكتب..

وجاء فى بعض الروايات أن الوصول إلى سدره المنتهى كان بعد المناجاة.. وسدره المنتهى أو السدره المنتهى سميت بذلك لكونها ينتهى إليها ما يهبط من فوقها وما يصعد من تحتها، ولم يتجاوزها أحد إلا الرسول ﷺ. وعلى كل فالمناجاة وقعت فى مكان علوى روحى وضاء.

وليكن معلوماً أن محمداً ﷺ فى تلك المناجاة لم يكن أقرب إلى الله مكاناً من موسى عليه السلام وهو فى طور سيناء، وإن كان أقرب إلى الله مكانة ومنزلة ورفعته.. ٢ - جاء فى بعض الروايات: (فراجعت ربي فوضع شطرها، قال: فرجعت إلى موسى عليه السلام فأخبرته، قال: ارجع إلى ربك فإن أمتك لا تطيق ذلك، قال: فراجعت ربي، فقال: هي خمس وهي خمسون، لا يبدل القول لدى).

وفى رواية: (فوضع عنه عشر صلوات ثم رجع إلى موسى فاحتبسه، فلم يزل يردده موسى حتى صارت إلى خمس صلوات).

ولعل الرواية التى فيها الخط خمساً هى الأصل، وباقى الروايات اختصرت وأوجزت المراجعات.

٣ - لعل اختصاص موسى عليه السلام بالمراجعة فى أمر الصلاة باعتباره صاحب الشريعة السابقة، فإن التوراة هى الأصل الذى توارد عليه أنبياء بنى إسرائيل، حتى إن الجن أنفسهم تفتنوا لهذا المعنى وقالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى﴾ (١).

ومن جهة أخرى فإن موسى هو كليم الله وصاحب المناجاة فى الوادى المقدس طوى، وشأن أصحاب المقامات المتشابهة أن يتلاقوا (٢).

(١) سورة الأحقاف، الآية ٣٠ (٢) راجع كتابنا: «الرسول حول الكعبة»، فى المبحث الثانى.

سابعاً: تذييل

يضيف بعض العلماء نوعاً آخر للوحي يسمونه النفث في الرُّوع، ويستشهدون له بحديث يقول فيه النبي ﷺ: (إن روح القدس نفث في روعي، لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب، ولا يحملنكم استبطاء الرزق على أن تطلبوه بمعصية الله، فإن ما عند الله لن ينال إلا بطاعته).

قال الصالحى: رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب القناعة، والحاكم (١).

ونحن نرى أن إلقاء الملك فى قلب النبى لون من ألوان الوحي السابقة المتعلقة بجبريل، وعلى الأخص من باب صلصلة الجرس..

كذلك يضيفون نوعاً من الكلام الإلهى من وراء حجاب، وذلك برؤية الرب تبارك وتعالى مناماً، ويسوقون حديثاً تعددت طرقه، منها:

(احتبس عنا رسول الله ﷺ ذات غداة من صلاة الصبح حتى كدنا نترأى عين الشمس، فخرج سريعاً، فثوب بالصلاة، فصلى رسول الله ﷺ، وتجاوز فى صلاته، فلما سلم دعا بصوته

فقال لنا: على مصافكم كما أنتم، ثم انفتل إلينا فقال: أما إنى سأحدثكم ما حبسنى عنكم الغداة..

إنى قمت من الليل فتوضأت فصليت ما قُدر لى، فنعست فى صلاتى فاستثقلت، فإذا أنا بربى تبارك وتعالى فى أحسن صورة، فقال: يا محمد، قلت: رب ليك، قال: فيم يختصم الملائ الأعلى؟.

قلت: لا أدري رب، قالها ثلاثاً.

قال: فرأيتَه وضع كفه بين كتفى، فوجدت برد أنامله بين ثدييَّ، فتجلى لى كل شئ وعرفت..

فقال: يا محمد، قلت: ليك رب.

قال: فيم يختصم الملائ الأعلى؟

قلت: فى الكفارات. قال: ماهن؟

(١) نقلاً عن كتاب «سبل الهدى والرشاد»، ج ٢، ص ٣٥٢.

قلت: مشى الأقدام إلى الجماعات، والجلوس في المساجد بعد الصلاة، وإسباغ الوضوء في المكروهات..

قال: ثم فيم؟ قلت: إطعام الطعام، ولين الكلام، والصلاة بالليل والناس نيام. قال: سل، قلت: اللهم إني أسألك فعل الخيرات، وترك المنكرات وحب المساكين، وأن تغفر لي وترحمني، وإذا أردت فتنة في قوم فتوفني غير مفتون، وأسألك حبك وحب من يحبك وحب عمل يقربني إلى حبك. قال رسول الله ﷺ: إنها حق فادرسوها ثم تعلموها).

ونحن أمام هذا الحديث نضع مجموعة ملاحظات:

أولاً: علماء السنة مجمعون على أن رؤية الله تعالى يقظة لم تقع لأحد في الدنيا قبل سيدنا محمد ﷺ، بل لم تقع لأحد مطلقاً كما هو رأى السيدة عائشة، فكيف نتصور وقوعها مناماً؟!.

فإذا أضفنا مافى هذه الروايات من رؤية الرب تبارك وتقدس على أحسن صورة أو على صورة شاب، ووضع الكف وبرد الأنامل^(١). كان التوقف في قبولها راجحاً.

ثانياً: إن الحديث يبدو أنه مقلوب المعنى، فهو يثبت أن الله تعالى هو السائل وأن الرسول هو المجيب، والشأن الصحيح أن يكون الرسول سائلاً ربه عما يجرى في الملأ الأعلى..

ومما يؤكد الاضطراب في هذا الحديث أن الدعاء المذكور في آخره ينسب مرة إلى الله تعالى تعليماً لرسوله، وينسب أخرى إلى الرسول تضرعاً إلى مولاه.. ففى رواية للترمذى عن ابن عباس: (وقال: يا محمد، إذا صليت فقل اللهم إني أسألك فعل الخيرات.. إلخ).

وفى رواية لأحمد عن بعض أصحاب النبي ﷺ: (وقال: يا محمد، إذا صليت فقل اللهم إني أسألك الطيبات... إلخ).

وفى رواية للترمذى عن معاذ بن جبل: (قال: سل، قلت: اللهم إني أسألك فعل الخيرات.. إلخ).

(١) راجع الروايات فى: (مجمع الزوائد ومنبع الفوائد) للإمام الهيثمى، ج ١، ص ٢٣٧، وج ٧، ص ١٧٦، طبعة دار الكتاب العربى.

ويضاف إلى ذلك اضطراب آخر، وهو هل وقعت هذه الرؤية مناماً أم يقظة؟ وهل كانت في صلاة أم لا؟!

ففي رواية الترمذى عن ابن عباس قال: (أحسبه قال في النوم).

وفى رواية الترمذى عن معاذ قال: (فنعست في صلاتى فاستثقلت فإذا أنا بربى تبارك وتعالى فى أحسن صورة).

وفى رواية لأحمد: (فنعست فى صلاتى حتى استيقظت فإذا أنا بربى عز وجل فى أحسن صورة..).

وذهب بعض الشراح إلى أن رواية (حتى استيقظت) تصحيف، وأن المحفوظ هو (حتى استثقلت) (١).

ثالثاً: بعض المفسرين ساق هذا الحديث تفسيراً للآية الكريمة: ﴿مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ (٢).

والحديث والآية بينهما بون شاسع، فالآية تثبت الوحي للنبي ﷺ بإعلامه بالغيب الذى أوحاه الله تعالى فى شأن آدم واختصاص الملائكة حول خلقه وأمر الله لهم بالسجود، ولنقرأ ما قبلها وما بعدها: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ (٦٧) أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ (٦٨) مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٦٩) إِنْ يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنْبَأُ أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٧٠) إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ (٣).

والحديث يتعلق بالوضوء والصلاة والحسنات.. فما العلاقة بينهما؟!

وقد تفتن الإمام ابن كثير لذلك فقال: (وليس هذا الاختصاص هو الاختصاص المذكور فى القرآن، فإن هذا (أى المذكور فى الحديث) قد فسر، وأما الاختصاص الذى فى القرآن فقد فسر بعد هذا، وهو قوله تعالى: (إذ قال ربك للملائكة) (٤).

(١) راجع: (تحفة الأحوذى شرح جامع الترمذى) - تحقيق الدكتور عبد الوهاب عبد اللطيف، ج ٩، ص ١٠٢.

(٢) سورة ص، الآية ٦٩

(٣) سورة ص، الآيات ٦٧ - ٧٢.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ج ٤، ص ٤٣. وراجع موضوع الرؤية فى كتابنا «الإلهيات فى العقيدة الإسلامية» ط دار الاعتصام.

الفصل الثاني

شبهات حول الوحي الموحى

- تمهيد.
- الشبهة الأولى: البشرية.
- الشبهة الثانية: السحر.
- الشبهة الثالثة: الجنون.
- الشبهة الرابعة: الصرع.

قد نجد إنساناً يؤمن بموسى أو عيسى عليهما السلام وينكر نبوة محمد ﷺ .
وقد نصادف إنساناً يؤمن بالله تعالى وينكر الرسالات جميعاً .
وقد نلتقى بإنسان ملحد لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر .
ولا أظن أن المنكرين للوحي المحمدى يخرجون عن هذه الأصناف الثلاثة،
وموقفنا مع هؤلاء يكون على النحو التالي:

أما الأول فلا يستطيع أن يتنكر لحالات الوحي المختلفة، لأن طبيعة الوحي -
في جوهرها - واحدة لا تتباين من نبي لآخر، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ
كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ
وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ
زَبُورًا﴾ (١).

وأما الثانى فهو واقع فى تناقض غريب، حيث آمن بالله وكفر برسله، وكان
عليه أن يتفحص الدلائل، ويتحقق من المعجزات، ويتعرف على حاجة البشر
للرسالات، ويدرك قصور العقل البشرى..

وأما الثالث فالخلاف معه ليس فى إنكار النبوة فحسب وإنما فى إنكار الخالق
المدير الحكيم، فالإيمان بالله مقدمة ضرورية لإثبات النبوات، ولا يتصور إيمان بالنبوة
دون إيمان بمصدر الوحي فيها..

والجدل مع هذا النوع يكون بلفت النظر إلى آيات الأنفس والآفاق، وحكمة
الوجود، ودقة نظام الكون، وإبداع الصنع فى الكائنات..
وعندما يصل إلى عتبة الإيمان بالله يستطيع أن يتفهم شخصية الأنبياء
والضرورة القصوى لبعثتهم..

(١) سورة النساء، الآية ١٦٣

وهنا يمكن أن يلتقى مع النوعين السابقين، ويراجعوا - جميعاً - ملامح الشخصية المحمدية، والعمق التاريخي، وبشائر الأنبياء، والضرورة الإنسانية لرسالة الإسلام، والمعجزة الكبرى لهذا النبي الخاتم...

وبذلك يصلون إلى حقيقة الحقائق وكبرى اليقينيّات، وهى:

أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله.

هذا وقد أُثيرت شبهات حول الوحي المحمدي، وهى - فى حقيقتها - تريد لشبهات تقولها أعداء الرسل فى كل زمان ومكان..

وسنشير إلى بعض هذه الشبهات وندحض باطلها...

وليكن معلوماً أن الدفاع عن الوحي المحمدي هو دفاع عن شرف الأنبياء جميعاً، وأن إثبات النبوة لسيدنا محمد ﷺ والإيمان برسالته إنما هو إثبات لنبوة الأنبياء، وإيمان بهم جميعاً..

قال تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ (١).

وقال جل شأنه: ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (٢).

(١) سورة البقرة، الآية ٢٨٥

(٢) سورة آل عمران، الآية ٨٤.

الشبهة الأولى: البشرية

تساءل مشركو مكة وتعجبوا كيف يكون النبي بشراً، له خصائص البشرية في المأكل والمشرب وكافة شئون المعاش؟!.

وحكى القرآن المجيد مقاتلتهم هذه فقال:

﴿وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ (١).

﴿وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ (٢).

وتلك الشبهة الجاهلية سرت على لسان جميع الأمم.

قالوها لنوح عليه السلام: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا﴾ (٣).

﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ (٤).

فقوم نوح عليه السلام استبعدوا أن تكون النبوة في البشر، وظنوا أن المسألة شهوة تسلط، ثم أمعنوا في التضليل، فزعموا أن هذا حدث لم يسبق...

وقالها قوم موسى وهارون عليهما السلام.

﴿فَقَالُوا أَنْتُمْ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ﴾ (٥).

وقالها أصحاب القرية لرسولهم:

﴿قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ (٦).

وحكى القرآن هذا المعنى على وجه العموم فقال:

(٢) سورة الفرقان، الآية ٧

(٤) سورة المؤمنون، الآية ٢٤

(٦) سورة يس، الآية ١٥

(١) سورة الأنبياء، الآية ٣

(٢) سورة هود، الآية ٢٧

(٣) سورة المؤمنون، الآية ٤٧

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ (١).

وكان منهج القرآن المجيد في معالجة هذه الشبهة على النحو التالي:
أولاً: إن محمداً ﷺ ليس بدعاً من الرسل، وكافة الأنبياء بشر، يجوز عليهم مايجوز على البشر مما لا يقدر في مراتبهم العالية..
فالأنبياء يأكلون ويشربون:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ (٢).

﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ (٣).

والأنبياء يتزوجون ويتناسلون:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ (٤).

ثانياً: إن النبوة اصطفاء من الله لمن يشاء من عباده، والتمايز بين الأنبياء والبشر إنما هو في الوحي وتلقى الشرائع.. وتلك قضية لا اختيار للنبي فيها، وليست من تلقاء نفسه..

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (٥).

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ (٦).

ثالثاً: إن الملك لا يصلح أن يكون رسولا للبشر، لبعد الفجوة بين الملك والبشر فلا يكون المثل الأعلى قريباً للمحاكاة، ثم إن الإنسان ليس لديه القدرة على رؤية

(١) سورة الإسراء، الآية ٩٤

(٢) سورة الفرقان، الآية ٢٠

(٣) سورة الأنبياء، الآية ٨

(٤) سورة الرعد، الآية ٣٨

(٥) سورة إبراهيم، الآية ١١

(٦) سورة الكهف، الآية ١١٠

الملك في صورته الحقيقية، فيحتاج الأمر إلى أن يتشكل الملك في صورة آدمي، وهنا يشبه الأمر ويعود التساؤل: هل هو ملك أو بشر؟!

وقد جرت سنة الله في خلقه أنه عند تلبية مطالب المعاندين ثم عدم استجابتهم للإيمان يستأصلهم الله تعالى بعذاب من عنده.

فكان من اللطف بالبشر أن أنبياءهم من جنسهم.

﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ
(٨) وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ﴾ (١).

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ (٢).

﴿لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٧) مَا نُنْزِلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ﴾ (٣).

الشبهة الثانية: السحر

سلك مشركو مكة مسالك شتى للنيل من الوحي المحمدي والإعجاز القرآني، وضاق بهم التفكير، واستبد بهم القلق، وسيطر عليهم الفزع الأكبر، فأطلقوا ألسنتهم بالسوء وزعموا مزاعم باطلة، فنسبوا الرسول ﷺ إلى السحر، واعتبروا المعجزة القرآنية ضرباً من السحر.. وحكى القرآن مقاتلتهم فقال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (٤).

وروت كتب السيرة: أن عتبة بن ربيعة - وكان سيداً مطاعاً في قريش - قال يوماً وهو جالس في نادي قريش: (يامعشر قريش، ألا أقوم لمحمد وأكلمه وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها فنعطيه إياها ويكف عنا؟!).

(٢) سورة إبراهيم، الآية ٤.

(٤) سورة سبأ، الآية ٤٣.

(١) سورة الأنعام، الآيتان ٨ و ٩.

(٣) سورة الحجر، الآيتان ٧ و ٩.

قالوا: يا أبا الوليد، فقم إليه فكلمه.

فقام عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ فقال: يا ابن أخي، إنك منا حيث قد علمت من السطة^(١) في العشيرة، والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، مزقت به جماعتهم، وسفهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفرت به من مضى من آبائهم..

وفى رواية أنه قال أيضاً:

أنت خير أم عبد الله؟ أنت خير أم عبد المطلب؟!

إن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك فقد عبدوا الآلهة التي عبت، وإن كنت تزعم أنك خير منهم فقل يسمع لقولك، لقد فضحتنا في العرب حتى طار فيهم أن في قريش ساحراً، وأن في قريش كاهناً، ما تريد إلا أن يقوم بعضنا لبعض بالسيوف حتى نتفانى..!!

فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها.

فقال ﷺ: قل يا أبا الوليد أسمع..

فقال: يا ابن أخي إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا.

وإن كنت تريد شرفاً سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك.

وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا.

وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً من الجن تراه لا نستطيع ردهً عن نفسك طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى..

حتى إذا فرغ عتبة قال الرسول ﷺ:

(١) أي من الوسط، أي الخيار حسباً ونسباً

لقد فرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم.

قال: فاسمع مني، فقرأ رسول الله ﷺ.

﴿حَمْدٌ (١) تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٢) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣) بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ...﴾ (١).

ثم مضى رسول الله ﷺ فيها فقرأها عليه، وقد أنصت عتبة لها وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليها، يسمع منه، ثم انتهى الرسول ﷺ إلى قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ (٢).

فأمسك عتبة على فيه ﷺ وناشده الرحم أن يكف عن ذلك ثم انتهى إلى السجدة فيها فسجد ثم قال:

قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك...!!

فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض:

لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به...!!

فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد...!!

قال: ورائي أني سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة..

يا معشر قريش أطيعوني، فاجعلوها لي، خلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه، فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به..

قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه...!!

(٢) سورة فصلت، الآية ١٣

(١) سورة فصلت، الآيات ١ - ٤

قال: هذا رأى فيه فاصنعوا ما بدالكُم..»(١).

وهذا الفكر الجاهلى هو فكر كل مجتمع ضال منحرف يصم آذانه عن دعوة الحق، ويغمض عينه دون نور الهداية..

لقد ألصقت تهمة السحر بكل نبي جاهد فى الله حق جهاده.

قالها فرعون لموسى عليه السلام:

«فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا»(٢).

وظن سحرة فرعون أن موسى ينافسهم اختصاصهم ويزاحمهم عملهم: «قَالُوا إِنَّ هَٰذَا نَسَاحِرَٰنِ يَرْيِدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَّىٰ (٦٣) فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ اتُّوًّا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ»(٣).

ويشاء الله أن يشرق نور الإيمان فى قلب هؤلاء السحرة ويدركوا الفرق بين فعل الخالق وفعل الخلق، ويميزوا بين الحقيقة والخيال..

«فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ»(٤).

ووصلت التهمة إلى صالح وشعيب عليهما السلام:

«قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ»(٥).

والمسحر صيغة مبالغة من المسحور، أى أثر فيه السحر حتى غلب على عقله ووعيه فلا يكاد يفكر.

وسواء كانت التهمة أن النبى ساحر أو مسحور أو مسح، فإن لها صلة بالكهانة والكهان، فيجمعها الاتصال بالجن أو تسخيرهم أو التأثير به.

(١) السيرة الحلبية، ج١، ص٨٦

(٢) سورة الإسراء، الآية ١٠١

(٣) سورة طه، الآيتان ٦٣ و ٦٤

(٤) سورة طه، الآية ٧٠

(٥) سورة الشعراء، الآيتان ١٥٣ ، ١٨٥

ويمكن أن تتمثل منهج القرآن المجيد في رد هذه الشبهة على النحو التالي:

أولاً: إن مرددى هذه الشبهة لايعنيهم الحق في ذاته، وأمرهم قائم على العناد والمكابرة، ولو شاءوا لأنكروا الشمس في رابعة النهار..

قال الله تعالى: «وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ» (١).

لقد بلغ من سفاهة القوم أن لو اجتمع لديهم الإدراك بالبصر واللمس باليد لظلوا على عنادهم وادعائهم أن هذا الكتاب سحر..

وقال جل شأنه: «وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ» (١٤) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ» (٢).

وهذا مثل آخر لمدى مكابرتهم في الحق وجدالهم بالباطل، فلو صعدوا إلى السماء واخترقوا الحجب وعاینوا الملاء الأعلى.. ما زادهم ذلك إلا استكباراً.

ثانياً: إن العقل الإنساني الراشد هو فيصل التفرقة بين الحق والباطل، وهو آلة النظر والفكر، وقانون الاعتبار.. فهلا تأملوا في حياة الرسول قبل البعثة وبعدها؟!

أليس هو الصادق الأمين؟!

وهلا تأملوا فيما صاحب النبوة من آيات؟!

أليسوا عاجزين عن الإتيان بمثليها؟!

يقول سبحانه: «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ» (٤٣) وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِّنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَّذِيرٍ (٤٤) وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا مَعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٥) قُلْ إِنَّمَا أَعْظَمُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَىٰ شِئْنِي وَفِرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّنْ

(١) سورة الأنعام، الآية ٧

(٢) الحجر، الآيتان ١٤ و ١٥

جَنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ» (١).

فرفض هؤلاء للإيمان لا يستند إلى نقل شرعى سابق، ولا تفكير راشد.. فلم يسبق لأهل مكة تعامل مع الأنبياء ولا معرفة بأحوالهم، واغترارهم بما منحه الله لهم من قوة أو مال لا يغنى عن الحق شيئاً، وسبقتهم أمم أكثر أموالاً وأولاداً كذبوا فحاق بهم اللعنة..

ثم دعتهم الآيات إلى أمر فيه نصفة، وهو أن يفرّدوا الوجهة لله، ويخلصوا في طلب الحق، ويتأملوا دعوة هذا الرسول وسلوكه وتصرفاته وكافة ما يتعلق بشئون حياته؛ تأملاً فيه روية، فلن يجدوا مطعناً في خلق، ولا انحرافاً في سلوك، ولا طمعاً في رئاسة، ولا حباً في ظهور، وما مسه جنّ ولا لحق به جنون..

وإلى هذا المعنى تشير آية أخرى: «أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ (٦٨) أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ (٦٩) أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُم لِلْحَقِّ كَارِهُونَ» (٢).

ثالثاً: إن هناك فروقاً أساسية واضحة بين النبوة والسحر، في مصدرهما والموصوف بهما والأثر الناتج عنهما..

فمصدر النبوة هو الله تعالى الذى يصطفى من يشاء من عباده، والله هو أهل التقوى وأهل المغفرة، وهو سبحانه نور السموات والأرض، وهو جل شأنه الرحمن الرحيم.. «وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ» (٣).

أما مصدر السحر فهو شياطين الجن، المتمردون على الطاعة، المتربصون بالإنسان، وشعارهم قول إبليس الأول: «لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لَا تَنَالُهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ» (٤).

(١) سورة سبأ، الآيات ٤٣ - ٤٦

(٢) سورة المؤمنون، الآيات ٨٦ - ٧٠

(٣) سورة الزخرف الآية ٨٤.

(٤) سورة الأعراف، الآيتان ١٦ و ١٧

وصاحب النبوة هو الإنسان الكامل والنموذج الرفيع للبشرية، وسيرته أنقى سيرة يعرفها التاريخ..

أما الساحر فهو الأفاك الأثيم، همته دنيئة، وسلوكه منحرف، وغايته سلب أموال الناس وهتك أعراضهم..

وأثر النبوة هو صلاح المجتمع وكرامة الإنسان في الدنيا وسعادته في الآخرة، وأثر السحر هو تفريق الشمل وتمزيق الوحدة والإفساد في الأرض..

وقد أكد القرآن هذه المعاني في أكثر من آية، فقال في مصدر السحر: «وَمَا تَنَزَّلُ بِهِ الشَّيَاطِينُ (٢١٠) وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ (٢١١) إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ» (١).

وقال في صاحب السحر: «هَلْ أَنْبَأَكُمْ عَلَىٰ مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَاذِبُونَ» (٢).

وقال في أثر السحر: «وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ» (٣).

وقد طهر الله ساحة النبي عن التعلق بحطام الدنيا، وأكد استقامة الهدف ونقاءه فقال: «أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَجَ رَبُّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٧٢) وَإِنَّكَ لَتَدْعُهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» (٤).

وفي آية أخرى: «قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ» (٥).

وقد وضع هذا المعنى وتأكد لدى كافة الأنبياء، فقال نوح عليه السلام: «وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ» (٦).

وقال هود عليه السلام: «يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ» (٧).

(٢) سورة الشعراء، الآيات ٢٢١ - ٢٢٣

(١) سورة الشعراء، الآيات ٢١٠ - ٢١٢

(٤) سورة المؤمنون، الآيتان ٧٢ و ٧٣

(٣) سورة البقرة، الآية ١٠٢

(٦) سورة هود، الآية ٢٩

(٥) سورة الشورى، الآية ٢٣

(٧) سورة هود، الآية ٥١

فما أبعد النبوة عن السحر...!! وما أرفع مكانة الأنبياء...!!

رابعاً: حرص القرآن المجيد كثيراً على تأكيد منع استراق السمع، وحفظ السماء من مردة الجن وحجبهم عنها والحيلولة بينهم وبين تلقف الأخبار من الملأ الأعلى، واعتبر ذلك إرهاباً بالنبوة الخاتمة..

قال تعالى: «وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (١٧) إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ» (١).

وقال جل شأنه: «وَحَفِظْنَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ (٧) لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيُقَذَّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ (٨) دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَأَصِيبٌ (٩) إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَاتَّبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ» (٢).

وقد حكى القرآن في سورة الجن تلك الوقائع، ما ضيها وحاضرها، وذكر ما اعتري الجن من تساؤلات حين انقلب الأمر عليهم، فقال: «وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلْتَأَةً حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا (٨) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شُهَابًا رَصَدًا (٩) وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا» (٣).

هذا.. ولعل قائلًا يزعم: أليس هذه التأكيدات تتنافى مع ما ثبت من أن النبي ﷺ سحره لبيد بن الأعصم، فيكون النبي مسحوراً؟!!

ونقول: إن حديث السحر هذا ذكرته كتب الصحاح، ونصه - كما في البخاري (كتاب الطب) - عن عائشة رضي الله عنها قالت: سحر رسول الله ﷺ رجلٌ من بنى زريق، يقال له: لبيد بن الأعصم (٤)، حتى كان رسول الله ﷺ يمثل إليه أنه كان يفعل الشيء وما فعله، حتى إذا كان ذات يوم - أو ذات ليلة - وهو عندي - لكنه دعا ودعا..

(١) سورة الحجر، الآيتان ١٧ و ١٨

(٢) سورة الصافات، الآيات ٧ - ١٠

(٣) سورة الجن، الآيات: ٨ - ١٠

(٤) من اليهود المنافقين.

ثم قال: يا عائشة أشعرت أن الله أفتانى فيما استفتيته فيه، أتانى رجلان^(١)
فقعد أحدهما عند رأسى، والآخر عند رجلى، فقال أحدهما لصاحبه: ما وجع
الرجل؟ فقال: مطبوب^(٢).

قال: من طبه؟ قال: لبيد بن الأعصم.

قال: فى أى شىء؟ قال: فى مشط ومشاطة وجف طلع نخلة ذكر^(٣).

قال: وأين هو؟ قال: فى بئر ذروان^(٤).

فأتاها رسول الله ﷺ فى ناس من أصحابه.

فجاء فقال: يا عائشة كأن ماءها نقاعة الحناء أو كأن رءوس نخلها كأنه
رءوس الشياطين^(٥).

قلت: يا رسول الله، أفلا استخرجته؟ قال: قد عافانى الله فكرهت أن أثور على
الناس فيه شراً^(٦)، فأمرت بها فدفنت^(٧).

وفهمنا لهذا الحديث على النحو التالى:

١ - إن واقعة هذا السحر كانت فى العام السابع للهجرة، أى بعد البعثة
بعشرين سنة، وادعاء المشركين أنه ﷺ مسحور كان فى العهد الملىّ.

(١) فى بعض الروايات أنهما ملكان هما جبريل وميكائيل.

(٢) أى مسحور، يقال: طُب الرجل إذا سحر، كنوا عن السحر بالطب تفاؤلاً كما قالوا للديغ سليم.

(٣) المشط - بضم فسكون - الآلة المعروفة التى يسرح بها الشعر، والمشاطة - بضم الميم وتخفيف الشين - ما
يخرج من الشعر عند التسريح، وجف - بضم أوله وتشديد ثانيه - وهاء طلع النخل، وهو الغشاء الذى
يكون عليه، ويطلق على الذكر والأنثى، ولذلك وصفه بقوله: «ذكر»، والطلع ما يطلع من النخل وهو
الكء قبل أن ينشق، وهو شىء أبيض تشبه رائحته المنى.

(٤) موضع خارج المدينة.

(٥) تشبيهات لرداءة الماء وقبح المنظر.

(٦) لم يرغب الرسول فى استخراج السحر فينتشر الموضوع وتقع فتن بين اليهود والمسلمين.

(٧) أمر بالبئر فطمست معالمها وسواها بالأرض.

٢ - إن السحر المقطوع بعصمة النبي ﷺ منه هو ما يتعلق بالتبليغ عن الله تعالى، وهو الذى نفاه القرآن فى مثل قوله: «وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا (٨) انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا» (١).

وتأثير السحر فى بدن النبي ﷺ فيما وراء ذلك يعد من باب الأمراض الخفيفة التى لا تقدح فى النبوة.

٣ - إن الشيء الذى كان يظن ﷺ أنه يفعله، وما فعله، فسرته رواية أخرى صحيحة خرجها البخارى عقب ذكر الرواية السابقة، وهو (كان يرى أنه يأتى النساء ولا يأتينهن).

فإذن تعلق السحر بهذا الجانب فقط، ولم يكن له تأثير على قواه العقلية.

٤ - نصت الرواية على أنه ﷺ (دعا ودعا)، والمعنى أنه توجه إلى الله جل شأنه بالدعاء الضارع، وألح فى الدعاء كعادته ﷺ فى تكرير مسأله من ربه واستغفاره لخالفه.. الأمر الذى يؤكد سلامة الوعى، وصدق التوجه واستقامة التفكير.

●●●

الشبهة الثالثة : الجنون

أطلق المشركون ألسنتهم وأيديهم بالسوء على رسول الله ﷺ، واختلقوا الأكاذيب فقالوا: إن محمداً مجنون...!!
لماذا؟!.

لأنه جعل الآلهة إلهاً واحداً، ولأنه أمرهم بالنظر والفكر! وبلغ من سفاهة القوم أن قالوا لأبى طالب: (يا أبا طالب، هذا عمارة بن الوليد، أنهد فتى فى قريش وأجمله، فخذ، فلك عقله ونصره، واتخذه ولداً فهو لك، وأسلم إلينا ابن أخيك هذا الذى قد خالف دينك ودين آبائك، وفرق جماعة قومك وسفه أحلامنا، فنقتله، فإنما هو رجل برجل...!!)

(١) سورة الفرقان، الآيتان ٨ و ٩

قال أبو طالب: والله لبئس ما تسومونني...!! أتعطوني ابنكم أغذوه لكم وأعطيكُم ابني تقتلونه...!! هذا والله ما لا يكون أبداً^(١).

وقد عرض القرآن مقالة هؤلاء السفهاء وناقشهم، وبين لهم طرائق الوصول إلى الحق، وكشف عن دخائل نفوسهم الخبيثة.

ولو تتبعنا حديث القرآن عن هذا الجانب فسنجده على النحو التالي:
أولاً: قال تعالى: «وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ»^(٢).

والذكر هو القرآن، وسمى به لشرف القرآن وعلو قدره، ولما فيه من الموعظة وخبر القرون السوالمف..

وعندما قال المشركون: «يا أيها الذي نزل عليه الذكر» قصدوا الاستهزاء والتهكم..

فكان الرد المناسب لافتراءهم هو: «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ»^(٣)، فما اتخذتموه سخرياً؟ كتاب عظيم القدر فيه شرفكم، وعز من آمن به، وهو تنزيل الملك العلام، وسيظل محفوظاً بعناية الله، يؤلف القلوب حوله، ويلهم الصدور حفظه، ويجعل العقول تهتم بشأنه، وتتوارثه الأجيال تواتراً متصلاً..

ثانياً: بين القرآن استكبارهم وافتراءهم فقال: «إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (٣٥) وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَّاكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ»^(٤).

فالقضية عند هؤلاء ليست بحثاً عن الحق، وليست معرفة بالقيم، وليست التزاماً بالصدق، وإنما هي التقاليد البالية والأعراف الفاسدة، والتعلق بمظاهر الحياة الخادعة.

(١) البداية والنهاية - ابن كثير، ج ٣، ص ٤٨

(٢) سورة الحجر، الآية ٦

(٣) سورة الحجر، الآية ٩

(٤) سورة الصافات، الآيتان ٣٥ و ٣٦

وقد أوقعهم هذا فى التخبط، فحين يريدون اتهام الرسول بالجنون حيث لا فكر ولا وعى ولا اختيار - يجمعون عليه وصف الشعر حيث الخيال الجامح، والتعبير الساحر، واختيار اللفظ البديع، والإيقاع المؤثر.

وكان الرد القرآنى هنا هو: ﴿بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١).

والحق هو الثابت، وهو المطابق للواقع، والمجنون لا يعرف الحق، والشاعر لا يلتزم بالواقع..

والدعوة إلى الحق هى رسالة كل نبي، وقد التقى هتاف محمد ﷺ بهتاف إخوانه المرسلين، وتطابقا فى المبدأ والمعاد وأصول العبادات ومكارم الأخلاق.. فليس فى الأمر اختلاق ولا وهم..

ثالثاً: كشف القرآن عن تخلف القوم العقلي مع وضوح الدلائل وقوة البراهين فقال: «أَنْتَ لَهُمُ الذِّكْرُ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ (١٣) ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلِّمٌ مَّجْنُونٌ» (٢).

فدلائل النبوة واضحة، وكل من تأمل حياة محمد قبل الرسالة وبعدها عرف أنه الصادق الأمين، أيده الله بالمعجزة التى تتحداهم صباح مساء أن يأتوا بمثله.. ومع ذلك يختفى جانب العقل ويلغى التفكير السليم، وتلقى التهم بعشوائية وتخبط، فيقال: إن محمداً تلميذ فاشل مخبول العقل..!! فمتى كان محمد - ﷺ - تلميذاً؟!

ومتى جلس إلى معلم؟ ومتى اعتراه الجنون؟!

رابعاً: حرص القرآن فى موضعين على تأكيد أن الاصطفاء الإلهي للوحي نعمة على محمد ﷺ، وأن الله خير الشاهدين على خلقه وسلوكه..

فقال فى سورة الطور:

«فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ» (٣) .. الآيات.

(٢) سورة الدخان، الآيتان ١٣ و ١٤

(١) سورة الصفات، الآية ٣٧

(٣) سورة الطور، الآية ٢٩ وما بعدها

وقال في سورة القلم: «مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (٣) وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خَلْقٍ عَظِيمٍ» (١).

وأعقب ذلك في السورة الأولى التحدى بالقرآن فقال: «فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ» (٢).

وتلا ذلك في السورة الثانية تحد من نوع آخر، يمكن أن نسميه التحدى بالخلق والسلوك المحمدي، فقال: «فَسَتَبْصِرُ وَيَصْبِرُونَ (٥) بِأَيِّكُمْ الْمَفْتُونُ» (٣).

أى فستعلم يا محمد ويعلم الناس كافة من المجنون؟ ومن الضال عن الحق؟!
خامساً: انطلق القرآن في حديثه عن هذا الجانب انطلاقاً يصعق قلوب المشركين ويزيدهم حيرة وقلقاً واضطراباً..

إن الرسالة المحمدية ليست موجهة لكم فقط ولا خاصة بزمانكم أو عالمكم، إنها رسالة للعالمين..!!

وإن الرسول الذى يحرص على هدايتكم ويقدم لكم سبيل شرفكم ومجدكم، مؤهل لقيادة العالمين، ويولى وجهه إلى الثقلين فى دعوة مخلصه للتي هى أقوم..

وقد عبر القرآن عن هذا المعنى فى موضعين: فقال فى سورة القلم: «وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيَزْلَقُونَكَ أَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (٥١) وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ» (٤).

وهكذا فجعت سورة القلم المشركين فى عقيدتهم وعقولهم بأن هناك عالماً أرحب هو مجال هذه الدعوة، وفجأتهم بهذا الأمر العظيم..

وقال فى سورة التكويد: «وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ (٢٢) وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ (٢٣) وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ (٢٤) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (٢٥) فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ (٢٦) إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ» (٥).

(٢) سورة الطور الآية ٣٤

(١) سورة القلم الآيات ٢-٥

(٤) سورة القلم الآيتان ٥١، ٥٢

(٣) سورة القلم الآيتان ٥، ٦

(٥) سورة التكويد الآيات ٢٢ - ٢٧

إن طرائق تفكير المشركين قد ضلّت، وضاعت عليهم أنفسهم، فلا يدرون ماذا يقولون؟!.

إن محمداً ﷺ قد وضحت لديه الدلائل، ويتحمل الرسالة في أمانة وصدق وثبات، محروساً بعناية الله، حتى تصل دعوته إلى الآفاق، ويبلغها للعالمين..

سادساً: خلال حديث القرآن في تعقب هؤلاء المشركين والرد عليهم في زعم الجنون لصاحب الرسالة العصماء؛ اتجه في أكثر من موضع إلى تسليّة الرسول وتشبيث فؤاده، فلفت نظره إلى أن تلك سنة جارية مع رسل الله يتحملون البأساء والضراء، ويصبرون حتى يحكم الله بينهم وبين أقوامهم..

اتهم بالجنون موسى عليه السلام وهو يبسط آيات الأنفس والآفاق أمام فرعون مصر ويرشده إلى الحق في العقيدة قال تعالى في سورة الشعراء:

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٣) قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (٢٤) قَالَ لِمَنْ حَوَّلَهُ أَلَا تَسْتَمْعُونَ (٢٥) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (٢٦) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (٢٨) قَالَ لَنْ اتَّخَذَتْ إِلَهاً غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (٢٩) قَالَ أَوْ لَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ (٣٠) قَالَ فَأَتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣١) فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (٣٢) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (٣٣) قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿(١)﴾

ادّعى فرعون الإلهية لنفسه وأرغم شعبه على العبودية له، فلما فاجأه موسى عليه السلام بأن هناك إلهاً آخر هو رب العالمين، دار حوار حول آيات الأنفس والآفاق.

بدأ موسى عليه السلام بالإشارة على وجه العموم إلى مستقر الآيات في العالم العلوى والعالم السفلى، ولم يفتن فرعون لتلك الإشارة اللطيفة، وتهكم

(١) سورة الشعراء، الآيات ٢٣ - ٣٤

بموسى عليه السلام؛ فواجهه موسى بالحقيقة الناطقة فى نفسه، ونبيه إلى ظاهرته
الحدوث والفناء فى نفسه ونسبه، فاستشاط غضباً ورمى موسى بالجنون..

عاد موسى عليه السلام وواجهه بظاهرة متكررة متعاقبة هى شروق الشمس
وغروبها، وليبدل فرعون هذا النظام إن استطاع..

حينئذ لم يجد فرعون بُدأً من قطع الحوار، فعمد إلى أسلوب القهر والقوة،
وهدد موسى بالسجن..!!

هنا بدأ موسى عليه السلام يظهر معجزة النبوة بعد أن لزمتهم حجة الربوبية
والإلهية، فاختلف تفكير فرعون وناقض نفسه، واتهم موسى بالسحر والبراعة فيه..!!

فكيف تستقيم تهمة السحر مع سابقتها تهمة الجنون؟!.

وهل المجنون يكون ساحراً عليمًا؟!.

وهذا الحوار الطويل وما تبعه من أحداث اختصره القرآن فى سورة الذاريات
فى ثلاث آيات جمعت مواقف ثلاثة:

- موقف موسى ودلائل نبوته.

- موقف فرعون وجبروته.

- موقف العدل الإلهى فى ملاحقة المفسدين.

قال تعالى: « وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٣٨) فَتَوَلَّىٰ
بُرْجَانَهُ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٣٩) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ
مُلِيمٌ (١) ».

وقبل انتهاء هذه السورة ساقى الآيات عبرة التاريخ وتشابه المكذبين وتقارب
أفكارهم، فقالت: « كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ

(١) سورة الذاريات، الآيات ٣٨ - ٤٠

مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوُا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ» (١).

وفي سورة القمر ذكرت نفس التهمة لشيخ الأنبياء نوح عليه السلام فقالت: «كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ» (٢).

وهكذا تعقب القرآن المجيد شوارد فكر هؤلاء المشركين، وبين تهافتهم وسوء منقلبهم ليظل ذلك آية بينة على صدق محمد ﷺ وتصديق الله تعالى له..

الشبهة الرابعة : الصرع

تعقب بعض المفرضين ما يعترى الرسول ﷺ عند تلقى الوحي، ووصل إلى نتيجة خاطئة مقطوعة الصلة بحياة الرسول الكريم..

أما الحالات التي تعترى الرسول فهي كما وضّحته مثل هذه الأحاديث: ففي صحيح البخاري بسنده عن عائشة رضي الله عنها قالت: (ولقد رأيته ﷺ ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً).

وفي حديث الإفك قالت عائشة: (فوالله ما رام رسول الله ﷺ مجلسه ولا خرج من أهل البيت أحد حتى أنزل الله تعالى على نبيه، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء) (٣) عند الوحي، حتى إنه ليتحدّر منه مثل الجمان (٤) من العرق وهو في يوم شاتٍ من ثقل القول الذي أنزل عليه).

وفي صحيح مسلم بسنده عن عبادة بن الصامت قال: (كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحي كربه ذلك، وتربّد وجهه، - وفي رواية وغمض عينيه - وكنا نعرف ذلك منه).

(١) سورة الذاريات، الآيتان ٥٢ و ٥٣

(٢) سورة القمر، الآية ٩، ومعنى «وازدجر»: زجروه وانتهروه وتوعده بالرجم.

(٣) البرحاء: شدة الحمى وقيل: شدة الحر، وقيل: شدة الكرب.

(٤) الجمان: اللؤلؤ، شبهت به قطرات عرقه لتشابههما في الصفاء والحسن.

وفى الصحيح أيضاً عن يعلى بن أمية قال: (قال لى عمر: أيسرك أن تنظر إلى رسول الله ﷺ وهو يوحى إليه؟). فرفع طرف الثوب من وجهه وهو يوحى إليه بالجرانة فإذا هو محمرّ الوجه، وهو يغطّ كما يغطّ البكر^(١).

فهذه الحالات من التفسد عرقاً وتغميض العينين واحمرار الوجه.. إلخ.. جعلت البعض يزعم أنها أعراض مرض الصرع، وما محمد ﷺ فى زعمهم إلا مصروع تعتربه حالات فقدان للوعى والإدراك.

وما أكذب هؤلاء!! وما أشد افتراءهم على رسول الله!!

إن الصرع حالة مرضية لا يعى صاحبها ما يحدث له ولأما يحدث منه، ويفقد الذاكرة تماماً، وتصدر حركات عصبية لا يدري عنها شيئاً.. فإذا أفاق فكأنما ولد من جديد..

فأى شيء من ذلك وقع لرسول الله ﷺ!!؟

إن الرسول عقب الوحي يبلغ ما أنزل إليه، أحكاماً وتشريعاً، وقصصاً وتاريخاً، وأحداثاً فى غابر الزمن، ووقائع فى سالف الأيام ومستقبلها.. فى إطار من النظم الدقيق المعجز لكافة الإنس والجن.

فهل هذا فعل مصروع!!؟

وكان من شدة حرص الرسول على الوحي وتمام إدراكه للتنزيل يسارع بتلاوة ما يوحى إليه قبل أن يفرغ الملك من إلقاء النجم القرآنى، فنهى ﷺ عن ذلك ونزل قوله تعالى: «لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ»^(٢).

(١) البكر: ولد الناقة.

(٢) سورة القيامة، الآيات ١٦ - ١٩.

وحول هذه الآيات يقول الإمام ابن كثير:

(هذا تعليم من الله عز وجل لرسوله ﷺ فى كيفية تلقيه الوحي من الملك، فإنه كان يبادر إلى أخذه ويسابق الملك فى قراءته فأمره الله عز وجل إذا جاءه الملك بالوحي أن يستمع له، وتكفل الله له أن يجمعه فى صدره، وأن ييسره لأدائه على الوجه الذى ألقاه إليه، وأن يبينه له ويوضحه.

فالحالة الأولى: جمعه فى صدره.

والثانية: تلاوته.

والثالثة: تفسيره وإيضاح معناه.

ولهذا قال تعالى: «لا تحرك به لسانك لتعجل به» أى بالقرآن، كما قال تعالى: «وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا» (١).

ثم قال تعالى: «إن علينا جمعه» أى فى صدرك «وقرآنه» أى أن تقرأه «فإذا قرآناه» أى إذا تلاه عليك الملك عن الله تعالى «فاتبع قرآنه» أى فاستمع له ثم اقرأه كما أقرأك «ثم إن علينا بيانه» أى بعد حفظه وتلاوته نبينه لك ونوضحه ونلهمك معناه على ما أردنا وشرعنا» (٢).

ومما يدل على أن الإحساس لم يكن يغيب بالكلية عما حوله ومن حوله - ما جاء فى الصحيحين من حديث عائشة ؓ قالت: (خرجت سودة بعدما ضرب الحجاب لحاجتها، وكانت امرأة جسيمة لاتخفى على من يعرفها، فرآها عمر بن الخطاب، فقال: يا سودة، أما والله ما تخفين علينا، فانظري كيف تخرجين، قالت: فانكفأت راجعة ورسول الله ﷺ فى بيتي، وإنه ليتعشى، وفى يده عرق (٣)، فدخلت فقالت: يا رسول الله، إنى خرجت لبعض حاجتى فقال لى عمر كذا وكذا؛ قالت: فأوحى الله إليه ثم رفع عنه، وإن العرق فى يده ما وضعه، فقال: إنه قد أذن لكن أن تخرجن لحاجتك).

(١) سورة طه، الآية ١١٤

(٢) تفسير القرآن العظيم ج٤، ص ٤٤٩

(٣) العرق - بفتح فسكون - عظم عليه لحم.

وإذا كان الواحد منا عندما يهمله شيء ويحرص عليه يشغل باله وفكره حتى لا يكاد يحس بمن حوله، فينادي عليه أقرب الناس منه مكاناً فلا يسمع له نداء..
فما بالك بالاتصال بالملأ الأعلى، والاستغراق في لقاء الملك الروحاني،
والتلقى عن الله تعالى؟!!

ثم إن الناس في كل زمان ومكان يرون المصروع ويعرفون الصرع، فهل من المعقول أن يُخدع الصحابة جميعاً في رسول الله ﷺ ويصعب عليهم التفريق بين حال الوحي وحال الصرع؟!!

إن فاقد الشيء لا يعطيه، والمصروع لا يشفى مصروعاً، ولقد كان الصرعى يأتون إلى رسول الله ﷺ طلباً للشفاء.. ففي صحيح البخاري عن عطاء بن رباح قال:

(قال لي ابن عباس: ألا أريك امرأة من أهل الجنة؟!).

قلت: بلى.

قال: هذه المرأة السوداء أتت النبي ﷺ فقالت: إني أصرع وإني أتكشف فادع الله لي.

قال: إن شئت صبرت ولك الجنة، وإن شئت دعوت الله أن يعافيك.

فقالت: أصبر.

فقالت: إني أتكشف فادع الله أن لا أتكشف، فدعا لها).

فإذا كان الصرعى يأتون رسول الله ﷺ طلباً للشفاء، فهل يكون الصرع خفياً على الناس يومئذ حتى يختلط بالوحي؟!!

ألا ساء ما يحكمون...!!

البابُ الرابع

خطائص النبوة المحمدية

- عموم الرسالة.
- ختم النبوة.

الفصل الأول

عموم الرسالة المحمدية

- - طوائف المكلفين.
- أهل الكتاب.
- العرب والعجم.
- الإنس والجن.
- العالمون.
- - دعوة نوح عليه السلام.

عموم الرسالة المحمدية

(أ) طوائف المكلفين:

المدخل الصحيح لفهم عموم الرسالة هو صدق النبوة لمحمد ﷺ بدلائلها في المعجزة العقلية والمعجزات الحسية وبشائر الأنبياء والخلق العظيم.

وحيث إن اليقين بصدق الرسالة يستلزم صدق ما يصدر عن صاحب الرسالة في نطاق التبليغ عن الله عز وجل - فإن آيات القرآن وأحاديث الرسول قاطعة في عموم الرسالة المحمدية زمانا ومكانا، فلا تقف عند زمن معين، ولا يحددها مكان خاص، ولا يخاطب بها جنس دون آخر..

ويتبلور عموم الرسالة في ضرورة الإيمان بها والعمل بمقتضاها من هؤلاء جميعا:

٢ - العرب والعجم.

١ - أهل الكتاب.

٤ - العالمين.

٣ - الإنس والجن.

١- أهل الكتاب:

سورة المائدة من السور القرآنية التي تعقبت اليهود والنصارى، وكشفت فساد عقائدهم وما يكتُمونه من الوحي المنزل الذي حرفوه وبدلوه.

ولنقرأ قوله تعالى « لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَأُمُّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » (١).

وتمضى الآيات في هذه السورة الكريمة مطالبة أهل الكتاب بضرورة الإيمان بالرسالة الخاتمة التي بعث بها محمد ﷺ:

(١) سورة المائدة آية ١٧

«يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» (١).

ثم تسوق السورة مثالا لتحريف الكتمان لدى اليهود، فقد جاءوا إلى رسول الله ﷺ فذكروا له أن رجلا منهم وامرأة زنيا، فقال لهم رسول الله: ما تجدون في التوراة في شأن الرجم؟

فقالوا: نفضحهم ويجلدون.

قال عبد الله بن سلام: كذبتُم إن فيها الرجم، فأتوا بالتوراة.. فنشروها فوض أحدهم يده على آية الرجم فقرأ ما قبلها وما بعدها، فقال له عبد الله بن سلام: ار يدك.

فرفع يده فإذا آية الرجم.

فقالوا: صدق يا محمد، فيها آية الرجم.

فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما.

ونزلت الآيات تدمغهم بهذا التحريف فقال جل شأنه:

«وَكَيْفَ يُحْكِمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّورَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ» (٢).

ويعلق الإمام الرازي قائلا (٣):

«هذا تعجيب من الله تعالى لنبيه ﷺ بتحكيم اليهود إياه بعد علمهم بما التوراة من حد الزاني ثم تركهم قبول ذلك الحكم.

فعدلوا عما يعتقدونه حكما حقا إلى ما يعتقدونه باطلا، طلبا للرخصة، جرم ظهر جهلهم وعنادهم في هذه الواقعة من وجوه:

(١) سورة المائدة آية ١٩

(٢) سورة المائدة آية ٤٣

(٣) التفسير الكبير ج ١١ ص ٢٤٢

أحدها: عدولهم عن حكم كتابهم.

والثاني: رجوعهم إلى حكم من كانوا يعتقدون فيه أنه مبطل.

والثالث: إعراضهم عن حكمه بعد أن حكموه.

فبين الله تعالى حال جهلهم وعنادهم لثلاث يغتر بهم مغتر أنهم أهل كتاب الله ومن المحافظين على أمر الله.

وساقت السورة بعض أحكام التوراة، فقال تعالى:

«وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ» (١).

ثم بينت سورة المائدة أن الأنبياء تعاقبوا على بنى إسرائيل من بعد موسى حتى جاء عيسى مصدقا للتوراة ومبشرا بمحمد، ولكن أهل الإنجيل طمسوا هذه البشائر، وفسروها تفسيراً يصرفها عن النبي العربي، فطالبهم القرآن المجيد بالرجوع إلى الحق في أمر هذه البشائر فقال:

«وَلْيَحْكُمِ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ» (٢).

فهو زجر لهم عن ارتكاب جرائم التعريف والتزوير في الوحي المنزل الذي است حفظوا عليه، ودعوة إلى تحكيم الإنجيل الصحيح.

وتلا ذلك تأكيد الرسالة المحمدية، وبيان موضعها بين الرسالات فهي المهمة..

فقال جل شأنه:

« وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ » (٣).

(١) سورة المائدة آية ٤٥

(٢) سورة المائدة آية ٤٧

(٣) سورة المائدة آية ٤٨

وتوجهت الآيات إلى سيدنا محمد ﷺ تثبته على الحق وتطالبه بالحد من اليهود والنصارى الذين طمست بصائرهم وغشيتهم الضلالة، فقال جل شأنه:

« وَأَنَّ أَحْكَمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتُونَكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ » (١).

ودعت السورة أهل الكتاب إلى أمر فيه نصفة، وهو التأمل العقلى المجرد عن الهوى والبدعة.

فماذا يعاب على المسلمين فى دينهم؟!

إنهم يؤمنون بالله الواحد الأحد ولا يفرقون بين رسل الله.. فهلا استجاب أهل الكتاب لدعوة الحق هذه؟!

« قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقُمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ » (٢).

وساقت الآيات بعضاً من قبائح اليهود، فهم لا ينزهون الله تعالى عن النقائص، ويسعون فى الأرض فساداً، قال سبحانه:

« وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلَعْنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعُونَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يَحِبُّ الْمُفْسِدِينَ » (٣).

ثم وقفت الآيات تنادى أهل الكتاب بالدخول فى الإسلام واتباع الرسول العربى الذى بشرت به أنبياءهم، ووعدهم - على ذلك - رغد الحياة الدنيا وكرامة الآخرة، فقال جل شأنه:

(١) سورة المائدة آية ٤٩

(٢) سورة المائدة آية ٥٩

(٣) سورة المائدة آية ٦٤

«وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٦٥) وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكْلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءٌ مَا يَعْمَلُونَ» (١).

فأهل الكتاب غير مؤمنين بالإيمان الصحيح، وقد دعتهم الآية الكريمة إلى الإيمان والتقوى وفق الهدى الإلهى المنزل فى ختام الرسالات الإلهية، وطالبتهم بإقامة التوراة الصحيحة والإنجيل غير المحرف ليلتقوا مع ما أنزل إليهم من ربهم وهو القرآن العظيم الذى جاءهم به محمد ﷺ حتى يسعدوا فى الأولى والآخرة.

ولن يتحقق إقامة التوراة والإنجيل إلا بالوفاء بعهد الله فيها بضرورة الإيمان بالنبى الخاتم محمد ﷺ.

وجاءت الآيات التالية تأكيداً لهذه الحقيقة فقالت:

«قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ» (٢).

فمعنى «لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ» أى من الدين والحق والهدى.

وفى التعبير بقوله «أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ» تخصيص أهل الكتاب بتوجيه الرسالة المحمدية إليهم ولذا وصفتهم الآية فى ختامها بالكفر حيث حرفوا التوراة والإنجيل ورفضوا الإيمان بالقرآن المجيد.

ووضحت الآيات بعد ذلك أن إنكار هؤلاء للرسالة المحمدية مصدره الهوى والشهوة وأن لبنى إسرائيل تاريخاً أسود مع أنبياء الله عز وجل، فقال تعالى:

«لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَآرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ» (٣).

فسقت هذه الآية سلوى لرسول الله ﷺ، فذلك دأبهم فى الإنكار والتكذيب للحق والهدى، ولم يكن لهم عهد ولا ميثاق على مدى التاريخ.

(١) سورة المائدة آية ٦٥ - ٦٦

(٢) سورة المائدة آية ٦٨

(٣) سورة المائدة آية ٧٠

ثم عادت الآيات لتفصح النصرارى فى مزاعمهم حول المسيح ولتحكم عليهم بالكفر الذى يقودهم إلى جهنم وبئس المصير، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (٧٢) لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣)﴾ (١).

وأعلنت السورة حقيقة شخصية المسيح وأنه بشر ولد من امرأة بتول طهرها الله وجعلها وابنها آية للعالمين... قال سبحانه: «مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نَبِّينُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ» (٢).

ودعت السورة أهل الكتاب إلى ترك الغلو فى الدين، والبعد عن الهوى والتقاليد... قال جل شأنه:

«قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ» (٣).

ثم تنوه الآيات بطائفة من أهل الكتاب عرفوا الحق، فاتبعوه، وآمنوا بالرسالة لمحمد ﷺ بناء على البشائر المدونة فى كتبهم، ورفضوا الصمت القاتل، وأعلنوا ولائهم للدين الجديد... قال سبحانه «وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٨٢) وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ (٨٣)»

(١) سورة المائدة آية ٧٢، ٧٣

(٢) سورة المائدة آية ٧٥

(٣) سورة المائدة آية ٧٧

الصَّالِحِينَ (٨٤) فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا
وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ» (١).

وكان ختام سورة المائدة حول دعوة المسيح عليه السلام إلى إفراد الله تعالى
بالربوبية والألوهية في أسلوب تقريري للنصارى.. فقال:

«وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ
دُونِ اللَّهِ؟

قال: سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُ فَقَدْ
عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا
قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ» (٢).

هذا وقد جاء في صحيح الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال «والذي نفس
محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودى ولا نصرانى ثم يموت ولم يؤمن
بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار» (٣).

(١) سورة المائدة الآيات ٨٣ : ٨٥

(٢) سورة المائدة الآيات ١١٦ : ١١٨

(٣) ولزبد من التفاسيل راجع كتابنا «المسيح ورسائله في القرآن» ط مكتبة الصفا بالأزهر.

قصة الجاهلة:

لقد واجه الرسول المشركين واليهود والنصارى ودار حوار طويل سجله القرآن المجيد وسجلته السنة الشريفة..

وعلى سبيل المثال قصة المباهلة التي أشار إليها القرآن في قوله تعالى: «فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ»^(١).

والمفسرون على أن صدر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية منها نزلت في وفد نصارى نجران.

كانوا ستين راكبا منهم أربعة عشر رجلا من أشرافهم، وثلاثة منهم كانوا أكابرهم، أحدهم الأمير واسمه عبد المسيح وكان ذا رأيهم، وصاحب مشورتهم ولا يصدرون الا عن رأيه وهو العاقب، والثاني وكان عالمهم وصاحب رحلهم ومجتمعهم وهو الأيهم ويقولون له السيد، والثالث خبرهم وأسقفهم وهو أبو حارثة ابن علقمة، أحد بنى بكر بن وائل.

وتكلم أولئك الثلاثة مع رسول الله ﷺ في شأن عيسى عليه السلام، وتفيد الروايات أنهم قالوا لرسول الله: يا محمد فيم تشتم صاحبنا؟

قال رسول الله: أجل إنه عبد الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه.. فغضبوا وقالوا: إن كنت صادقاً فأرنا عبداً يحيي الميت ويبري الأكمة والأبرص ويخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيراً؟! لكنه الله..!!

فسكت حتى أتاه جبريل فقال: يا محمد:

«لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ»

فقال رسول الله: يا جبريل: إنهم سألوني أن أخبرهم بمثل عيسى قال جبريل: «إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تَرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ».

(١) سورة آل عمران، الآية ٦١

وتضيف بعض الروايات أن الرسول ﷺ أخذ يناظرهم فقال: أَلستم تعلمون أن ربنا قيم على كل شيء يكلؤه ويحفظه ويرزقه فهل يملك عيسى شيئاً من ذلك؟ قالوا: لا

قال: أَلستم تعلمون أن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء فهل يعلم عيسى من ذلك إلا ما علّم؟ قالوا: لا

قال: فإن ربنا صور عيسى في الرحم كيف شاء، فهل تعلمون أن ربنا لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب ولا يحدث الحدث، وتعلمون أن عيسى حملته امرأة كحمل المرأة، ووضعتة كما تضع المرأة، ثم كان يطعم الطعام ويشرب الشراب ويحدث الحدث؟!

قالوا: بلى فقال عليه الصلاة والسلام: فكيف يكون كما زعمتم؟! فعرفوا ثم أبوا إلا الجحود، ثم قالوا: يا محمد أَلست تزعم أنه كلمة الله وروح منه؟ قال: بلى

قالوا: فحسبنا.

فأنزل الله تعالى «فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ...» (١). هنا يحسن التوقف عن الكلام حيث لا يفيد مع الجاحدين المنكرين. فقال ﷺ:

إن الله أمرني إن لم تقبلوا الحجة أن أباهلكم.

فقالوا: يا أبا القاسم بل نرجع فننظر في أمرنا ثم نأتيك.

فلما رجعوا قالوا للعاقب - وكان ذا رأيهم - يا عبد المسيح ما ترى؟

فقال: والله لقد عرفتم يا معشر النصارى أن محمداً نبى مرسل، ولقد جاءكم بالكلام الحق في أمر صاحبكم، والله ما باهل قوم نبياً قط فعاش كبيرهم ولانبت صغيرهم، ولئن فعلتم لكان الاستئصال، فإن أبيتم إلا الإصرار على دينكم والإقامة على ما أنتم عليه فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم.

(١) راجع تفسير الرازى ج ٧ ص ١٦٧، وتفسير ابن كثير ج ١ ص ٣٦٨

وكان رسول الله ﷺ خرج وعليه مرط من شعر أسود، وكان قد احتضن الحسين وأخذ بيد الحسن، وفاطمة تمشى خلفه، وعلى ﷺ خلفها وهو يقول: إذا دعوت فأمنوا.

فقال أسقف نجران: يا معشر النصارى إني لأرى وجوها لو سألوا الله أن يزيل جبلا من مكانه لأزاله بها، فلا تباهلوا فتهلكوا ولا يبقى على وجه الأرض نصراني إلى يوم القيامة.

ثم قالوا: يا أبا القاسم رأينا أن لا نباهلك وأن نترك على دينك.

فقال صلوات الله عليه: فإذا أبيتم المباهلة فأسلموا يكن لكم ما للمسلمين، فأبوا فقال: فإني أناجزكم القتال.

فقالوا: ما لنا بحرب العرب طاقة ولكن نصالحك على أن لا تغزونا ولا تردنا عن ديننا على أن نؤدى إليك فى كل عام ألفى حلة، ألفا فى صفر وألفا فى رجب، وثلاثين درعا عادية من حديد.

فصالحهم على ذلك وقال:

والذى نفسى بيده إن الهلاك قد تدلى على أهل نجران، ولو لاعنوا لمسخوا قردة وخنازير، ولاضطرم عليهم الوادى نارا، ولاستأصل الله نجران وأهله حتى الطير على رءوس الجبال، ولما حال الحول على النصارى كلهم حتى يهلكوا.

وقد ساق الإمام الرازى هذا الحوار ثم قال:

واعلم أن هذه الرواية كالمتفق على صحتها بين أهل التفسير والحديث^(١). وقد استدلل الإمام الرازى بهذه الواقعة على صحة النبوة لسيدنا محمد ﷺ من وجهين:

أحدهما وهو أنه عليه السلام خوفهم بنزول العذاب عليهم ولو لم يكن واثقا بذلك لكان ذلك منه سعيًا فى إظهار كذب نفسه، لأنه بتقدير أن يرغبوا فى مباہلته ثم لا ينزل العذاب فحينئذ كان يظهر كذبه فيما أخبر، ومعلوم أن محمداً ﷺ كما ن

(١) التفسير الكبير ج ٨ ص ٨٨

من أعقل الناس فلا يليق به أن يعمل عملاً يقضى إلى ظهور كذبه، فلما أصر على ذلك علمنا أنه إنما أصر عليه لكونه واثقاً بنزول العذاب عليهم.

ثانيهما: أن القوم لما تركوا مباہلتہ، فلولا أنهم عرفوا من التوراة والإنجيل ما يدل على نبوته وإلا لما أحجموا عن مباہلتہ^(١).

٢- العرب والعجم:

بدأت الدعوة الإسلامية بذوى قريبي رسول الله وبنداء من فوق جبل الصفا، ففى صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت:

لما نزلت «وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ»^(٢) قام رسول الله ﷺ على الصفا فقال: «يا فاطمة بنت محمد، يا صفية بنت عبد المطلب، يا بنى عبد المطلب.. لا أملك لكم من الله شيئاً، سلوني من مالى ما شئتم».

وفى رواية عن أبى هريرة رضي الله عنه قال:

لما نزلت هذه الآية «وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ» دعا رسول الله ﷺ قريشاً فاجتمعوا، فعم وخص فقال:

«يا بنى كعب بن لؤى أنقذوا أنفسكم من النار، يا بنى مرة بن كعب أنقذوا أنفسكم من النار، يا بنى عبد شمس أنقذوا أنفسكم من النار، يا بنى عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة أنقذى نفسك من النار، فإنى لا أملك لكم من الله شيئاً، غير أن لكم رحماً سابلها بيلالها»

وعقب هذه المرحلة التقى رسول الله بالناس فى أماكن تجمعاتهم ومواسم حجهم وأسواق تجارتهم يبلغهم كلمة الله.

وقد أكد القرآن مراراً أن دعوة الإسلام موجهة إلى العرب بخصوصهم وإلى غير العرب بعمومهم، فقال الله تعالى «هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو

(١) التفسير الكبير ج ٨ ص ٩١

(٢) سورة الشعراء - الآية ٢١٤

عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢) وَأَخْرَيْنَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» (١).

فالأميون هم العرب لأنهم أمة لاتقرأ ولا تكتب، ولا كتاب أنزل عليهم ولا رسول بعث فيهم منذ إسماعيل عليه السلام.

والآخرون هم غير العرب من أى جنس كان...

وقال الله تعالى «وَأَوْحِي إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ» (٢).

فالخطاب لأهل مكة فى قوله «لَأُنْذِرَكُمْ بِهِ» والمراد بقوله «وَمَنْ بَلَغَ» كل من بلغه القرآن من العرب والعجم إلى يوم القيامة، وقيل فى معنى «مَنْ بَلَغَ» أى احتلم وبلغ سن التكليف، وهو دليل أيضا على عموم الدعوة، فكل من وصل إلى سن التكليف من العرب والعجم فهو مطالب شرعا بعقيدة الإسلام وشرعية القرآن.

وجاءت آية من كتاب الله تعالى تصف القرآن بأنه عربى وتؤكد فى الوقت ذاته أنه رسالة عالمية موجهة إلى الناس فى أم القرى وما حولها فقال تعالى: «وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ» (٣).

فالوصف بأم القرى يعنى العموم من حيث إن مكة المكرمة هى قبلة أهل الأرض بالكعبة المشرفة حجا وصلاة، وقوله «وَمَنْ حَوْلَهَا» لا يقتصر على بقعة أو بيئة بل تمتد الحولية حتى نهاية العالم.

وعندما يوصف القرآن بأنه حكم عربى لا يعنى أكثر من أن أمة العرب تتحمل أمانة الدعوة إلى هذا الدين القيم وتأتى فى المقدمة وتتلوها الأمم، فالرسول عربى

(١) سورة الجمعة - الآيتان ٢، ٣

(٢) سورة الأنعام - الآية ١٩

(٣) سورة الشورى - الآية ٧

والقرآن عربى.. قال الله تعالى ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلُ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَثَابُ (٣٦) وَكَذَلِكَ أُنزِلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ (١).

وعربية اللسان لا تمنع عالمية الدعوة والرسالة، وليس معقولا أن ينزل القرآن بجميع اللغات، وقد جرت سنة الله أن ينزل الوحى بلسان واحد هو لسان البيئة التى نشأ بها الرسول، قال تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾ (٢).

إن السابقين فى الإسلام كانوا ممثلين لفئات الإنسانية وأجناسها، رجالا ونساء وصبية وعبيداً، وعربا وعجماء، واستطاع الإسلام بسناء تشريعه وخلق رسوله وشجاعة رجاله أن يعمق صلته بالإنسان من كل فج عميق.. والتقت هذه الصفوة على كلمة التوحيد:

خديجة بنت خويلد..

أبو بكر الصديق..

على بن أبى طالب..

بلال بن رباح الحبشى..

صهيب بن سنان الرومى..

* * *

الهجرة إلى الحبشة:

وحين اشتد إيذاء المشركين لمن آمن بالله ورسوله فى صدر الإسلام أشار النبى ﷺ على أصحابه بالهجرة إلى الحبشة وقال:

«لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد، وهى أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه».

(١) سورة الرعد الآيتان ٣٦، ٣٧

(٢) سورة ابراهيم آية ٤

فخرج الصحابة متسللين سرّاً، ما بين ماش وراكب، حتى انتهوا إلى البحر وركبوا إلى الحبشة، وقد هاجر المسلمون إليها مرتين، وكانوا فوق الثمانين رجلاً سوى نسائهم وأبنائهم..

وحاولت قريش استرجاع هؤلاء المسلمين، فأرسلوا وفداً إلى نجاشي الحبشة يحملون إليه الهدايا ويستعدونه على المسلمين..

لكن الرجل كان حكيماً عادلاً، فأبى إلا أن يلتقى الجمعان في حضرته ويستمع إلى الطرفين ويتعرف على حقيقة الموقف..

وبعد سماع دعوى قريش ودفاع جعفر بن أبي طالب.

قال النجاشي:

إن هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة..

وتحدث الروايات أن وفد قريش أراد أن يستشير النجاشي فقال:

- إنهم يخالفونك في عيسى ابن مريم..

- إنهم يشتمون عيسى وأمه..

- إنهم يقولون في عيسى ابن مريم قولاً عظيماً..

فسأل النجاشي المهاجرين عن عقيدتهم في عيسى، فتكلم جعفر قائلاً: هو عبد

الله ورسوله، وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول..

وقرأ عليه صدر سورة مريم..

فقال النجاشي:

والله ما زاد المسيح على ما تقولون نقيراً..

مرحباً بكم وبمن جئتم من عنده، أشهد أنه رسول الله، وأنه الذي نجد في

الإنجيل، وأنه الرسول الذي بشر به عيسى ابن مريم، انزلوا حيث شئتم، والله لولا ما

أنا فيه من الملك لأتيته حتى أكون أنا الذي أحمل نعليه»^(١)

إن هجرة المسلمين إلى الحبشة عبرت بالإسلام إلى إفريقيا.

(١) راجع الروايات وتخريجها في البداية والنهاية لابن كثير - ج ٣ - ص ٦٦

الرسائل النبوية:

ولما استقر الأمر للمسلمين في المدينة المنورة بصلح الحديبية في العام السادس للهجرة اتجه الرسول ﷺ إلى مخاطبة ملوك العالم وأمراء الجزيرة العربية، وبعث رسائل شخصية إلى هرقل عظيم الروم، وكسرى عظيم فارس، والنجاشي في الحبشة، والمقوقس في مصر.. الخ.

كما أوفد الرسول ﷺ ممثلين شخصيين له إلى أطراف الجزيرة العربية والقبائل المختلفة يعلمون الناس أمر دينهم..

ومن نماذج الرسائل النبوية رسالة هرقل، ونصها كما في صحيح البخاري:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم

سلام على من اتبع الهدى

أما بعد . . .

فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين، ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم، أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون».

وهذه الرسالة في غاية الدقة والبلاغة فإنه قد حصل المعنى المراد بأيسر عبارة وأحسنها، فقد حملت إلى هرقل الدعوة الإسلامية، تلك الدعوة التي تقوم على التوحيد الخالص وكرامة الإنسان، ووعدته بالثواب المضاعف والأجر الجزيل من الله عز وجل، لأن أهل الكتاب إذا أسلموا يؤتون أجرهم مرتين، مرة لإيمانهم بنبيهم ومرة لإيمانهم بخاتم الأنبياء محمد ﷺ.

ثم وضحت الرسالة أنه في حال الإعراض سيتحمل هرقل مسئولية تضليل الجماهير، فالناس على دين ملوكهم ومن سن سنة سيئة فعلية وزررها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة..

ومما ينبغي ذكره أن مسئولية الملوك وأصحاب الشأن وإن كانت مضاعفة فإنها لا تنفي المسئولية الفردية لكل إنسان منحه الله عقلاً..

قال الله تعالى: «وَإِذْ يَتَحَاوُونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ (٤٧) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ». (١)

تأمين الدعوة:

إن الملوك والأمراء الذين راسلهم النبي ﷺ، منهم من استقبل الكتاب استقبالا حسنا ومنهم من أساء، ووصلت الإساءة إلى حد القتل، فقد قتل شرحبيل والي مؤتة الحارث بن عمير الأزدي الذي كان يحمل رسالة إلى الأمير الغساني المقيم في بصرى الشام.

ولهذا السبب أعد الرسول حملة كبيرة في جمادى الأولى من السنة الثامنة للهجرة وعقد اللواء فيها لزيد بن حارثة وقال لهم: إن أصيب فالأمير جعفر بن أبي طالب، فإن أصيب فعبد الله بن رواحة.

وأثناء المعركة قتل الأمراء الثلاثة واستطاع خالد بن الوليد بحيلة عسكرية أن يلقي الرعب في قلوب الأعداء فكفوا عن القتال فانسحب المسلمون وعادوا إلى المدينة.

ثم وقعت سرية السلسل (نسبة إلى ماء بأرض جذام على حدود الشام) بقيادة عمرو بن العاص، استطاع فيها أن يفرق حشودا تتهيا للسير جنوباً..

وفي العام التاسع للهجرة وقعت غزوة تبوك وجمع الرسول جيشاً قوامه ثلاثون ألفاً، وهو جيش لم تشهده بلاد العرب من قبل، وقد لاقى الرسول في تكوينه شدة وعسرة في المال والزاد والماء والراحلة، ولذا سمي بجيش العسرة، ووصل الجيش إلى تبوك على بعد ستمائة كيلو متر تقريباً من المدينة، وأقام الجيش هناك يتحدى الروم ولم تحدث معارك، ووقع الرسول معاهدات مع القبائل المسيحية واليهودية المقيمة حول خليج العقبة.

(١) سورة غافر، الآيتان ٤٧، ٤٨.

وكان لهذه الغزوة أثر كبير في تأمين الجزيرة العربية والتسامع بالإسلام في الامبراطورية الرومانية.

ثم كان آخر وصايا الرسول - ﷺ - إنفاذ بعث أسامة الذي أمره أن يرهب الغساسنة والروم وأن يوطئ الخيل تخوم أرض فلسطين وأن يرهب القبائل في أطراف بلاد العرب.

٣. الإنس والجن:

أكد القرآن مرارا أن رسالة الإسلام موجهة إلى الثقلين من الإنس والجن، وتنوع الأسلوب القرآني في عرض هذه القضية، فقد توجه التحدى بالقرآن إلى الإنس والجن، كما في قوله تعالى:

«قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَيَّ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا» (الإسراء / ٨٨).

ومن سور القرآن المكي سورة الجن وهي تبدأ بقوله تعالى «قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا» (سورة الجن الآية ١، ٢).

قال الإمام الرازي:

اعلم أن قوله تعالى «قُلْ» أمر منه تعالى لرسوله أن يظهر لأصحابه ما أوحى الله في واقعة الجن، وفيه فوائد: إحداهما: أن يعرفوا بذلك أنه عليه السلام كما بعث إلى الإنس فقد بعث إلى الجن، وثانيها: أن تعلم قريش أن الجن مع تمردهم لما سمعوا القرآن عرفوا إعجازه فآمنوا بالرسول، وثالثها: أن يعلم القوم أن الجن مكلفون كالإنس، ورابعها: أن يعلم أن الجن يستمعون كلامنا ويفهمون لغاتنا، وخامسها: أن يظهر أن المؤمن منهم يدعو غيره من قبيلته إلى الإيمان، وفي كل هذه الوجوه مصالح كثيرة إذا عرفها الناس» (١).

(١) التفسير الكبير ج ٣٠ ص ١٥٣

وقد تكررت قصة استماع الجن إلى القرآن في سورة الأحقاف فقال الله تعالى «وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُّنْذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ» (١).

وفي حديث أخرجه الترمذی وصححه الحاكم عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قرأ سورة الرحمن على أصحابه فسكتوا فقال: مالي أسمع الجن أحسن جواباً لربها منكم؟ ما أتيت على قول الله تعالى «فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ» إلا قالوا: لاشيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد.

٤. العالمون:

وقد جاءت آيات من القرآن المجيد تتخطى تحديد طوائف المكلفين بأوصافهم الخاصة إلى التعبير العام الشامل الذي لا يند عنه أحد.

ففي سورة القلم وهي الثانية نزولاً بعد سورة العلق جاء ختامها قوله تعالى «وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ».

وفي سورة التكويد وهي مكية أيضاً جاء قوله تعالى «إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ».

وفي مفتتح سورة الفرقان جاء قوله تعالى «تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا».

وجاء في سورة الأنبياء غمط آخر للتعبير عن هذه العالمية بوصف الرسالة المحمدية بأنها رحمة عامة فقال «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ».

ولعل الوصف بالذكر ثم الإنذار ثم الرحمة له دلالة، فالإسلام شرف لمن اعتقده وصدق به، ثم إذا لم يستجب البعض فلا بد من ملاحقة العدل الإلهي لهؤلاء، وعلى كل فالرحمة لا تنفك عن الدعوة حال التصديق بها أو التكذيب، كما قال الله

(١) سورة الأحقاف - الآيتان ٢٩: ٣٠

تعالى «لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ» (المتحنة / ٨).

وفى سورة الأعراف توجهت الآيات بمخاطبة أهل الكتاب من اليهود والنصارى وألزمتهم ضرورة التصديق بالنبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل ثم جاء الخطاب عاماً شاملاً فى قوله تعالى «قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ» (١).

والعجيب حقاً أن كل هذه الآيات التى سقناها تحت عنوان «الْعَالَمِينَ» هى آيات مكية نزلت فى وقت يعيش المسلمون فيه مضطهدين لا يملكون الدفاع عن أنفسهم، أفلا يعد ذلك لونا من الإعجاز القرآنى لأنه كالوعد الإلهى بأن يسرى نور الإسلام فى الآفاق كلها..!؟ أولاً يكون ذلك تأكيداً على أن عالمية الإسلام اجتهدا ولا ادعاء وإنما هى حقيقة مقررة مؤكدة منذ اليوم الأول لرسالة الإسلام لاتعرف تحويلاً ولا تبديلاً!؟

ومن المعجزات النبوية الإسراء والمعراج، وهى معجزة مكية وقعت قبل الهجرة، والإسراء هو السير ليلاً، والمعراج هو سلم الصعود، والمقصود هو انتقال النبى ﷺ من مكة إلى بيت المقدس ثم الصعود إلى السموات العلا ثم إلى سدرة المنتهى، ثم إلى حيث شاء العلى الأعلى.. كل ذلك فى جزء يسير من الليل.

فبِمَ يوحى الإسراء والمعراج!؟

إنها بشرى عظيمة للرسول والمسلمين فى وقت ضاقت فيه مكة عليهم.

إنها بشرى النصر والفرج القريب..

إنها بشرى التمكين لهذا الدين المتين..

(١) سورة الأعراف الآية ١٥٨

إنها الوحدة الكونية التي تترايط في عقل المسلم وقلبه..
إنها وحدة الآفاق في المشارق والمغارب إيماء إلى أن هذا الأمر سيبلغ ما بلغ
الليل والنهار، وسيطلع على ما طلعت عليه الشمس..
وماهى إلا سنوات قلائل حتى قامت الدولة الإسلامية في المدينة المنورة ودخل
الناس في دين الله أفواجا، وذهبت كتائب الإيمان شرقا وغربا، ترسى قواعد العدل
وتعلى حقوق الإنسان وتبنى الحياة المثلى..
ومن جهة أخرى فإن هناك وحدة عقدية وترايطا تاريخيا بين أماكن ثلاثة
أشرق منها نور التوحيد، هى مكة وطور سيناء والقدس..
إن الرسول ﷺ أسرى به من مكة المكرمة، ومرّ بطور سيناء، وصلى إماما بالأنبياء
فى القدس الشريف، وفى هذا دلالة عميقة على أن عقدا فريدا فى عنق المسلمين
يجب الحفاظ عليه، لأنهم أمناء الله فى أرضه، وأولى الناس بأنبياء الله ورسله..
قال تعالى «إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا
وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ» (آل عمران / ٦٨).

دعوة نوح عليه السلام

قد يتوهم البعض أن عموم الرسالة ليس من خصائص النبوة المحمدية ويعترض بنبوة نوح عليه السلام، ويزعم أنها كانت عامة..

ونحن نرفض هذا الاعتراض ونؤكد أن عموم الرسالة زمانا ومكانا هو من خصائص سيدنا محمد ﷺ، لما يأتي:

١ - إن نوحا عليه السلام أرسل إلى قومه خاصة بنص قوله تعالى: «إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ»^(١)، وذكر القرآن قوم نوح في مقدمة أقوام لاحقهم العدل الإلهي في قوله تعالى «أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ»^(٢).

٢ - إن حديث الشفاعة الذي ورد فيه أن الناس يأتون نوحا فيقولون: يا نوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض وسماك الله عبدا شكورا... - لايعنى أن نوحا عليه السلام أرسل برسالة عامة إلى أهل الأرض جميعا، ولعل المراد أنه أول رسول يأتي بتشريع جديد بعد شرائع آدم وإدريس عليهما السلام.

٣ - إن تعبيرات قرآنية مثل قوله تعالى:

«وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ»^(٣)

«فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ (١١) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا»^(٤)

«رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا»^(٥)

لا تعنى بالضرورة عموم الرسالة، فإن بقاء الذرية يفهم منه هلاك قومه المكذبين ونجاة نوح ومن آمن معه، وتفتح السماء وتفجير الأرض قد لا يعنى أكثر من السماء التي تظل قومه والأرض التي تقلهم في موقعهم الذي كانوا فيه، وتكون «أل» للعهد.

(٢) سورة التوبة - الآية ٧٠

(١) سورة نوح - الآية ١

(٤) سورة القمر - الآية ١١، ١٢

(٣) سورة الصافات - الآية ٧٧

(٥) سورة نوح - الآية ٢٦

٤ - لو سلمنا جدلاً عموم دعوة نوح عليه السلام فهو عموم موقوت لم يستمر، بل جاءت الرسل تترى من بعد نوح، وأنزل الله شرائع جديدة نسخت شريعته، ولم يكتب لشريعة نوح البقاء، وبالتالي يظل لسيدنا محمد عموم الرسالة زماناً ومكاناً بلا منازع وبلا مثيل.

٥ - إن سفر التكوين هو الذى يعطى معلومات تجعل الطوفان يعم الجنس البشرى كله والكائنات التى خلقها الله جميعاً، وقد أكد المستشرق «موريس بوكاي» الذى أسلم: أن المعطيات التاريخية تثبت استحالة اتفاق هذه الرواية مع المعارف الحديثة، فإن التاريخ الذى حددته الرواية الكهنوتية للطوفان قد ظهرت فيه حضارات انتقلت أطلالها للأجيال التى تلتها، ففى مصر هو تاريخ الفترة الوسطى الأولى قبل الأسرة الحادية عشرة، وفى بابل هو أسرة أور الثالثة، ولم يحدث انقطاع فى هذه الحضارات، ولم يحدث إعدام يعم البشرية برمتها كما تقول التوراة^(١).

٦ - ذكر الشيخ عبد الوهاب النجار الرايين فى مسألة طوفان نوح، وانتهى إلى نتيجة هى:

وعلى كل حال فالمسألة ليس فيها نص من القرآن، بل كل ما فيه من هذه الناحية أن قوم نوح كفروا وعصوا الرسول فأغرقهم الله بالطوفان. ونجى نوحاً ومن معه فى الفلك، وجعل ذريته الباقية، فالعموم محتمل والخصوص محتمل.

والذى أميل إليه أن يكون خاصاً، وأن النوع الإنسانى لم يكن منتشرأ فى جميع الكرة بل كانوا منحصرين فى الناحية التى عمها الطوفان وأنهم قد هلكوا وبقي نوح وذريته^(٢).

٧ - ذهب الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت إلى أن المسألة من المعارف البشرية التى تركها الوحي لبحث الإنسان، لاتفسيراً للقرآن، وليس من مهمة القرآن

(١) دراسة الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة - ط دار المعارف بالقاهرة.

(٢) قصص الأنبياء ص ٣٦ ط الحلبي.

أن يحدد الأوضاع ولأن يعين الوقائع، وإنما مهمته الإرشاد إلى ما تدل عليه القصة من جهات العظة وأنواع العبرة.

وعلى كل فنوح أرسل لقومه فقط، أما أنه كان فى المعمورة غير قومه ولم يرسل إليهم، أو أنه لم يكن فيهم سواهم، فهذا شئ ليس له تأثير فى هدف القصة، ولا يمس اختصاص محمد ﷺ بعموم الرسالة لقومه ولغير قومه الموجودين على سطح الأرض ومن سيوجد عليها إلى يوم الدين، «قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً»^(١)

(١) إلى القرآن الكريم ص ١١١ ط كتاب الهلال سنة ١٩٦٤

الفصل الثاني

ختم النبوة

— تمهيد.

— دلائل ختم النبوة.

— حكمة ختم النبوة.

— حكم إنكار ختم النبوة.

— على هامش ختم النبوة.

ختم النبوة

تمهيد:

انطلاقاً من دلائل النبوة المحمدية، وتتميماً لعموم الرسالة وتأكيدها، تأتي قضية ختم النبوة لتقرر أن محمداً ﷺ آخر الأنبياء وأن رسالته باقية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فلا وحى بشريعة جديدة ولا نسخ للشرعية الإسلامية، وقد تكامل الدين وثمرت النعمة الإلهية على الخلق.

وفي يوم من أيام الله الخالدة في يوم عرفة، عام حجة الوداع نزل قول الله تعالى «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا» (١).

وجاء في صحيح البخاري أن رجلاً من اليهود قال لعمر بن الخطاب: يا أمير المؤمنين، آية في كتابكم تقرأونها، لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً، قال: أي آية؟ قال: «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً» قال عمر: قد عرفنا ذلك اليوم والمكان الذي نزلت فيه على النبي ﷺ، وهو قائم بعرفة، يوم الجمعة.

وفي رواية: إني لأعلم اليوم الذي أنزلت فيه، والمكان الذي نزلت فيه، والساعة التي نزلت فيها على النبي ﷺ.

وفي رواية: «نزلت يوم الجمعة، يوم عرفة وكلاهما بحمد الله عيد».

(١) سورة المائدة آية ٣

دلائل ختم النبوة

جاءت نصوص القرآن المجيد والسنة الصحيحة دالة دلالة صريحة على ختم النبوة، وأجمعت الأمة سلفاً وخلفاً على أن سيدنا محمداً ﷺ آخر الأنبياء والمرسلين، فلا نبي بعده ولا رسول يعقبه..

ونسوق أولاً من القرآن الكريم هذه الآية:

«مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً» (١)

ولنا معها وقفات:

الارتباط بما سبق

تحدثت الآيات السابقة عن زواج الرسول ﷺ بالسيدة زينب بنت جحش بعد طلاقها من زيد بن حارثة، وأنه زواج أمر الله تعالى به قدراً مقدوراً لإبطال التبني الجاهلي حكماً وتطبيقاً.

الأبوة للرجال

نفى الآية أن يكون الرسول ﷺ أباً لأحد من الرجال، مع أن للرسول أولادا ذكورا.. فكيف يتأتى ذلك؟

وللتوضيح نقول إن مفهوم الرجل ليس وقفاً على البالغ بل قد يراد به غالباً الذكر من الناس صغيراً كان أو كبيراً، كما قال تعالى «وَأَن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ مِثْلٍ حَظِّ الْأُنثِيَّيْنَ» (٢)

فالرجل يشمل الكبير والصغير فكلاهما وارث.

وقد يطلق الرجل ويراد به الجلادة والرجولية (٣) وكمال العقل، ومنه قوله

(١) سورة الأحزاب - الآية ٤٠

(٢) سورة النساء - الآية ١٧٦

(٣) الرجولة والرجولية كمال الصفات المميزة للرجل.

تعالى «يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ . رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ» (١)

فالتسبيح ليس وقفا على الذكور بل هو يشمل الجنسين معاً.
والجواب على التساؤل الذى سقناه هو أنه لو فسرنا الرجل بالبالغ فلم يكن
لرسول الله ﷺ رجال بالغون..
فأولاد الرسول الذكور وهم القاسم وعبد الله وإبراهيم لم يصلوا إلى حد
البلوغ..

ولو فسرنا الرجل بالذكر مطلقاً فإن أبناء الرسول الذكور لم يكونوا أحياء
وقت نزول الآية، فإن القاسم وعبد الله ماتا صغيرين قبل النبوة أو فى صدر العهد
المكى وهما من السيدة خديجة ؓ التى توفيت فى العام العاشر من البعثة..
وأما إبراهيم فمن السيدة مارية القبطية، ولد فى ذى الحجة سنة ثمان من
الهجرة فى العهد المدنى وتوفى وهو ابن ستة عشر شهراً، أو ثمانية عشر شهراً..
وقد تزوج الرسول ﷺ بزَيْنَب بنت جحش فى ذى العقدة سنة خمس من
الهجرة.

الاستدراك بالرسالة

نفى الآية أن يكون محمد ﷺ أباً أحد من المؤمنين، وقد يظن من نفى
النسب نفى الحق المترتب على النسب من الاحترام والتبجيل، فجاء الاستدراك
بإثبات الرسالة التى توجب ما هو أعظم.. فكل نبي أب لأمة..

وحق الرسالة له جانبان

١ - الشفقة من جانب الرسول

٢ - التعظيم من جانب الأمة

(١) سورة النور - الآية ٣٦، ٣٧

وقد عبر القرآن عن الجانب الأول فى مثل قوله تعالى «لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ» (١)

وعبر عن الجانب الثانى فى مثل قوله جل شأنه «إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا» (٢)

العطف بالختم على الرسالة

إن عطف «خاتم النبیین» على «رسول الله» له دلالة فى بيان حق الرسول على أمته، فإذا كان سيدنا محمد ﷺ له حق التعظيم على أمته كسائر الرسل على أقوامهم فإن لسيدنا محمد ﷺ حقاً مضاعفاً، لأنه النبى الخاتم الذى كمل به الدين على البشر، وعظمت به المنة على العالمين وختم به الوحي الإلهى إلى المكلفين..

مفهوم الختم

قرأ عاصم بفتح التاء «خاتم»، وقرأ الجمهور بكسرهما «خاتم»، والختم الطبع وهو تأثير الشئ كنقش الخاتم والطابع..

ويقال: ختمت القرآن أى أتممت قراءته وانتهيت إلى آخره، وختم القوم أى جاء آخرهم..

والأمور بخواتيمها أى عواقبها وأواخرها..

وختامه مسك أى خاتمة شربه وسوره، ومن قال يختم بالمسك أى يطبع فليس بشيء لأن الشراب يجب أن يطيب فى نفسه، فأما ختمه بالطيب فليس مما يفيد ولا ينفعه طيب خاتمه مالم يطب فى نفسه.

وخاتم النبیین أى ختموا به أو ختمهم.. فهو كالخاتم والطابع لهم أو أنه جاء آخرهم.. (٣)

(١) سورة التوبة - الآية ١٣٨

(٢) سورة الفتح - الآية ٩

(٣) راجع أساس البلاغة للزمخشري، ومعجم مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني

ختم النبوة والرسالة

ختم النبوة ختم للرسالة لأن الرسول والنبى بمعنى واحد، هو الاصطفاء من الله تعالى لعبده وقيام هذا المصطفى بالتبليغ عن الخالق إلى الخلق..

وإذا قلنا إن النبوة أعم والرسالة أخص، فالنبى من أوحى إليه بشرع سواء أمر بالتبليغ أو لم يؤمر، والرسول هو من أوحى إليه بشرع وأمر بالتبليغ، فكل رسول نبى ولا عكس.. فمتى جاء النص على ختم النبوة فقد ختمت الرسالة، فنفى الأعم يقتضى نفي الأخص..

قال الإمام ابن كثير:

فهذه الآية نص فى أنه لا نبى بعده، وإذا كان لا نبى بعده فلا رسول بالطريق الأولى والأخرى، لأن مقام الرسالة أخص من مقام النبوة، فإن كل رسول نبى ولا ينعكس، وبذلك وردت الأحاديث المتواترة عن رسول الله ﷺ من حديث جماعة من الصحابة رضي الله عنهم. (١)



ثانيا: دلائل الأحاديث

نسوق هنا نماذج من أحاديث رسول الله ﷺ الدالة على ختم النبوة:

١ - فى صحيح البخارى بسنده عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة؟» قال: «أنا اللبنة وأنا خاتم النبيين» فهذا مثل ضربه رسول الله ﷺ تقريبا للأفهام، وبيانا لختم النبوة وتمام الرسالة الإلهية للخلق..

٢ - فى صحيح البخارى بسنده عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «لى خمسة أسماء، أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحى الذى يمحو الله به الكفر، وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمى، وأنا العاقب»

(١) تفسير القرآن العظيم ج ٣ ص ٤٩٣

ووجه الشاهد فى موضعين:

الأول: «أنا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمى» وفيه معنيان: قيل إنه ﷺ يحشر قبل الناس، كما جاء فى رواية أخرى «أنا أول من ينشق عنه القبر»، وقيل إن المراد أنه ﷺ آخر نبي، ويعقب زمن رسالته البعث والحشر، فلا ينتظر الناس نبيا بعده، وإنما موعدهم الساعة..

الثانى: «أنا العاقب»، وقد فسر فى بعض الروايات «الذى ليس بعده نبي»، وهذه الجملة محتملة للرفع إلى النبي ﷺ، والوقف على الراوى، وأيا ما كان فهى تفسير لكلمة العاقب..

٤ - فى صحيح البخارى بسنده عن أبى حازم قال: «قاعدت أبا هريرة رضي الله عنه خمس سنين فسمعتة يحدث عن النبي ﷺ قال: كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبي خلفه نبي، وإنه لانيى بعدى، وسيكون بعدى خلفاء فيكثرون، قالوا: فما تأمرنا؟ قال: فوا بيعة الأول فالأول، أعطوهم حقهم فإن الله سائلهم عما استرعاهم»

فأنبياء بنى إسرائيل كانوا يتعاقبون على حكم شعبهم ويجددون ما اندرس من شريعة الله، حتى جاء محمد ﷺ نبيا رسولا يحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، ولما ختمت النبوة ببعثة محمد ﷺ لم يبق إلا الخلفاء والأمراء يخلفون رسول الله فى الحكم وليس فى النبوة، فلا نبي بعده، وهؤلاء الخلفاء أو الأمراء قد يحدث بينهم نزاع وشجار فيجب الوفاء لمن عقدت له البيعة أولاً، ولا يجوز الخروج على الحاكم إلا أن يرى الناس فيه كفرا بواحا عندهم فيه من الله برهان.. لأن الفتنة تأكل الأخضر واليابس ولا تبقى ولا تذر.

٥ - وفى صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «فضلت على الأنبياء بست: أعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب، وأحلت لى الفنائم، وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا، وأرسلت إلى الخلق كافة، وختم بى النبيون»

٦ - وفى صحيح مسلم أن الرسول ﷺ قال: «بعثت أنا والساعة كهاتين، وضم السبابة والوسطى»

فمراد هذا الحديث تأكيد قرب قيام الساعة وأن النبي من أشرطها لأنه نبي آخر الزمان فلا نبي بعده، ولهذا قال الله تعالى ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ (١)

قال الإمام ابن كثير:

فمن رحمة الله تعالى بالعباد إرسال محمد ﷺ إليهم، ثم من تشريفه لهم ختم الأنبياء والمرسلين به، وإكمال الدين الحنيف له، وقد أخبر الله تبارك وتعالى في كتابه، ورسوله ﷺ في السنة المتواترة عنه أنه لا نبي بعده، ليعلموا أن كل من ادعى هذا المقام بعده فهو كذاب، أفاك، دجال، ضال مضل، ولو تخرق وشعبذ، وأتى بأنواع السحر والطلاسم والنيرنجيات، فكلها محال وضلال عند أولى الألباب، كما أجرى الله سبحانه وتعالى على يد الأسود العنسي باليمن ومسيلمة الكذاب باليمامة من الأحوال الفاسدة والأقوال الباردة ما علم كل ذي لب وفهم وحجى أنهما كاذبان ضالان لعنهما الله.

وكذلك كل مدع لذلك إلى يوم القيامة حتى يختموا بالمسيخ الدجال، فكل واحد من هؤلاء الكذابين يخلق الله تعالى معه من الأمور ما يشهد العلماء والمؤمنون بكذب من جاء بها، وهذا من تمام لطف الله تعالى بخلقه، فإنهم بضرورة الواقع لا يأمرن بمعروف ولا ينهون عن منكر إلا على سبيل الاتفاق أو لما لهم فيه من المقاصد إلى غيره، ويكون في غاية الإفك والفجور في أقوالهم وأفعالهم، كما قال الله تعالى ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَا تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ (٢)

وهذا بخلاف حال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فإنهم في غاية البر والصدق، والرشد، والاستقامة، والعدل فيما يقولونه ويفعلونه ويأمرن به وينهون عنه، مع ما يؤيدون به من الخوارق للعادات والأدلة الواضحات والبراهين الباهرات فضلووات الله وسلامه عليهم دائما مستمرا مادامت الأرض والسموات» (٣)

• • •

(٢) سورة الشعراء الآيتان ٢٢١، ٢٢٢.

(١) سورة القمر، الآية ١

(٣) تفسير القرآن العظيم ج ٣ ص ٤٩٤

حكمة ختم النبوة

إن ختم النبوة له حكم بالغة ودلالات ذات مغزى كبير، أهمها:

١ - كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة وتستمر شريعته لفترة محددة حتى يأتي نبي آخر يحددها أو ينسخها.. فقد اجتمع إبراهيم ولوط في زمن واحد وفي مكانين متجاورين، قال الله تعالى «فَأَمَّنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٦) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١)» وكان داود وسليمان نبيين، وكذا زكريا ويحيى فالأول منهما أب للثاني..

فإذا بعث الله تعالى محمدا ﷺ بالرسالة العامة الخالدة تأكدت حكمة ختم النبوة فإن دين الله قد عمّ الآفاق..

٢ - كان كل نبي يعالج قضية خاصة في مجتمعه في إطار القضية العامة التي التقى عليها الأنبياء جميعا، وهي قضية التوحيد الكبرى..

على سبيل المثال فقد تميزت رسالة شعيب بمعالجة الفساد الاقتصادي، قال الله تعالى «وَالِئِي مَدِينٍ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ (٨٤) وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٨٥) بَقِيَتْ اللَّهُ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيفٍ (٢)»

وتميزت رسالة لوط عليه السلام بمعالجة الفساد الأخلاقي، قال تعالى: «وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ (٢٨) أَأَنْتُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ

(١) سرزة العنكبوت - الآية ٢٦ : ٢٧

(٢) سورة هود ٨٣ : ٨٦

إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ» (١)

وتميزت رسالة موسى بمعالجة الفساد السياسى المتمثل فى الملك الطاغية فرعون، وبطانة السوء هامان، وكبرياء صاحب الثروة قارون، قال الله تعالى: «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢٣) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٢٤) فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ» (٢)

وهكذا كل نبي فى قومه له رسالة خاصة فإذا جاء محمد ﷺ ليعالج الحياة بأسرها، ويصلح المجتمع فى كافة جوانبه، ويقود الناس إلى التى هى أقوم فى الدين والدنيا كان لختم النبوة حكمة بالغة..

٣ - أيد الله رسله بالمعجزات تأكيداً لصدق البلاغ عن الله، إلا أن معجزات جميع الأنبياء السابقين كانت معجزات حسية ارتبطت بزمان ومكان وشخص نبيها وبمن شاهدها وقت وقوعها، فانقلاب العصا حية على يد موسى عليه السلام أو إحياء الموتى على يد عيسى عليه السلام - موقف حدث فى لحظة من الزمان، ووقع فى مكان معين وأمام جمع من الناس ثم أصبحت المعجزة خبراً يروى..

فإذا جاء محمد ﷺ بالقرآن المجيد معجزة عقلية لا ترتبط بزمان ولا مكان، ولا يتوقف إعجازه على حياة النبي الذى جاء به، بل يظل هذا القرآن يحمل دليله معه يناجى العقل الإنسانى ويناديه:

«وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» (٣)

هنا تصبح عقيدة ختم النبوة ضرورة عقلية..

(١) سرزة العنكبوت - الآيتان ٢٨ : ٢٩

(٢) سورة غافر - الآيات ٢٣ : ٢٥

(٣) سورة البقرة - الآية ٢٣

٤ - إن معجزة موسى عليه السلام انقلاب العصا حية، ورسالته التوراة، وإن معجزة عيسى عليه السلام إحياء الموتى، ورسالته الإنجيل، وهكذا كل نبي كانت له معجزة يستدل بها على رسالته، فهما شيئان مختلفان.. فإذا جاء محمد ﷺ بالمعجزة والرسالة يلتقيان على شيء واحد هو القرآن العظيم كان ذلك دلالة كبرى على ختم النبوة، فإن القرآن هو معجزة محمد ﷺ التي تظل شاهدة على صدقه، وإن القرآن هو الرسالة التي جاهد عليها محمد ﷺ بما فيه من عقيدة وشرعية وأخلاق وقيم تربي الإنسان السوي، وتبنى المجتمع المثالي، وتشيد الدولة والحضارة في دنيا الناس جيلا بعد جيل..

٥ - إن أتباع الرسالات السابقة حرفوا كتبهم المنزلة، وغيروا معالم الحق، وطمسوا حقائق الوحي، وخانوا الأمانة وما استحفظوا عليه..

قال تعالى «فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ» (١)

فإذا جاء محمد ﷺ بالكتاب المهيمن الخالد الذي يتولى الله حفظه وبقاءه وعدا عليه حقا «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ» (٢)، كان ختم النبوة موائما لمقتضى الحال، وملائما للسنة الطبيعية، وحثمية اجتماعية حيث بقى الكتاب فانقطعت النبوة..

٦ - إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضة محكمة على كل مسلم ومسلمة بقدر علمه وفي حدود مسئوليته.. قال الله تعالى «وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» (٣)

١ - سورة البقرة - الآية ٧٩

٢ - سورة الحجر - الآية ٩

٣ - سورة التوبة - الآية ٧١

وإن تبليغ دعوة الإسلام وتجديد الولاء لها منوط بالعلماء العاملين والأمراء العادلين، الذين يحفظون للأمة أصول الدين ومعالِم الإسلام، وفي صحيح البخارى بسنده عن المغيرة بن شعبة عن النبي ﷺ قال: «لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين حتى يأتى أمر الله وهم ظاهرون» وفي رواية عن معاوية قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «لا يزال من أمتى أمة قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك»

وقد فسر البخارى هذه الطائفة بأنهم أهل العلم، وفسرها الامام النووى بأنها جماعة متعددة من أنواع المؤمنين، ما بين شجاع وبصير بالحرب وفقه ومحدث ومفسر، وقائم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وزاهد وعابد، وقال: لا يلزم أن يكونوا مجتمعين فى بلد واحد بل يجوز اجتماعهم فى قطر واحد وافتراقهم فى أقطار الأرض.. (١)

وجاء فى حديث رواه أبو داود وصححه الأئمة قول رسول الله ﷺ «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها»

واختلف العلماء فى شرح هذا الحديث من وجوه:

هل المراد بالأمة أمة الإجابة أو أمة الدعوة؟

وهل اعتبار المائة من الميلاد أو من البعثة أو من الهجرة أو من الوفاة؟

وهل المراد برأس المائة آخرها أو أولها؟

وهل المبعوث واحد أو أكثر؟

وأيا ما كان فالمراد هو استمرار الدعوة إلى هذا الدين القيم، وتحمل المؤمنين الصادقين لتبعات هذه الدعوة، وعناية الله تعالى ووعد به حفظ الإسلام..

ومما لا يخفى أن البعث ليس مراداً به بعث النبوة فإن النبوة قد انقطعت وإنما هو بعث إيجاد وتدبير وعناية تحقيقاً لقوله تعالى «هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون» (٢)

١ - فتح البارى بشرح صحيح البخارى ج ١٣ ص ٢٩٥

٢ - سورة الصف - الآية ٩

إنكار ختم النبوة

نقل الإمام القرطبي في تفسيره الآية ختم النبوة من سورة الأحزاب ما يلي:
قال ابن عطية: هذه الألفاظ عند جماعة علماء الأمة خلفا وسلفا، متلقة على العموم التام، مقتضية نصا أنه لا نبي بعده ﷺ، وما ذكر القاضى أبو الطيب في كتابه المسمى بالهداية من تجويز الاحتمال في ألفاظ هذه الآية ضعيف.

وما ذكره الغزالي في هذه الآية، وهذا المعنى في كتابه الذى سماه بالاقتصاد، إلحاد عندى وتطرق خبيث إلى تشويه عقيدة المسلمين فى ختم محمد ﷺ النبوة، فالحذر.. الحذر منه، والله الهادى برحمته»^(١)

وقد رجعت إلى كتاب «الاقتصاد فى الاعتقاد» فوجدت الإمام الغزالي فى نهايته يتكلم عمن يجب تكفيره من الفرق والأديان، وحدد الغزالي أصلا مقطوعا به، وهو أن كل من كذب محمدا ﷺ فهو كافر، وجعل هؤلاء المكذبين مراتب ستا، ويعيننا هنا المرتبة السادسة وأصحابها لا يصرحون بالتكذيب ولا يكذبون أمرا معلوما على القطع بالتواتر من أصول الدين، وإنما ينكرون الإجماع..

ويرى الغزالي أن الشبه كثيرة فى كون الاجماع حجة قاطعة، وليس يدل على استحالة الخطأ على أهل الإجماع دليل عقلى ولا شرعى متواتر ولذا فالتوقف فى تكفير منكر الإجماع وارد وإن كان مستبعدا..

واعترف الغزالي بأنه لو قيل بذلك وفتح هذا الباب لجر إلى أمور شنيعة، وضرب لذلك مثلا بمن قال: يجوز أن يبعث رسول بعد نبينا محمد ﷺ..!!

وأسباب التوقف فى تكفير هذا القائل أن العقل لا يحيله، والنقل يجوز فيه التأويل، فلا يبعد تخصيص العام كأن يقال: خاتم النبيين أراد به أولى العزم من الرسل أو أن النبي أعلى مرتبة من الرسول فهو خاتم النبيين وليس خاتم المرسلين..

ووصف الغزالي هذه الأسباب بأنها من أنواع الهذيان لأنها تعتمد على مجرد

١ - الجامع لأحكام القرآن لأبى عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبي ج ١٤ ص ١٩٦ ط مكتبة

الغزالي بدمشق

اللفظ، وتتناسى أن الأمة فهمت بالإجماع من هذه الألفاظ ومن قرائن الأحوال أنه لا نبى بعد محمد أبداً، وأنه ليس فيه تأويل ولا تخصيص»..

فالواضح أن الغزالي لم يقطع بتكفير منكر ختم النبوة لأن النصوص قد تؤول، ولأن العقل لا يحكم بالاستحالة، والمنكر إنما ينكر الإجماع، وإنكار الإجماع ليس كفراً..

ونحن نرى أن ختم النبوة قضية شرعية سمعية، ولها حكم عقلية، وهي مرتبطة بدلائل النبوة، فمتى صدق النبى فى دعوى النبوة وقامت بينات الهدى وجب قبول ما يخبر به من أمور لا يحيلها العقل ولا يمنعها..

ومسألة التأويل فى النصوص ليست مفتوحة على الإطلاق، وإلا لم يسلم نص من ذلك، وضاعت كل معالم الدين..

فالواجب هو أن يكون للتأويل سبب، ويدفع إليه مقتضى، وتدعو إليه قرائن واضحة ومرشحات صحيحة..

ثم إن احتمالات الخطأ فى الإجماع الكلى هى احتمالات وهمية ومجرد تصور يتلاشى مع وضوح النص وقرائن الأحوال وتلقى الأمة بالقبول.. والأهم من ذلك كله أن احتمال صدق دعوى النبوة بعد سيدنا محمد ﷺ واستمرار الوحي الإلهى لم يقع، ولم تعرف البشرية أهدى من التوحيد والتشريع الإسلامى..

وذهب الأدعياء أدراج الرياح، وثبت أنهم مرضى نفسياً وعقلياً، وطالبون للزعامة والشهرة، وحاقدون يبغون الفتنة، ودخلاء يسعون لتمزيق وحدة الصف الإسلامى، ولم يكن لأى منهم سلوك المهتدين أو منهج الإصلاح الراشد، ولم تصاحبهم معجزات مؤيدة..

إن إنكار ختم النبوة ليس مجرد إنكار للإجماع، بل هو سيؤدى حتماً إلى إنكار ما علم من الدين بالضرورة وهدم حقائق الإسلام بأجمعها، فماذا نقول لو ادعى مخبول أن الصلاة نسخت أو أن أركانها تبدلت، أو أن الصيام يرتبط بشهر ديسمبر بدلاً من شهر رمضان، أو أن الحج يؤدى فى شهر يناير بدلاً من شهر ذى الحجة؟!!

وماذا نقول لمن استهوته الشياطين وألف كتابا ينسخ القرآن ويرفض التعبد به؟!

ولسنا نتوهم ذلك أو نفرض المحال، بل لقد وقع ذلك عند أدعياء النبوة قديما وحديثا، وقال البهائيون بأكثر من ذلك..

فإنكار ختم النبوة كفر صراح، والقائلون باستمرار النبوة بعد سيدنا محمد ﷺ مرتدون عن الإسلام..

على هامش ختم النبوة

ختم النبوة يعنى انقطاع الوحي الإلهي المرتبط بالتشريع والأحكام، بحيث يظل المكلفون على الولاء للرسالة المحمدية، وعقيدة القرآن والسنة، بلا نبوة جديدة، لا مؤسسة ولا مؤكدة..

لكن ذلك لا يعنى بحال من الأحوال انقطاع صلة التكريم بين الله تعالى وعباده المؤمنين، فإن هناك ألوانا كثيرة تحقق هذه الصلة وتعمقها، منها:

١ - المبشرات

ففى صحيح البخارى بسنده أن أبا هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لم يبق من النبوة إلا المبشرات، قالوا: وما المبشرات؟ قال: الرؤيا الصالحة» وفى رواية عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: «رؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة»

وكانت الرؤيا الصالحة جزءاً من النبوة على جهة التشبيه، من حيث كونها اطلاعا على بعض الغيب، ثم إن العدد بستة وأربعين لامفهوم له فقد جاءت روايات أخرى بخمسة وأربعين، وسبعين، وغير ذلك فالمراد بيان تباعد ما بين النبوة والرؤيا. وقد قسم الرسول ﷺ الرؤيا إلى أنواع، فقال - كما فى صحيح مسلم -: «أصدقكم رؤيا أصدقكم حديثا، ورؤيا المسلم جزء من خمس وأربعين جزءاً من النبوة، والرؤيا ثلاثة: الرؤيا الصالحة بشرى من الله، ورؤيا تحزين من الشيطان، ورؤيا مما يحدث المرء نفسه، فإن رأى أحدكم ما يكره فليقم فليصل ولا يحدث بها الناس» قال القاضى أبو بكر بن العربى:

رؤيا المؤمن الصالح هى التى تنسب إلى أجزاء النبوة، ومعنى صلاحها استقامتها وانتظامها، قال: وعندى أن رؤيا الفاسق لا تعد من أجزاء النبوة، وقيل: تعد من أقصى الأجزاء، وأما رؤيا الكافر فلا تعد أصلا.

وقال القرطبي: «المسلم الصادق الصالح هو الذى يناسب حاله حال الأنبياء، فأكرم بنوع ما أكرم به الأنبياء، وهو الاطلاع على الغيب، وأما الكافر والفساق والمخلط فلا، ولو صدقت رؤياهم أحيانا فذلك كما قد يصدق الكذوب، وليس كل من حدث عن غيب يكون خبره من أجزاء النبوة كالكاهن والمنجم»^(١).

• • •

٢ - المحدثون

فى صحيح البخارى بسنده عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: رسول الله ﷺ: «لقد كان فيما قبلكم من الأمم ناس محدثون، فإن يك فى أمتى أحد، فإنه عمر»
وفى رواية: «لقد كان فيمن كان قبلكم من بنى إسرائيل رجال يكلمون من غير أن يكونوا أنبياء، فإن يكن فى أمتى منهم أحد فعمر»
والمحدث (بفتح الدال المشددة) ويكلمون (بالبناء للمجهول) أى تحدثهم الملائكة وتكلمهم بحيث يلهمون الخير والتوفيق، كما جاء فى رواية الترمذى «إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه»

وليس هذا المعنى خاصا بعمر بن الخطاب رضي الله عنه، وإن كان له مزيد فضل، فإن الله تعالى قد منحه لكل مؤمن تقى نقى، فقال «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ»^(٢)
وقال سبحانه «إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ»^(٣)

١ - راجع فتح البارى بشرح البخارى للإمام ابن حجر جـ ١٢ ص ٣٦٢

٢ - سورة الأنفال - الآية ٢٩

٣ - سورة فصلت - الآيتان ٣٠ ، ٣١

فتنزل الملائكة على أولياء الله للتأييد والنصرة والتسديد قائم إلى يوم القيامة، وقد جاءت النصوص الشرعية بتنزل الملائكة عند قراءة القرآن، وحلق العلم والذكر، وفي ليلة القدر.. وهكذا، قال تعالى «تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ (٤) سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطَلَعِ الْفَجْرِ» (١)

وفي صحيح الحديث يقول ﷺ:

«ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله تعالى، يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده» وللتفريق بين إلهام الملائكة ونزغات الشياطين، لا بد أن يكون الحكم حيثند لأصول الشرع وقواعد الدين ومسلمات الفطرة، فما وافقها كان مقبولا وما خالفها كان مردودا..

وهناك حديث شريف يوضح فيه الرسول ﷺ هذا المعنى فيقول:

إن للشيطان لمة وللملك لمة، فأما لمة الشيطان فيإعاد بالشر وتكذيب بالحق، وأما لمة الملك فيإعاد بالخير وتصديق بالحق، فمن وجد منكم ذلك فليعلم أنه من الله وليحمد الله علي ذلك، ومن وجد الأخرى فليستعذ بالله من الشيطان، ثم قرأ «الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا» (٢)

• • •

٣- نزول عيسى عليه السلام

عقيدة المسلم في شأن عيسى ابن مريم أنه عبد الله ورسوله، المحبته مريم البتول دون أن يمسه بشر، ودعا إلى التوحيد الخالص، وحاول اليهود قتله وصلبه ولكن الله تعالى أنقذه منهم ورفعته إليه..

وهناك اتجاه قوى لدى علماء العقيدة يؤكد نزول عيسى ابن مريم إلى الأرض في آخر الزمن بناء على ظاهر القرآن وصريح السنة، فقد أخرج البخارى في صحيحه بسنده عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

٢- سورة البقرة- الآية ٢٦٨

١- سورة القدر- الآيتان ٤ ، ٥

«والذى نفسى بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما عدلا، فيكسر الصليب ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد، وحتى تكون السجدة خيرا له من الدنيا وما فيها».. ثم يقول أبو هريرة: اقرأوا إن شئتم «وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا»^(١)

وفى مسند الإمام أحمد عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال: «الأنبياء إخوة لعلات»^(٢)، أمهاتهم شتى ودينهم واحد، وإنى أولى الناس بعيسى ابن مريم، لأنه لم يكن نبي بينى وبينه، وإنه نازل، فإذا رأيتموه فاعرفوه، رجل مربع^(٣)، إلى الحمرة والبياض، عليه ثوبان معمران، كأن رأسه يقطر إن لم يصبه بلل، فيدق الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية، ويدعو الناس إلى الإسلام، ويهلك الله فى زمانه الملل كلها إلا الإسلام، ويهلك الله فى زمانه المسيح الدجال، ثم تقع الأمانة على الأرض حتى ترتع الأسود مع الإبل، والنمار مع البقر، والذئب مع الغنم، ويلعب الصبيان بالحيات ولا تضرهم، فيمكث أربعين سنة ثم يتوفى ويصلى عليه المسلمون»

وعلى هذا فنزل عيسى عليه السلام لا يقدح فى ختم النبوة، لأنه لا يأتى بنبوة جديدة، وإنما ينزل آية من آيات الله على صدق الإسلام والقصص الحق الذى جاء به القرآن، ويكون حجة على اليهود والنصارى، ويدعوهم إلى عقيدة التوحيد وكلمة التقوى والعروة الوثقى: لا إله إلا الله، محمد رسول الله.

١ - سورة النساء - الآية ١٥٩

٢ - بنو العلات: أولاد الرجل من نسوة شتى

٣ - المربع: الرجل ليس بالطويل ولا بالقصير

خاتمة

●● قدمنا - بتوفيق الله - فى هذه الدراسة ملامح الشخصية المحمدية، فسيدنا محمد ﷺ هو اليتيم الطاهر النزيه والعفيف الزاكي..

وهو راعى الغنم العزيز النفس الذى تسامى على كل متع الحياة، وتعالى فوق كل إغراء..

وهو الصادق الأمين مع الناس ومع الله...

وهو الأمى الذى علم الفلاسفة، وأصلح شئون الحياة، وقدم للعالمين منهج الهداية والسعادة فى الأولى والآخرة..

●● وسقنا فى هذه الدراسة دلائل النبوة المحمدية:

- فى عمقها التاريخى المتمثل فى ميثاق النبیین ودعوة إبراهيم وبشرى عيسى..

- وفى معجزة القرآن الذى تعددت وجوه إعجازه.

- وفى المعجزات الحسية التى جمعت لرسول الله ﷺ ما تفرق فى سائر الأنبياء.

- وفى الخلق العظيم الذى جمع الفضائل كلها وحاز المكارم بأجمعها..

●● وتتبعنا صور الوحي المحمدى ورددنا بعض الشبهات التى أثارها الحاقدون، إيماناً منا بأن الدفاع عن الوحي المحمدى هو دفاع عن شرف الأنبياء جميعاً.

●● وأظهرنا خصائص النبوة المحمدية فى عموم الرسالة وختم النبوة كى نصل إلى حقيقة الإيمان الصحيح، فسيدنا محمد ﷺ هو خاتم النبیین، ورسالته عامة زماناً ومكاناً حتى يرث الله الأرض ومن عليها..

﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (يونس / ٣٧).

المؤلف فى سطور

دكتور / محمد سيد أحمد المسير.

- أستاذ العقيدة والفلسفة بكلية أصول الدين - جامعة الأزهر.
- عمل أستاذاً مشاركاً، ثم رئيساً لقسم اللغة العربية والدراسات الإسلامية فى كلية التربية - فرع جامعة الملك عبدالعزيز بالمدينة المنورة ١٩٨٣ - ١٩٨٧ م.
- أغير أستاذاً فى كلية الدعوة وأصول الدين - جامعة أم القرى بمكة المكرمة من سنة ١٩٩٣ - ١٩٩٨ م.
- شارك فى عضوية المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بوزارة الأوقاف.
- شارك فى عضوية جمعية الدراسات الإسلامية بالزمالك.
- يشارك فى عضوية الجمعية الفلسفية المصرية.
- يكتب المقالات فى المجلات والصحف الإسلامية فى مصر والعالم الإسلامى.
- كان الأول على طلاب الجمهورية فى الشهادة الإعدادية عام ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م، من معهد شبين الكوم.
- كان السادس عشر على طلاب الجمهورية فى الثانوية الأزهرية عام ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م، وكانت المرحلة الثانوية يومئذ خمس سنوات.
- حصل على تقدير ممتاز مع مرتبة الشرف فى الشهادة العالية من قسم العقيدة والفلسفة بكلية أصول الدين بالقاهرة عام ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م.
- شارك فى المؤتمرات والملتقيات الفكرية مثل:
- المؤتمر الحادى عشر لمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر فى رجب ١٤٠٨ هـ.

- ندوة الفقه الإسلامى فى سلطنة عمان فى شعبان ١٤٠٨ هـ.
- الموسم الثقافى لشهر رمضان فى دولة الكويت ١٤٠٩ هـ.
- الندوة القومية لمواجهة الدس الشعوبى فى بغداد من ٢٢ - ٢٤، لشهر جمادى الأولى ١٤١٠ هـ.
- المؤتمر الإسلامى العالمى لمناصرة العراق المنعقد فى بغداد، فى شهر ذى القعدة ١٤١٠ هـ «قبل الغزو».
- المؤتمر القومى الذى نظمه المركز العربى للإعلام بالقاهرة تحت عنوان «الإدمان قضية العصر» من ١٨ - ٢٠ من فبراير ١٩٩٠ م.
- المؤتمر الإسلامى العالمى لمناقشة أزمة الخليج، الذى نظمته رابطة العالم الإسلامى بمكة المكرمة من ٢١ - ٢٣ صفر ١٤١١ هـ.
- الندوة العلمية لمناقشة حقوق الإنسان بين الإسلام والغرب، فى طهران بتاريخ ٩ - ١٢ سبتمبر ١٩٩١ م.
- المهرجان الإسلامى العالمى فى الكويت للإفراج عن الأسرى والمحتجزين فى سجون العراق من ١٩ - ٢١ يناير ١٩٩٢ م.
- الموسم الثقافى لشهر رمضان فى دولة الإمارات العربية المتحدة ١٤١٢ هـ.
- ندوة الإعلام الإسلامى بين تحديات الواقع وطموحات المستقبل، التى نظمته مؤسسة «اقرأ» الخيرية، بالتعاون مع جامعة الأزهر فى ذى القعدة ١٤١٢ هـ. مايو ١٩٩٢.
- سافر مع وزير الأوقاف المصرى ضمن وفد رسمى لزيارة دول الكومنولث الإسلامية بتاريخ ١٣ - ٢٥ سبتمبر ١٩٩٢ م.

- المؤتمر الثاني عشر لمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر من ٢ - ٥ لشهر جمادي الأولى سنة ١٤١٣ هـ.

- مؤتمر التوجيه الإسلامي للعلوم الذي نظّمته رابطة الجامعات الإسلامية بالاشتراك مع جامعة الأزهر سنة ١٤١٣ هـ.

- الندوة العلمية «في قلب الشرق: قراءة معاصرة لأعمال لوي ماسنيون»، التي نظمها قسم الفلسفة بكلية الآداب - جامعة القاهرة مع المركز الفرنسي للثقافة والتعاون يومى ١٤، ١٥ / ٣ / ١٩٩٩ م.

- المؤتمر الدولي الرابع للفلسفة الإسلامية في كلية دار العلوم - جامعة القاهرة تحت عنوان «الإسلام في عصر العولمة» بتاريخ ١٨، ١٩ من المحرم ١٤٢٠ هـ - ٤، ٥ من مايو ١٩٩٩ م.

- ندوة «الفساد الاقتصادي - الواقع المعاصر والحل الإسلامي» التي أقامها مركز صالح كامل للاقتصاد الإسلامي بجامعة الأزهر بتاريخ ٢٢: ٢٣ من مارس ٢٠٠٠ م.

- المؤتمر الدولي الخامس للفلسفة الإسلامية في كلية دار العلوم - جامعة القاهرة، تحت عنوان «الإسلام وحوار الحضارات» بتاريخ ٢٧ / ٢٨ من المحرم ١٤٢١ هـ - ٢، ٣ من مايو سنة ٢٠٠٠ م.

كتب للمؤلف

فى العقيدة:

- ١ - فى نور العقيدة الإسلامية.
- ٢ - أدب الحديث عن الله.
- ٣ - علم التوحيد للشهادة الإعدادية الأزهرية.
- ٤ - التمهيد فى دراسة العقيدة الإسلامية.
- ٥ - الإلهيات فى العقيدة الإسلامية.
- ٦ - الشفاعة فى الإسلام.
- ٧ - النبوة المحمدية: دلائلها وخصائصها.

فى الفلسفة:

- ٨ - الروح فى دراسات المتكلمين والفلاسفة.
- ٩ - المجتمع المثالى فى الفكر الفلسفى وموقف الإسلام منه.
- ١٠ - قضايا إنسانية فى الفكر الدينى والفلسفى.

فى الأديان:

- ١١ - المدخل لدراسة الأديان.
- ١٢ - أصول النصرانية فى الميزان.
- ١٣ - أوروبا والنصرانية.

١٤ - المسيح ورسالته فى القرآن.

١٥ - عبادة الشيطان فى البيان القرآنى والتاريخ الإنسانى.

فى الفرق الإسلامية.

١٦ - الحوار بين الجماعات الإسلامية.

١٧ - مقدمة فى دراسة الفرق الإسلامية.

١٨ - قضية التكفير فى الفكر الإسلامى.

فى السيرة النبوية والحديث الشريف:

١٩ - الرسول فى رمضان.

٢٠ - الرسول حول الكعبة.

٢١ - الرسول والوحى (١)

٢٢ - الرسول وقضايا المجتمع.

٢٣ - الرسول والمواقفات.

٢٤ - وعندئذ قال الرسول.

٢٥ - أيسر البيان فى شرح الحكمة النبوية.

(١) صدر فى طبعة جديدة بعنوان «النبوة المحمدية».

في الشريعة الإسلامية

٢٦ - محاورة تطبيق الشريعة.

٢٧ - نحو دستور إسلامي.

٢٨ - أخلاق الأسرة المسلمة.

**تحقيق مؤلفات فضيلة الدكتور سيد أحمد رمضان
المسير - رحمه الله تعالى :**

٢٩ - السنة مع القرآن.

٣٠ - السنة المطهرة.

٣١ - إلزام القرآن للماديين والمليين.

٣٢ - دراسات قرآنية.

فهرس الكتاب

٣	المقدمة
١١	الباب الأول: ملامح الشخصية المحمدية
١٣	• اليتيم
٢٢	• راعى الغنم
٢٩	• الصادق الأمين
٣٦	• الأُمى
٤٠	• كلمة تنبيه
٤٥	• حديث هرقل
٤٩	الباب الثاني: دلائل النبوة المحمدية
٥١	الفصل الأول: العمق التاريخي
٥٣	• ميثاق النبيين
٥٨	• دعوة إبراهيم
٦٣	• بشرى عيسى
٦٩	الفصل الثاني: الواقع المعاصر لنشأة الدعوة
٧١	الدين

٧٢

- الوثنية

٧٧

- المجوسية

٨٠

- اليهودية

٨٢

- النصرانية

٨٥

ب - الأخلاق:

٨٦

• نكاح الجاهلية

٨٨

• وأد الأولاد

٩٢

• قانون الغاب

٩٥

• كلمة توضيح

٩٩

الفصل الثالث: المعجزة الكبرى

١٠١

• التحدى بالقرآن

١٠٤

• تذوق البيان القرآنى

١٠٧

• وجوه الإعجاز القرآنى

١٠٨

١ - الاعجاز البيانى

١١٢

٢ - الإعجاز العقدى

١١٤

٣ - الإعجاز التشريعى

١١٨	٤ - الإعجاز العلمي
١٢٨	٥ - الإخبار بالغيب
١٢٩	أ - غيب الماضي
١٣٢	ب - غيب الحاضر
١٣٤	نماذج من حديث القرآن عن المنافقين
١٣٨	وجه الإعجاز
١٣٩	ج - غيب المستقبل
١٤١	الفصل الرابع: المعجزات الحسية
١٤٤	١ - الإسراء والمعراج
١٤٩	٢ - انشقاق القمر
١٥١	٣ - نبع الماء
١٥١	٤ - تكثير الطعام
١٥٢	٥ - حنين الجذع
١٥٢	٦ - الدعاء المستجاب
١٥٣	٧ - الإخبار بالغيب
١٥٥	الفصل الخامس: الخلق العظيم

١٥٧ ● حرص الرسول على أمته

١٦٠ ● عدل الرسول بين أزواجه

١٦١ ● حسن توكله على الله

١٦١ ● شجاعته

١٦١ ● كرمه

١٦٢ ● حسن معاملته ورحمته وحيأؤه

١٦٣ ● تواضعه وسماحته وعفوه

١٦٤ ● طيب ريحه ﷺ

١٦٥ ● الباب الثالث: الوحي المحمدى

١٦٧ ● الفصل الأول: صور الوحي المحمدى

١٦٩ ● الرؤيا الصالحة

١٧١ ● لقاء إسرافيل

١٧٤ ● صلصلة الجرس

١٧٧ ● تشكل الملك فى صورة رجل

١٨٦ ● رؤية الملك فى صورته الحقيقية

١٩١ ● المناجاة فى الحضرة الإلهية

١٩٢ • تذييل

١٩٧ الفصل الثاني: شبهات حول الوحي المحمدي

١٩٩ تمهيد

٢٠١ الشبهة الأولى: البشرية

٢٠٣ الشبهة الثانية: السحر

٢١٢ الشبهة الثالثة: الجنون

٢١٨ الشبهة الرابعة: الصرع

٢٢٣ الباب الرابع: خصائص النبوة المحمدية

٢٢٥ الفصل الأول: عموم الرسالة المحمدية

٢٢٧ ١ - أهل الكتاب

٢٣٤ • قصة المباهلة

٢٣٧ ٢ - العرب والعجم

٢٣٩ • الهجرة إلى الحبشة

٢٤١ • الرسائل النبوية

٢٤٢ • تأمين الدعوة

٢٤٣ ٣ - الإنس والجن

٢٤٤

٤ - العالمون

٢٤٧

دعوة نوح عليه السلام

٢٥١

الفصل الثاني: ختم النبوة

٢٥٢

تمهيد

٢٥٤

دلائل ختم النبوة

٢٦٠

حكمة ختم النبوة

٢٦٤

إنكار ختم النبوة

٢٦٧

على هامش ختم النبوة

٢٦٧

● المبشرات

٢٦٨

● المحدثون

٢٦٩

● نزول عيسى عليه السلام

٢٧١

الخاتمة

٢٧٢

المؤلف في سطور

٢٧٥

كتب للمؤلف

٢٧٩

الموضوعات

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٠٠٠/١٤٩٥٣

دار النضر للطباعة والإستيلانية
٢ - شارع لشاطلى شجر القسامرة
الرقم البريدى - ١١٢٣١

دار الأحياء
للطباعة والنشر والتوزيع
٨ شارع حسين حجازي - القاهرة

هاتف . ٧٩٥١٧٤٨ - ٧٩٤٤٧٤٨ - فاكس : ٧٩٤٦٠٣١
ص . ب . ٤٧٠ القاهرة - الرمز البريدي : ١١٥١١